المحـــاورة:

مقاربة تداولية

الدكتور

حسن بدوح

أستاذ مبرز في اللغة العربية - المغرب

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد- الأردن

2012

١٥٨٦
ح

المحـــاورة:

مقاربة تداولية

الدكتور

حسن بدوح

أستاذ مبرز في اللغة العربية - المغرب

عالم الكتب الحديث
Modern Books' World
إربد- الأردن
2012

الكتاب
المحـــاورة: مقاربة تداولية
تأليف
حسن بدوح
الطبعة
الأولى، 2012
عدد الصفحات: 212
القياس: 17×24
رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(2011/6/2188)
جميع الحقوق محفوظة
ISBN 978-9957-70-498-8

الناشر
عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع
إربد- شارع الجامعة
تلفون: (27272272- 00962) خلوي: 0785459343
فاكس: 27269909- 00962
صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)
E-mail: almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
www.almalkotob.com
الفرع الثاني
جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع
الأردن- العبدلي- تلفون: 5264363/ 079
مكتب بيروت
روضة الغدير- بناية بزي- هاتف: 00961 1 471357
فاكس: 00961 1 475905

الاهداء

إلى روح أمي الطاهرة التي وافتها المنية قبل أن يعرف
هذا الكتاب طريقه إلى النور

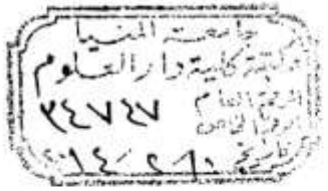

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مدخل عام	1
بواعث البحث في هذا الموضوع ومنطلقاته النظرية والمنهجية	
الباب الأول	17
التواصل اللساني وعلاقته بالأنساق التواصلية الأخرى	
الفصل الأول: أهمية التواصل وفواعله	19
1- التواصل: إشكالية التعريف والتحديد	19
2- أهمية التواصل في حياة الإنسان	23
3- التواصل الإنساني والتواصل الحيواني	25
4- فواعل العملية التواصلية	31
الفصل الثاني: وظائف اللغة وعلاقة التواصل اللساني بأنساق التواصل الأخرى	45
1- وظائف اللغة	45
2- أنساق التواصل	57
3- علاقة التواصل اللساني بالأنساق الأخرى	56
الباب الثاني	69
العناصر الموازية لسانيا والخارج لسانية والكفاية التواصلية المطلوبة في المحاورة	
الفصل الأول: تقنيات التعبير الكتابي والشفهي	71
1- لماذا الحديث عن تقنيات التعبير والتواصل؟	71
2- بعض مظاهر الاختلاف بين التواصل الشفهي والتواصل الكتابي	72
3- بعض مظاهر التعبير الكتابي وتقنياتها	76
الفصل الثاني: العناصر الموازية لسانيا والخارج لسانية المساهمة في المحاورة	95
1- العناصر الموازية لسانيا المساهمة في توجيه المحاورة	95
2- العناصر الخارج لسانية المساهمة في توجيه المحاورة	109

الإنسان وآدميته، وإهمالها هو إهمال لأخص خصائص الإنسان وأميز ما يتفرد به الكائن البشري عن سائر الحيوانات. فمما لا شك فيه أن الإنسان لا يستطيع أن ينمي قدراته وإمكانياته إلا بالمشاركة في حياة الآخرين. ولذلك كله، يتوجب عليه أن يصل إلى الخلق المتزن بالمشاركة المتنافسة مع الآخرين. ومن هنا، فإن الهدف من المحاورة ليس فقط هو تنظيم الحياة الفردية، بل هو تنظيم الحياة الاجتماعية أيضا إذ الواقع أن الإنسان لا يجد نفسه إلا داخل المجتمع.

وسيتبين- في ثنايا هذا العمل- أن المحاورة ترتكز بالأساس على اللسان الذي يعد محركها الأساس، كما تعتمد على مساعدة عدة عناصر غير لسانية بما فيها العناصر الخارج لسانية والموازية لسانيا؛ حيث تساعد هذه العناصر وغير اللسانية على إنتاج الخطاب و تأويله.

إن المحاورة بهذا المعنى عبارة عن مؤسسة اجتماعية تضم داخلها كل الممارسات التي تنظم دور الكلام في مجتمع معين. وعندما أقول: إن المحاورة مؤسسة اجتماعية، فإني أشير بذلك إلى أنها تجسد سلطة اجتماعية؛ لأن ممارستها بشكل يحقق الأهداف العامة والخاصة المرجوة منها يقتضي أن يحترم المشاركون مجموعة من الشروط (*Les conditions*) والقواعد (*Les lois*) والمسلمات (*Les Postulats*) والمبادئ (*Les principes*)... متى أرادوا الحفاظ على روح المحاورة، أما غير ذلك فسيدفع بهم خارج هذا النشاط.

ولذلك فهذه الضوابط المختلفة موجه بالأساس لخدمة الأهداف العامة والخاصة التي وضعت من أجلها شتى أنواع التبادلات الكلامية واستعملت لخدمتها: الإخبار والتأثير في الآخرين وتوجيه سلوكاتهم...

لذلك كله كان هدفي الأساس في هذا العمل هو البحث- قدر المستطاع- عن مختلف التقنيات المستعملة في التعبير الشفهي: المقابلة الشفوية (*Entretien*) والندوة (*Colloque*) والمداخلة (*Intervention*) والمجادلة والمناظرة والمحاورة...إلا أنني سأركز اهتمامي على المحاورة، وذلك تفاديا للانزلاق والتيه داخل هذا الفضاء الشاسع والرحب الذي هو التواصل، وتفاديا كذلك لعدم الدقة في النتائج التي آمل بلوغها في هذا العمل.

ولعل معرفة التقنيات التي تشتغل بها هذه الأساليب الحوارية هي السبيل إلى استعمال جيد ومعقلن للوسائل التي يوفرها اللسان الطبيعي بمساعدة عناصر غير لسانية: بما فيها العناصر الخارج لسانية والموازية لسانيا. فقد يعتمد المتكلم أثناء محاورته على تقنية الإغواء أو التغليط أو الاستهواء أوالتهويل أوالإيهام...، وقد يسلك- في مقابل ذلك- طريق التشاور والمحاججة... وكل السبل التي يكون الهدف منها الدعوة إلى عقد علاقات اجتماعية مبنية على أساس نبذ العنف والدعوة إلى أخذ تجاوب كل أطراف المحاورة بعين الاعتبار.

وإلى جانب ذلك، قد يسلك المتكلم المحاور طريق التصريح- وهذا نادر جدا- أو طريق التضمين- وهو الغالب-؛ لأن اللغة في معظمها مجاز كما يقول ابن جني[1]. ومادام الأمر كذلك فسأحاول قدر المستطاع وصف وتفسير مختلف مسارات التسنين والاستدلال التي تمكن المخاطب من الوصول إلى قصد المتكلم من خطابه، وخاصة عندما يكون هذا القصد ضمنيا؛ حيث يتطلب الأمر هنا فهم الكيفية التي ينتقل المخاطب من خلالها من المعنى الصريح (أي المنطوق) إلى المعنى الضمني (أي المفهوم) اعتمادا على إوالية الاستدلال أو الحساب التأويلي.

وعلى أية حال، فلكي تتم المحاورة بشكل يحقق التفاعل المطلوب يتطلب الأمر امتلاك أطراف المحاورة لما يسمى بالكفاية التواصلية (*La compétence communicative*) التي تساعد على اكتساب اللغة والتفاعل عبرها، كما تساعد أيضا على تأويل الملفوظات سواء في شكلها الصريح أو الضمني. وتتفرع هذه الكفاية التواصلية إلى مجموعة من الكفايات الفرعية هي: الكفاية اللسانية(*La compétence linguistique*) والكفاية المنطقية (*La compétence logique*) والكفاية الموسوعية (*La compétence encyclopédique*) والكفاية البلاغية-التداولية (*La competence rhétorico-pragmatique*) والكفاية التخيلية أو الشعرية (*Poétique*). وتبقى قائمة هذه الكفايات مفتوحة بحيث يمكن- حسب كل من "سيمون ديك" وأحمد المتوكل- إضافة ملكات أخرى متى ثبت ورود إضافتها.

---

(1) أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص. ج 2. تحقيق: محمد علي النجار. المكتبة العلمية. ص: 446.

لقد تولدت لدي قناعة مفادها أن الانسان لا تستطيع الا بتواصل بل يستحيل عليه ذلك؛ لأن الحياة داخل مجتمع معين تفرض عليه ذلك. ولذلك فقد كان من بين الأهداف الأساس من هذا العمل محاولة فهم الميكانيزمات التي تتحكم في بناء المحاورة وكذا محاولة البحث عن مختلف الآليات التي بمقدورها أن تحافظ على روح المحاورة العاقلة والمتخلقة، كما تحافظ أيضا على استمراريتها وفعاليتها. ويمكن صياغة الإشكالات التي ستشكل موضوع هذه الرسالة على شكل تساؤلات كما يلي:

- كيف يتحقق التواصل بواسطة المحاورة؟ وما هي مختلف التقنيات التي تتدخل لتحقيق ذلك؟
- ماهي مختلف العناصر اللسانية وغير اللسانية التي تتدخل في بناء المحاورة؟
- ما هي مستويات الدلالة في استعمال اللغة أثناء المحاورة؟
- كيف يتم الانتقال من المعنى المباشر(الصريح) إلى المعنى غير المباشر(الضمني)؟
- ما هي طبيعة المبادئ المنظِّمة للمحاورة؟ هل هي ذات طبيعة عقلانية أو أخلاقية؟ هل هي مبادئ عامة (كونية) أو خاصة بكل لسان على حدة؟

2- الإطار النظري والمنهجي:

إن تحقيق الأهداف التي يروم أي باحث بلوغها رهين بتحديده للإطار النظري والمنهجي الذي سيشتغل من داخل، وفق الحدود التي يسمح بها هذا الإطار لمعالجة موضوع ما.

واعتقادا مني بأن طبيعة الموضوع هي التي تفرض على الباحث منهجا ملائما للموضوع، ونظرا لكون موضوع المحاورة موضوعا ذا طبيعة مركبة ومعقدة؛ حيث يتداخل فيه ما هو لساني وما هو خارج لساني وما هو مواز لسانيا وما هو اجتماعي وما هو نفسي...، فقد ارتأيت أنْ تناول موضوع المحاورة بالدرس والتحليل، يقتضي مني الاستفادة من علمين دقيقين عرفا في السنوات القليلة الماضية عدة تطورات في مفاهيمهما ومجالات اشتغالهما. ويتعلق الأمر بالنظرية (أو النظريات) التداولية، والنظرية (أو النظريات)

التواصلية اللتين سأستمد منهما مجموعة من الأدوات المنهجية والمفاهيم النظرية. وسيتبين خلال الخطوات اللاحقة من البحث كيف أن هذين التخصصين ـ على الرغم مما يبدو من اختلاف بينهما ـ يتكاملان فيما بينهما ليحققا الإطار الشامل- نسبيا- الذي يمكن من خلاله معالجة موضوع المحاورة من مختلف الزوايا المرتبطة به وذلك بفضل ما يوفرانه من أدوات تحليلية ومفاهيم تصورية.

فأما بالنسبة للنظرية التواصلية، فقد استند ظهورها إلى تخصصات جد محددة؛ حيث تأسست في صيغتها الأولى على نموذج السنن (*Le Code*) والتواصل عبر التلغراف، ولذلك عرفت باسم "النظرية الرياضية للتواصل" (*La théorie Mathématique de la communication*) التي أسسها العالمان الأمريكيان: "كلود شانون" (C- Shannon) و"وارين ويفر"(W-Weaver).

وقد صاغ هذان العالمان نموذجهما التواصلي على الشكل التالي:

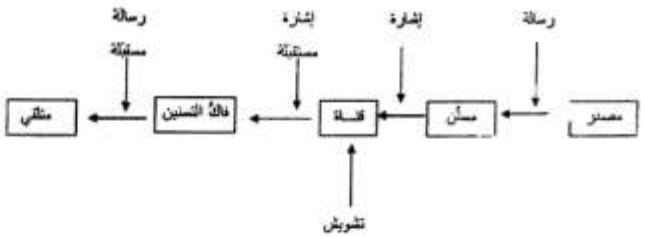

(1)

وقد لحقت هذا النموذج عدة تطورات مكنته من تجاوز مرجعه الأصلي- أي التلغراف- إلى أجهزة التواصل الآلية، ثم إلى التواصل الإنساني في كل تجلياته (اللسان والموسيقى والرقص والأدب...). وفي المراحل اللاحقة والمتطورة لهذا البناء، شكل التواصل اللساني نقطة أساسية انصبت عليها الدراسات والأبحاث. وسنرى كيف حاول مجموعة من

(1) D.Wilson et D.Sperber (1989):La pertinence, communication et cognition. Tr. A shenfeld et D. sperber. Ed. minuit. P :15.

اللسانيين- و نخص بالذكر رومان ياكوبسن - الاستفادة من نموذج السنن بهدف صياغة نموذج للتواصل اللساني.

أما بالنسبة للنظرية التداولية فستكون استفادتي منها أكثر؛ ومرد ذلك إلى عدة أسباب وفي مقدمتها الدور الذي يقوم به المكون التداولي بين مستويات الدرس اللساني الأخرى (الفونولوجيا والمورفولوجيا والتركيب والدلالة).

لقد أصبح مصطلح التداولية (*Pragmatique*)- في السنوات الأخيرة- كثير التداول داخل جل الأدبيات اللسانية، إلا أن تحديد العلاقة الرابطة بين التداولية واللسانيات ليس بالأمر السهل. ويمكن التأريخ لبداية هذه العلاقة بظهور أعمال "أوستين" و"ديكرو" و"سورل"... الذين قدموا عن اللغة مفهوما جديدا مرتبطا بالاستعمال بحيث تستدعي معالجتها أدوات إجرائية تدخل ضمن التحليل التداولي مثل: المتخاطبون والزمان والمكان...

لقد كانت الدراسات اللسانية- إلى حدود الستينيات من القرن الماضي- حكرا على الاتجاهين البنيوي والتوليدي. وبعد ذلك انفتح مجال البحث أمام المقاربة الدلالية- التداولية للغة، التي يعود لها الفضل في إغناء الدرس اللساني.

وعلى الرغم من أن التداولية مبحث لساني جديد، فإن البحث فيها يمكن أن يؤرخ له منذ زمن قديم؛ حيث كانت كلمةُ (pragmaticus) اللاتينية، وكلمة (pragmaticos) الأغريقية تستعملان بمعنى "عملي". أما الاستعمال الحديث لمصطلح التداولية فقد انبثق من داخل أحضان المنطق وفلسفة اللغة. وبالتحديد فقد كان الفيلسوف والمنظر الأمريكي "شارل موريس" (CHarles morris) من بين الأوائل الذين استعملوا مصطلح "*Pragmatique*" أي التداولية في مقالته الشهيرة "أسس نظرية العلامات" التي نشرها سنة(1938). وفي ترتيبه لأبعاد العلامات جاء البعد التداولي عند "موريس" في المرتبة الثالثة كما يلي:

1- البعد التركيبي (*Syntaxique*): الذي يهتم بدراسة العلاقات الداخلية التي تربط العلامات فيما بينها.

2- البعد الدلالي(*Sémantique*): ويهتم بدراسة العلاقات التي تربط بين العلامات وما تعنيه (أي العالم).

3- البعد التداولي (*Pragmatique*): الذي يهتم بدراسة العلاقات بين العلامات ومستعمليها[1].

وقد حدد "موريس" التداولية باعتبارها جزء من علم العلامات العام أي السيميوطيقا (*LA Sémiotique*) مهمته البحث في العلاقة بين العلامات و مستعمليها. يتميز هذا التعريف-كما هو واضح- بنوع من التعميم والشمولية؛ حيث إنه يتجاوز حقل اللسانيات إلى حقل السيميوطيقا، كما أنه يتجاوز حقل التواصل الإنساني إلى مجال التواصل الآلي والحيواني. وبالإضافة إلى هذا وذاك، فإن هذا التعريف لم يحدد سوى الأهداف الوصفية للتداولية، وذلك بخلاف ما تذهب إليه الفلسفة التحليلية (*LA PHILOSOPHIE ANALITQUE*) التي تجعل من بين موضوعاتها دراسة الأفعال اللغوية (*LES ACTES DE LANGAGE*)، مع التركيز على استعمالاتها داخل الخطاب، أي: دراسة اللغة لا باعتبارها كيانا قارا وثابتا بل باعتبارها واقعة تواصلية تحكمها حيوية الاستعمال. يقول "جاك موشلر" في "المعجم الموسوعي للتداولية": "نستطيع تعريف التداولية- بصفة عامة- بأنها دراسة استعمال اللغة، وذلك في مقابل دراسة نسق اللسان الذي يعد الموضوع الحقيقي للسانيات"[2]. كما يشير في موضع آخر إلى أن موضوع التداولية يتجاوز وصف دلالة الجمل- الذي يدخل في اختصاص علم الدلالة- إلى وصف وظيفة الفعل اللغوي (*L'acte De Langage*) الذي يتحقق من خلال الملفوظ[3].

هكذا تتقاطع التداولية مع علم الاجتماع (La *Sociologie*) وفلسفة اللغة (*La Philosophie Du Langage*) وبعض العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تهتم بموضوع التواصل. وهذا ما يطرح أمام المتتبع لتطور اللسانيات المعاصرة مجموعة من الإشكالات المرتبطة بتحديد الحدود الفاصلة بين المجالات اللسانية المعروفة تقليديا وبين التداولية، مما

(1) J. Moeschler (1985) : Argumentation et conversation, éléments pour une analyse pragmatique du discours. HATIER-CEDF. pp : 20-21.

(2) J. Moeschler et A. Reboul: le dictionnaire ancyclopédiques de pragmatique. Ed de seuil. P : 17.

(3) J. Moeschler (1985) : Argumentation et conversation. P : 32.

يجعل من الصعب تحديد موضوع التداولية وإبراز نماذجها النظرية وآلياتها الإجرائية. ويمكن تحديد الإشكالات المرتبطة بالغموض الذي حام حول التداولية كما يلي:

- هل هناك تداولية واحدة أم تداوليات؟
- هل هي تخصص مستقل أم ملتقى تخصصات مختلفة؟
- هل استطاع الباحثون في التداولية أن يحققوا إجماعا حولا، حدود هذا التخصص، وحول فرضياته الأساسية، والمصطلحات المتداولة بين رواده؟

لقد شكل البحث التداولي ـ وما يزال ـ ملتقى للعديد من التخصصات المنتمية إلى مجالات متباعدة إلى حد ما: اللسانيات والسوسيولسانيات والسيكولسانيات والمنطق والسيميوطيقا والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع... ولعل هذا هو السبب الذي دفع بالبعض إلى وصف التداولية بأنها 'قمامة اللسانيات' (*La Poubelle De Linguistique*)؛ ويفيد هذا التعبير المجازي أن التداولية تهتم بمعالجة الإشكالات التي لم تتناولها مستويات الدرس اللساني الأخرى (الفونولوجيا والتركيب والدلالة) بالدرس والتحليل أو تعتبرها ظواهر هامشية وثانوية. كما يؤخذ على التداولية أنها تقوم على قواعد مبهمة بخلاف التركيب مثلا الذي يتأسس على قواعد صارمة، فالمبادئ التداولية لا تستطيع رسم حدود المقام الذي يؤخذ في الحسبان لتحديد المعاني الممكنة للفوظ ما. وهناك من ينظر إلى التداولية بأنها ليست مبحثاً مستقلاً طالما أن علم الدلالة هو الذي يدرس المعنى.

وعلى الرغم من هذه الانتقادات فقد تبين من تعريف شارل موريس أعلاه أن التداولية هي دراسة متميزة لأنها تتعامل مع تلك المعاني التي يتغاضى عنها علم الدلالة، كما أن المعرفة المتقدمة بالفونولوجيا والمورفولوجيا والتركيب والدلالة لم تستطع التعامل مع ظواهر معينة ذات أهمية بالغة. وقد تم تحديد بعض القضايا اللغوية التي تضعها التداولية موضوعا دراسيا لها وفي مقدمتها الأفعال اللغوية، والحجاج (*L'argumentation*) والمدلولات المسكوت عنها (*Les sous-entendus*) والقواعد الحوارية (Les lois de la conversation). بالإضافة إلى خوضها في العديد من القضايا التي كانت تنتمي إلى المجال

الدراسي لعلم الدلالة وحتى المنطق مثل الإحالة (*La référence*) والاقتضاء (*La présupposition*) والجهات (*Les modalités*).... كما تمت صياغة مجموعة من الإشكالات التي على التداولية أن تعالجها مثل:

- ماذا نفعل عندما نتكلم؟ (فعل الكلام)
- ماذا نقول عندما نتكلم؟ (مقول الكلام)
- من يتكلم؟ (المتكلم)
- مع من يتكلم؟ (المخاطب)
- لماذا يتكلم بهذا الشكل وليس بذاك؟ (صيغ الكلام)
- كيف يمكن أن نقصد إلى إبلاغ معنى غير الذي يدل عيه منطوق الكلام؟ (إشكالية القصد).
- هل يمكن الاقتصار على المعنى الحرفي لفهم كلام ما؟ (مستويات المعنى)
- ما هي الاستعمالات الممكنة للغة؟(استعمالات اللغة)

لقد استطاعت التداولية أن تتجاوزحدود علم الدلالة- الذي حصر موضوعه في دراسة العلاقات التمثيلية القائمة بين العبارات الصحيحة نحويا والأشياء التي تمثلها تلك العبارات-؛ حيث وجهت بحثها إلى دراسة العلاقات التي تنشأ- أثناء الكلام- بين العبارات ومستعمليها، بعد أن تكون تلك العبارات قد استوفت شروط الصحة النحوية والمقبولية الدلالية.

تعتبر الجملة (ج) أكبر وحدة يهتم بها التركيب (*syntaxe*) في النحو التوليدي. ويتم تحليلها بواسطة مجموعة من الفئات أو المقولات (*Les catégories*) مثل: م ف – م س – س – ف... الخ؛ كما يأخذ في الحسبان العلاقات التي تنشأ بين مختلف هذه الفئات. وتأخذ هذه العلاقات شكل قواعد تركيبية، تعمل وفق قواعد إعادة الكتابة (*Les régles de réécriture*)؛ أي تلك القواعد التي تسمح بإعادة كتابة بعض الفئات بواسطة سلسلة

(*Une suit*) أخرى من الفئات. مثال ذلك إعادة كتابة الرمز(ج) بواسطة الرمزين: (م ف) و(م س) كما يلي:

ج ← م ف + م س .

وتساهم هذه القواعد في إنتاج متواليات تركيبية صحيحة التكوين. ومثال ذلك الجملة التالية:

1- إن الجو جميل. فهذه الجملة صحيحة التكوين؛ لأنها أنتجت وفق ما تسمح به القواعد التركيبية للعربية.

في حين أن الجملة التالية:

2- إن جميل الجو. ليست متوالية صحيحة التكوين أو بتعبير آخر فهي متوالية لا نحوية (*Agrammaticale*).

ولذلك فمعيار الحكم على الجمل في التركيب من حيث سلامة تكوينها، هو مدى امتلاكها لشرط النحوية (*La grammaticalité*). ولذلك يعد ظهور التداولية بمثابة ردة فعل على معالجات شومسكي للغة بوصفها أداة تجريدية أو قدرة ذهنية قابلة للانفصال عن استعمالاتها ومستعمليها.

أما بالنسبة لعلم الدلالة فإنه لا يهتم بالجانب الشكلي للجمل، بل بمعاني القضايا (*Les propositions*). فإذا كانت الجملة هي الوحدة التركيبية الكبرى (*L'unité maximale*)، فإن القضية هي الوحدة الدلالية الكبرى. وتتكون القضية من حجة (*L'argument*) ومحمول (*prédicat*)، أما معناها فيتحدد من خلال علاقتها بمرجعها (*Le référence*). ومرجع قضية ما هو قيمة صدقها (*Sa valeur de vérité*) حيث تكون القضية صادقة إذا وفقط إذا كانت مطابقة للواقع، أما إذا كانت مخالفة له فإنها تكون كاذبة[1].

(1) ibid. pp 22-23.

وإذا كانت الجملة هي الوحدة الكبرى في التركيب، والقضية هي الوحدة الكبرى في الدلالة، فإن الفعل اللغوي هو الوحدة التداولية الدنيا (*minimale*) التي تشكل موضوع التداولية إلى جانب وحدات أخرى مثل التدخل (*L'intervention*)- وهو الوحدة المونولوجية (*Monologique*) الكبرى-، و التبادل (*L'échange*)- وهو الوحدة الحوارية (*Dialogique*) الدنيا[1].

وعلى عكس علم الدلالة الذي يحدد معنى القضية انطلاقا من شروط صدقها، تعمل التداولية اللسانية على تحديد معنى الفعل اللغوي، من خلال وظيفته التواصلية في صورة من المعنى المرتكز على الوظيفة التلفظية (*Enonciative*) وليس على الوظيفة التقريرية (*Dénotative*) أو التمثيلية (*representative*) للغة. والتلفظ، بهذا التصور، هو الذي يتحدد من خلاله النشاط الاستعمالي للسان والذي يحدد بدوره وضع مستعمل هذا اللسان ويجسد صورته وخصائصه الفردية بالكلام. إذن فالتداولية تتعامل مع اللغة على مستوى أكثر ملموسية من التركيب والدلالة، ومن هنا فنحن لا نستطيع حقيقةً فهم طبيعة اللغة ذاتها إلا إذا فهمنا التداولية: كيف نستعمل اللغة في التواصل؟

إن التحليل التداولي للأفعال اللغوية يرتكز على وظيفتها التواصلية. وفي مقابل ذلك تنظر اللسانيات التداولية إلى اللغة من خلال وظيفتها الوصفية أي التمثيلية أو الإخبارية فقط. إن الفكرة الأساس في التداولية- كما ذهب إلى ذلك موشلر- هي فكرة شروط الاستعمال أو الملاءمة المقامية-السياقية (*Con- cotextuelle*) التي هي من طبيعة مخالفة جدا لفكرة شروط الصدق[2].

أصبحت التداولية في السنوات الأخيرة موضوعاً مألوفاً في اللسانيات وفي الدراسات الأدبية بعد أن كانت السلة التي ترمى بها العناصر والمعلومات التي لا يمكن توصيفها بالأدوات اللسانية التقليدية.

(1) ibid p : 24.
(2) ibid p : 25.

وقد ساهمت عوامل أخرى من جهتها في الثورة التي شهدتها هذه النظرية. ويحددها "موشلر" فيما يلي:

1- **ظهور التصور اللاسنني للتواصل**: حيث كانت اللسانيات البنيوية تعتبر اللغة مجرد سنن (*Code*). وفي مقابل ذلك أكد "بول غرايس" (P-Grice) على دور العمليات الاستدلالية في التواصل. وهو بهذا العمل يضيف نموذجا آخر للتواصل اللساني إلى جانب نموذج السنن (*Le module de code*)، وهو النموذج الاستدلالي (*Le module inférentiele*).

2- رفض اللسانيات البنيوية للشروحات الخارجية: فقد تميزت اللسانيات البنيوية بقدرتها الهائلة على تقديم حلول داخلية لمجموعة من الإشكالات المركبة والمعقدة. وذلك اعتمادا على التفريعات الثنائية (*Dichotomis*) كما هو الشأن لدى "فيرديناند دو صوسير" (F-De Saussure). وكان السبب في رفض التفسيرات الخارجية هو عدم الخلط بين ما هو لساني (*Linguistique*) وما هو خارج لساني (*Extra-linguistique*)، مثل المقام والجانب المعرفي...، على اعتبار أن الاستعمال اللغوي يتضمن الكليات المعرفية المركزية (*Les facultés cognitives centrales*)، كما أنه يفسح المجال لإقامة تمثيلات للعالم.

3- رفض الاختزالية: حيث ترتكز اللسانيات البنيوية على المسلمات الاختزالية، وترفض اللجوء إلى مستوى من التنظيم الأعلى إذا كان بالإمكان شرح ظاهرة معينة انطلاقا من عناصرها المكونة. وتنطبق هذه النظرة الإختزالية على كل من الفونولوجيا والمورفولوجيا والتركيب؛ حيث ارتكز البحث داخل هذه العلوم على المقولات ـ الفونولوجية والمورفولوجية والنحوية ـ الدنيا الملائمة[1].

(1) J. Moeschler (1999): linguistique et pragmatique cognitive. L'exemple de la référence temporelle. Le Gré des Langues15. (http://www.unige.ch/lettres/linguistique/moeschler/publication_pdf/linguistique.pdf). P:

وعلى العموم فإن الفرق بين التركيب وعلم الدلالة من جهة، وبينهما وبين التداولية من جهة أخرى هو الفرق بين نسق اللسان وطريقة استعمال هذا النسق.

هكذا يتضح أن التطورات الجوهرية تأخذ صفة المشروعية العلمية عندما تظهر من خلال نماذج جديدة. فقد عملت كل من السيميوطيقا (*La sémiotique*) ـ باعتبارها علما يهتم بدراسة العلامات ـ واللسانيات ـ باعتبارها علما يهتم بدراسة نسق اللسان ـ على بناء نماذج توضح الكيفية التي تتشكل بها العلامات وتنتظم.

أما التداولية، فقد نشأت على أنقاض اللسانيات اللاتداولية (البنيوية و التوليدية) التي عملت على:

- الاهتمام بالوظيفة الوصفية للغة على حساب وظيفتها الإنشائية.
- الاهتمام بالنسق (*Le système*) على حساب الاستعمال (*L'usage*).
- الاهتمام بالقدرة (*La compétence*) على حساب الإنجاز (*La performance*).
- الاهتمام باللسان (*La langue*) على حساب الكلام (*La parole*)[1].

وحتى يتضح ذلك، لابد من تحديد الفرق بين اللسان والكلام في اللسانيات "الصوسورية". وقد كان هدف "صوسير" من محاضراته التي ضمها كتابه (دروس في اللسانيات العامة) هو إعطاء صفة العلمية لدراسة اللغة الإنسانية باعتبارها نسقا من العلامات، وكذا الرد على التصور الذي كان سائدا في عصره، والذي كان يهدف إلى التعرف فقط على الوقائع اللسانية الخام (*Les faits linguistique brut*)، والظواهر اللغوية كمواد أولية بالنسبة للساني. ومثل هذا التصور سيكون ـ بطبيعة الحال ـ عاجزا عن تقديم مبررات مقنعة حول وجود الألسنة الطبيعية كأنظمة اجتماعية. وكان مقترح "صوسير" هو التمييز بين وجهين في اللغة: بين اللسان الذي يشكل الجانب النسقي والمجرد (*Abstraite*) والاجتماعي من

(1) محاضرات الأستاذ الدكتور إدريس سرحان التي كان يلقيها علينا في وحدة التكوين والبحث: اللسانيات العربية واللسانيات العامة، للموسم الجامعي 2002/ 2003 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز- فاس.

اللغة (*langage*)، وهو الجانب الأساسي فيها، وبين الكلام الذي يشكل الجانب الفردي، وبالتالي فهو جانب ثانوي. وهذا ما دفعه إلى إقصاء الكلام من حقل اللسانيات.

وفي مقابل التوجهات البنيوية والتوليدية، عملت التداولية على توضيح أن الكلام هو ظاهرة معقدة، وهو بذلك أكبر من أن يختزل في مجرد تحقيق فردي للسان. كما حاولت أن تبين كيف يمكن له أن يكون متغيرا في علاقته بالسنن المثبت، ويكون قادرا على توليد سنن جديد في الآن نفسه. كما أثارت التداولية-زيادة على ذلك - إشكالية معرفة الكيفية التي تنتقل بها الدلالة (La *signification*) من داخل مرجع معين، إلى مقام التلفظ في ملفوظ واقعي. ومن هنا سيدخل الكلام مجال الدراسات العلمية.

إننا إذن أمام لسانيات من نوع خاص، إنها لسانيات التلفظ (*La linguistique de l'énonciation*) التي أسس لها إميل بنفنيست، والتي وجهت اهتمامها إلى التمييز بين الملفوظ (L'énoncé)، وعملية التلفظ (*L'énonciation*) بدلا من الاهتمام بالفرق بين اللسان والكلام.

يصطدم علم الدلالة بمشكلة تحديد القيمة الإشارية للعبارات الإشارية (*Les deictiques*) مثل (هنا- الآن- أنا- أنت)، وكل العبارات التي تحيل على وضعية معينة أو مكان العملية التلفظية أوزمانها، أو بصفة عامة على سياق ومقام التلفظ. فقد انتبه إ- بنفنست إلى أنه لا يمكن تحديد وظيفة الضمائر الشخصية (أنا- أنت) في ما يسمى بالاقتصاد اللغوي للمتكلم، ولكن من خلال النظر إليها على أنها تدل على الدور الذي يمكن أن يشغله المتكلم من داخل العملية التلفظية. ويصدق هذا أيضا على الملفوظات الإشارية بشكل ضمني (*Les énoncés implicitement déictiques*) مثل (ذهب إلى...، ورجع من...)، وكذا بعض العبارات الدالة على أحكام القيمة (*Les évaluatifs*) مثل (قبيح وحسن...)، والأفعال الإنشائية أو التحقيقية (*Les verbes performatifs*) من قبيل (أمر و نهى وسأل...) التي لا يمكننا أن نحقق وصفا صحيحا وتاما لبنيتها الدلالية إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار العوامل التداولية المحيطة بها: المستعمل، والزمان، والمكان.. [1].

[1] المرجع نفسه.

ومن بين رهانات التداولية أنها تأخذ في اعتبارها أن الجملة غالبا ما تستعمل لإيصال معلومات ضمنية وراء الدلالة الحرفية (*La signification littérale*)، إنها حالة ما يسمى بالتضمين الحواري (*L'implication conversationelle*)؛ حيث إن كل ملفوظ يحقق معناه انطلاقا من الموقع الذي يشغله داخل متوالية حوارية (*Une suit conversationelle*).

فإذا اقترح 'علي' على 'خالد' الذهاب إلى السينما فأجابه هذا الأخير بقوله:

1- يتظرني عمل كثير غدا.

فإن 'علياً' سيؤول هذا الملفوظ على أنه رفض ضمني لاقتراحه (أي الذهاب إلى السينما).

وقد اهتمت التداولية- إضافة إلى كل ما سبق ذكره- بظاهرة مشابهة لظاهرة التضمين الحواري، وهي ظاهرة الاقتضاء (*La présupposition*) التي كانت حكرا على فلاسفة اللغة والمناطقة. والمثال المشهور لهم في هذه المسألة هو:

2- الملك الحالي لفرنسا أصلع.

فهذا الملفوظ يقتضي وجود ملك واحد، وواحد فقط لفرنسا حاليا يصح في حقه وصفه بكونه صلع في الواقع. وهذا المعنى لا يقرره الملفوظ صراحة وإنما يدل عليه إقتضاء.

ولذلك، يذهب 'ديكرو' مثلا إلى أن الاقتضاء أبلغ في التعبير من المعاني الصريحة. وقد كان الاطار النظري الذي اعتمده 'ديكرو' هو إطار نظرية الأفعال اللغوية التي لها علاقة بالنظرية التواصلية. إذن فكل الظواهر السابقة: الاقتضاء، والتضمين الحواري، وأفعال اللغة المباشرة وغير المباشرة تقوم بدور هام في المحاورة. وقد كان الشغل الشاغل للتداولية هو إبراز أن اللغة وسيلة لتحقيق أفعال معينة، وأن الملفوظ ـ وليس الجملة ـ هو الذي يبين علاقة اللغة بالعالم.

هكذا يتضح أن التداولية استطاعت أن تتجاوز ذلك التقابل التقليدي بين اللسان والكلام، كما استطاعت أن تحتل مكانة مركزية داخل نظرية التواصل؛ حيث إنها حاولت إعادة النظر في تلك الجدلية القائمة بين الفرد والمجتمع وكذا بين ثبوت السنن و تجدد الاستعمال.

واستطاعت التداولية أن تحقق هذه المكانة وهذه النتائج الجيدة بسبب تعدد أصول مقاربتها للظاهرة اللغوية: بين أصل فلسفي ـ منطقي (G-Frege و L-Wittgenstein و-H-S Peirce و CH-Morris و R- Carnap)، وأصل لساني (E-Benvenist و O-Ducrot و-J Anscombre) ثم أصل فلسفي- لغوي (J-Austin و Strawson و P-Grice).

وفي ختام هذا المدخل العام لا يفوتني أن أشير إلى مسألة أعدها هامة وهي أنني لن أغفل عن الاستفادة من كل ما يمكن استقراؤه من نصوص التراث الفكري الإسلامي العربي في تناولها لهذا الموضوع وأخص بالذكر نصوص علماء البلاغة وعلماء الكلام. فقد وضعوا للمحاورة مجموعة من المبادئ والأخلاقيات، كما حددوا لها أيضا أركانا وشروطا ومراحل... وغيرها من الأمور التي سأتناولها بالتفصيل في الوقت المناسب.

الباب الأول

التواصل اللساني وعلاقته بالأنساق التواصلية الأخرى

الفصل الأول

أهمية التواصل وقوا عله

1- التواصل: إشكالية التعريف والتحديد:

تتصف كلمة التواصل، كغيرها من كلمات الألسنة الطبيعية، بالغموض. وتعد هذه الصفة من بين الصفات التي يمتاز بها هذا النوع من الألسنة[1]، وهذا راجع إلى الغنى المعجمي لهذه الكلمة، الذي يعود بالأساس إلى دخولها في علاقة ترادف واشتراك مع مجموعة من المفردات الأخرى؛ سواء من حيث الجذر (*RACINE*) أو من حيث الحقل الدلالي (*LE Champ Sémantique*)؛ ومثال ذلك: إعلام، وحوار، ومحاورة، ومجادلة، وإبلاغ، وإيصال... إذ تستعمل هذه الكلمات في كل المجالات التي تفيد ربط علاقة معينة.

كما يعود هذا الغموض إلى تشعب العلوم التي تناولت هذه المفردة بالدرس والتحليل (اللسانيات، والفلسفة، وعلم الاجتماع، والإعلاميات...). وهو ما يجعل من الصعوبة تقديم مدلول محدد لكلمة "تواصل".

ورغم ذلك فقد تم اقتراح مجموعة من التعاريف المختلفة والمتكاملة في الآن نفسه؛ لأن هذه الكلمة - بما تحمله من معان ودلالات- تشمل التجربة الإنسانية في شموليتها.

---

(1) Christian Baylon & Xavier Mingnot(1991): la communication. ed. Nathan. P : 9.

1-1 الدلالة اللغوية:

ورد في "لسان العرب" ما يلي: "وصَلَ: وَصَلْتُ الشيء وصلا وصِلة، والوصل ضد الهجران... واتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع. ووصل الشيءُ إلى الشيء وصولا وتوصّل إليه: انتهى إليه وبلغه. ووصّله إليه وأوصله: أنهاه إليه وأبلغه إياه"[1].

وجاء في "القاموس المحيط": "وَصَلَ الشيءَ بالشيءِ وَصْلاً وصُلَةً، بالكسر والضم، ووصْلَةً: لأمَهُ، ووصِلَكَ اللّهُ، بالكسر، لُغَةٌ، و- الشيءَ، و- إليه وُصولاً ووُصْلَةً وصِلَةً: بَلَغَهُ وانتهى إليه. وأوْصَلَهُ واتّصَلَ: لم يَنْقَطِعْ... والوُصْلَةُ، بالضم: الاتّصالُ، وكُلُّ ما اتّصَلَ بشيءٍ، فما بينهما: وُصْلَةٌ.... والأوْصالُ: المَفاصِلُ، أو مُجْتَمَعُ العِظامِ، وَجَمْعُ وُصْلٍ، بالكسرِ والضمِّ، لكلِّ عَظْمٍ لا يُكسَرُ ولا يَخْتَلِطُ بغيرِهِ..."[2]. وفي "المعجم الوسيط" "تواصلا: خلاف تصارما"[3].

"التواصل" إذن، كلمة مشتقة من الجذر (و.ص.ل) الذي يعني الربط بين طرفين (كائنين- آتين- كائن مع آلة...). وهو بهذا المعنى ضد الانفصال والانقطاع لأنه يعني إيجاد علاقة معينة تربط بين طرفين أو أكثر.

وفي رأيي، ينبغي- في مثل هذا المقام- التمييز بين مصطلحي "التواصل" (*Communication*)، و"الإخبار"، أو "الإعلام"، أو "الإنباء" وغيرها من الكلمات التي تفيد معنى الإبلاغ (*Information*) من طرف واحد؛ حيث إن الإخبار أحادي الاتجاه: كما هو الشأن مثلا في نشرة الأخبار، أو برنامج إذاعي، أو ملصق... إذ يتم نقل المعلومة إلى المخاطَب بهدف التأثير فيه، دون التأثر باستجاباته، على الأقل لحظة البث. كما لا يترك مجالا لارجاع الأثر (*Rétroaction* أو *Feed Back*)؛ بمعنى أنه خال من التفاعل (*Interaction*) المباشر والشيء نفسه يقال عن كلمة "الاتصال" التي تفيد أن المبادرة تأتي من

(1) ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي(د.ت)، باب الواو. (قرص مدمج : موسوعة مكتبة المعاجم واللغة العربية).

(2) المعظم لبادي (أبو الطيب)(1993)، القاموس المحيط. مؤسسة الرسالة، فصل الواو. (قرص مدمج : موسوعة مكتبة المعاجم واللغة العربية).

(3) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، المكتبة الاسلامية، مادة: وصل. ج2 . ص: 1037.

طرف واحد هو الذي يقوم بالفعل. أما التواصل فإنه يتأسس على تبادل التأثير والتأثر، لأن الصيغة الصرفية "تفاعل" تفيد في اللغة العربية المشاركة في القيام بأمور أو أعمال بين أفراد بعينهم.

1-2 الدلالة الاصطلاحية:

يقصد بالتواصل في بعض التعاريف الاصطلاحية: نقل خبر ما من شخص إلى آخر وإخباره به وإطلاعه عليه، ويعني إقامة علاقة مع شخص ما أو شيء ما. كما يشير إلى إرسال شيء ما لشخص ما. ويدل كذلك على ما يساعد الانتقال من مكان إلى آخر. كما يراد به كل علاقة ديناميكية تتدخل في عمل ما"[1].

يهمني في هذا التعريف أن التواصل عبارة عن عملية نقل معلومات من متكلم، باعتباره مصدر المعلومات، إلى مخاطب، باعتباره هدفا للعملية التواصلية. وهذا يعني أن التواصل عبارة عن سيرورة "تبادل أدلة بين ذات مرسلة، وذات مستقبلة؛ حيث تنطلق الرسالة من الذات الأولى نحو الذات الثانية، وتقتضي هذه العملية جوابا صريحا أو ضمنيا"[2].

وأنبه في هذا المقام إلى ما بين التعريفين من فروق. إن التعريف السابق يخلو تماما من مفهوم "التبادل" الموجود في التعريف الحالي وهو الشيء الذي أكدت، من قبل، على ضرورة أخذه في الحسبان.

وجاء في "معجم اللسانيات" لـ"جون ديبو" أن التواصل" هو التبادل اللفظي بين متكلم ومخاطب مستمع يلتمس منه الإنصات لما يقوله و / أو الإجابة الصريحة أو الضمنية، بحسب نوعية الملفوظ (*L'énoncé*). وعليه فالتواصل بين ذاتي (*intersubjective*)"[3]. إلا أن ما ينبغي التنبيه إليه هو أن عملية التواصل تتم عبر تبادل علامات لفظية (*Verbal*)، أو غير لفظية (*Non verbal*)، شريطة أن تكون هذه العلامات حاملة لدلالة معينة، تمنحها إياها

(1) Alain Rey(1998) : Le Robert Micro. Dictionnaire D'apprentissage de la langue française. LIBRAIRIE NATIONAL. P : 250.

(2) عمر أوكان (2001): اللسانيات والتواصل. مجلة فكر ونقد عدد: 36، سنة 4، ص: 130.

(3) Jean Dubois... (1973) : Dictionnaire de linguistique.Ed librairie Larousse. PP: 96-99.

المؤسسة الاجتماعية. وبذلك، فالتواصل يعني عملية إرسال أو استقبال رسالة، مع إعطاء دلالة (*Signification*) للعلامات التي يرسلها شخص ما[1].

يمكن القول من خلال ما سبق: إن التواصل هو الإوالية التي تكون السبب المباشر في خلق العلاقات الإنسانية وتطورها، وذلك عن طريق التبادلات والتفاعلات المختلفة التي تتم بين الأشخاص. وقد حدد ليفي شتراوس هذه التبادلات في:

أ- تبادل الرسائل، (السميائيات)

ب- تبادل المنافع والثروات والخدمات، (الاقتصاد)

ج- تبادل الشركاء الجنسيين(*Sexuels*)أي النساء، (الأنتروبولوجيا)[2].

ومن شأن هذه التبادلات أن تحافظ على التفاعل الذي يعد الهدف الأساس في كل عملية تواصلية بين المتكلم والمخاطب.

ويعد التواصل اللساني الشفهي الشكل التواصلي الأول الذي تفرضه ضرورة الحياة، والتي تفرض بدورها ضرورة التفاعل قصد تلبية حاجيات البشر للتواصل والتفاهم عبر آليات المحاورة.

هكذا يتضح أن حقيقة التواصل الشفهي (وشتى أنواع التواصل الأخرى) تكمن في كونه يتيح الدخول في علاقة مع الغير لتحقيق "العلاقة التخاطبية"[3]. ويتم هذا النوع من التواصل، عن طريق التلفظ بالملفوظات التي تلائم النظام الصوتي للسان العشيرة اللغوية التي ينتمي إليها المتحاورون، إلا أن التواصل الشفهي غالبا ما يكون في حاجة ماسة إلى الاستعانة بأشكال التواصل غير الشفهية: كالنظام الحركي الذي نستعمله غالبا - بوعي أو بغير وعي- في حياتنا اليومية، قصد التمكن من توصيل قدر كبير من المعلومات. ورغم ذلك

(1) Joeseph A. Devito(1938): les fondements de la communication humain. Tr. Johannel Massé et louise Rousselle. ed. Gaëtan morin. P: 5.

(2) إلار هولنشتاين: رومان ياكبسون ألوالبنيوية الظاهرية. ترجمة: عبد الجليل الأزدي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء. ط1، (1977). ص:144.

(3) عبد الرحمان طه(1988): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ط. 1. المركز الثقافي العربي. ص: 215.

فقد أكد الأستاذ طه عبد الرحمان أن الكلام يعد أصلا في كل تواصل، كائنا ما كان؛ حتى إن ما سواه من وسائل التواصل الأخرى: حركات، إشارات، رموز.... تنتظم على قوانينه وتفهم على مقتضاه[1]. ولكن حقيقة الكلام تكمن -حسب الأستاذ طه عبد الرحمان دائما- في انبنائه على قصدين اثنين:

- القصد الأول: قصد التوجه إلى الغير؛
- القصد الثاني: قصد إفهام هذا الغير[2].

2- أهمية التواصل في حياة الإنسان.

تظهر أهمية التواصل بالأساس في الدور الذي يضطلع به في حياة كل الكائنات الحية؛ حيث إنه يُمكن أفراد المجموعة من التعاون على درء المخاطر، وتقسيم المهام في العمل كما هو الشأن في مجتمعي النحل والنمل مثلا. كما يعد التواصل عاملا أساسيا في استمرار النوع على وجه الأرض.

أما الإنسان – وباعتباره كائنا تواصليا واجتماعيا - فقد أدرك حقيقة مفادها أنه "لا حياة بدون تواصل"، وأن التواصل في مبدئه يفيد الانتقال من الفردي إلى الجماعي، وهو بذلك شرط أساس لكل حياة اجتماعية يكتسب من خلالها الفرد معارفه وينمي رؤيته للعالم.

إن التواصل بهذا المعنى أساس الثقافة البشرية، بل إن معنى كل السلوكات الإنسانية لا يتحدد إلا عن طريق التسنين الثقافي. والتواصل – بهذا المعنى- هو السيرورة المركزية المكونة لكل ثقافة.

ويعد اللسان الطبيعي الوسيلة الرئيسة التي يتواصل بها الإنسان مع أفراد نوعه مهما بعد الزمان والمكان، إذ عن طريقه تنتقل الخبرات والمعارف والمنجزات الثقافية من السلف

(1) المرجع نفسه. ص:213.

(2) المرجع نفسه. ص:213.

إلى الخلف. ولذلك لا توجد أية ظاهرة ثقافية أوسلوك اجتماعي لا يتضمن بطريقة أو بأخرى تواصلا[1].

لقد استطاع الإنسان أن يستمر في الوجود لأن الأشكال التواصلية المختلفة - اللسانية وغير اللسانية- جعلته لا يتوقف عن الحياة بموته، بل يستمر فيها من خلال ما يخلف من آثار تساهم في تشكيل الأجيال التالية، وثقافتها، ومنطلقات حياتها؛ فعبر هذه الأشكال التواصلية استطعنا التعرف على ثقافات، وآثار الأمم الغابرة: كالفراعنة مثلا، وذلك عن طريق ما تركوه من نقوش ورسوم... شكلت ذاكرتها.

تُعدُّ العملية التواصلية- باعتبارها "دخولا في علاقة مع ..."- نشاطا إنسانيا مركبا ومعقدا، وتظهر أهميته من خلال معنى العلاقة، والحوار، والصلة... التي تعد أساسا لتنظيم المجتمع[2]. إنها بمثابة رهان إنساني أساسي وعميق، يكون الهدف منه تشييد مجتمع ينبني على قبول الآخر، وبالتالي فهي عبارة عن سيرورة، وديناميية تثير علاقة ذات طبيعة وجدانية، وانفعالية، واجتماعية بين أفراد المجتمع.

لقد بين هيدجر أن وجود الإنسان يفرض عليه نوعا من الانفتاح الذي يدخل فيه الغير ويتجلى فيه، وهذا يعني أن وجود الآخر بالنسبة للذات هو وجود أصيل أصالة وجود الذوات نفسها[3].

وقد شكل الإنسان باستمرار حجر الزاوية في سيرورة العملية التواصلية؛ فهو مصدرها ومحركها، وعامل تفعيلها بوعي أو بغير وعي، وذلك أن الإنسان بحكم موقعه كعضو في بنية مجتمعه ينخرط بدرجات مختلفة في هذه العملية من خلال أشكال العلاقات، والصلات، بهدف تحقيق غايات، وحاجات نفسية، واجتماعية معينة.

إن التواصل قبل أن يصبح علما قائما بذاته في السنوات الأخيرة، كان مقوما أساسيا من مقومات الوجود الإنساني، حيث اعتبر تعبيرا عن الصلة والانتماء، وهذه الصلة والانتماء هما أساس الوجود؛ فوجودنا رهين بالعلاقة التي تقوم بين الأب والأم- الجنين

(1) إلفار هولنشتاين: مرجع سابق، ص: 143.

(2) Edward Sapir (1986) : Linguistique .Tr. Français ed.minuit PP.91-92.

(3) نور الدين البهر(1993): فلسفة اللغة واللسانيات. مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع. ط 1. ص: 45.

ثمرة صلة -، إذن فالعلاقة والاتصال هما الأصل، أما العزلة والتفرد فهما حالة استثنائية. وهذا ما بينه هيدجر بقوله: "فالوجود الإنساني إذن هو "وجود-مع" "والوجود - مع" صفة جوهرية أساسية في كل آنية، وحتى في حالة العزلة والانفراد فإن الإنسان يكون أيضا "وجودا - مع". وهذا "الوجود -مع" هو الذي يؤسس التواصل والحوار"[1].

لقد أحس الإنسان باستمرار أنه في حاجة ماسة للتواصل، رغم محدودية كفاءاته التي كان يجد منها قلةُ أدوات الاتصال لديه. وقد ظهرت أهمية التواصل كعامل مهم في استمرار الحياة وازدهارها منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض. ولذلك عمل الإنسان جاهدا، في العصر الحديث، على اكتشاف أدوات حديثة للاتصال كالهاتف، والمذياع، والتلفاز... ثم أخيرا القمر الاصطناعي.

وقد كان لهذه الأدوات أثر فعال في نمو الفكر الإنساني، وتقدم الحضارة الإنسانية. ولهذا السبب اتخذها العلماء والباحثون معيارا يقاس به مدى رقي الشعوب أو تخلفها.

إن الكائن البشري لا يستطيع أن يستمر في الحياة بدون تواصل، ولذلك يمكن القول: إن التواصل هو الحياة والحياة هي التواصل؛ أي أن فلسفة التواصل في أصلها هي فلسفة لكينونة الإنسان ولذلك فمتى حافظنا على هذه النواة الأساسية حافظنا على كينونة الإنسان في الآن نفسه

3- التواصل الإنساني والتواصل الحيواني:

غالبا ما كان يعرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق، وهو التعريف الذي نسب إلى أرسطو، وربما كان المقصود من ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك القدرة على ترجمة أغراضه ومشاعره إلى ألفاظ وعبارات مفهومة لدى أبناء عشيرته.

وقد ساد الاعتقاد أن للحيوانات لُغةً بعدما تم التأكد من أنها تتواصل عبر وسائل اتصالها الخاصة؛ كالرائحة لدى الثدييات (*mammifères*)، والرقص عند النحل، والحركات مع بعض الأصوات عند الطيور والقردة...

(1) المرجع نفسه ص: 45.

ورغم ذلك فقد ذهب إميل بنفنيست إلى القول: إن جميع الدراسات العلمية الحديثة دلت، بما لا يدع مجالا للشك على أن هناك لغة واحدة في هذا العالم، هي لغة الإنسان، تختلف اختلافا جذريا عن جميع الوسائل الأخرى التي تتواصل بها سائر المخلوقات، وأن الاختلاف ليس كميا، بل نوعيا، وإن فصيلة فقط في هذا العالم مفطورة على تعلم هذه اللغة هي فصيلة الإنسان وحده[1]. والسبب في ذلك هو أن الإنسان مزود بمراكز معينة في النصف الأيسر من المخ تسمى منطقة "بروكا" مختصة بإنتاج الكلام واستقباله، وتفسيره، وهو ما تفتقر إليه الحيوانات الأخرى[2]. يقول محمد الأوراغي: "القوى الذهنية في الإنسان مستعدة خلقة لأن تتشكل ببنية ما يحل فيها العالم الخارجي المنتظم على وجه كلي فتحصل لها القدرة على اكتساب العلوم"[3]. ولذلك فكل إنسان في أي مكان، وفي أي مجتمع يمتلك قدرة على اكتساب لغته الأم بيسر وفي فترة وجيزة حتى ولو كان مختلا عقليا شريطة سلامة جهازه السمعي الكلامي.

وقد توصل نوام شومسكي إلى إدراك أن اللغة الإنسانية نظام معقد بشكل ملفت للنظر، وذهب إلى أن الإنسان "السوي" باستطاعته استعمال نظام معقد من القواعد الخاصة، والمبادئ العامة بأقل جهد لنقل أفكاره ومشاعره[4].

وفي السياق نفسه ذهب أندري مارتني إلى أن لفظ "لغة" خاص باللغة الإنسانية، أما ما دون ذلك فلا يحق لنا أن نطلقه عليه إلا على سبيل المجاز فقط، كأن نقول مثلا "اللغة الحيوانية"[5].

(1) نقلا عن نور الدين البيقر(1993). المرجع نفسه. ص: 29.

(2) محمد حسن عبد العزيز(1996): مدخل إلى اللغة. ط3 دار الكتاب الجامعي للنشر ص:19.

(3) محمد الأوراغي(2002): شروط إسهام الثقافة الإسلامية في بناء حضارة إنسانية.ضمن مجلة :المتعطف، عدد 20. ص: 123.

(4) N. Chomsky : Réflexions sur le langage .Tr. de l'anglais par Béatrice vautherin et pierre fiala , Flamarion (1981).P: 12.

(5) Andrée Martinet (1970) : éléments de linguistique générale L. armand Colin P.7.

إن الأصوات التي تصدر عن الحيوان هي مجرد استجابات انفعالية لمؤثرات غريزية مرتبطة بالقوت أو الألم... وتقوم بدور التحفيز *(Motivation)* ولا يمكن أن ترقى إلى مستوى التواصل الإنساني.

وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكننا اعتبار اللغة مجرد ظاهرة فيزيولوجية؛ لأن الحيوان نفسه يتوفر على أعضاء النطق ورغم ذلك فهو يفتقر إلى اللغة.

إن الوظيفة الطبيعية للفم هي التنفس وبلع الطعام، وليست إنتاج الأصوات اللغوية، ولا أدل على ذلك من أن الحيوانات ذاتها تتوفر على جهاز صوتي على جانب كبير من الدقة والتعقيد مثل الطيور، كما أن الحيوانات الثديية تمتلك جهازا صوتيا متطورا وكاملا هو الحنجرة، التي تماثل في تركيبها ووظيفتها حنجرة الإنسان، وبقية أعضاء جهاز النطق الأخرى كالرئتين والأسنان، والفكين واللسان، والشفتين، ورغم ذلك فقد أكدت البحوث أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك القدرة على استعمال جهازه النطقي لإنتاج الأصوات اللغوية، في صورة إشارات فيزيولوجية وفزيائية، حاملة لمعان بفضل ما لديه من ذاكرة.

كما أكدت التجارب أيضا أن تلك الرقصات الدائرية التي تقوم بها النحلة لإخبار مملكتها عن مكان الطعام، وعن مسافته وعن الاتجاه الذي ينبغي أن تطير فيه باقي أعضاء الخلية، لا يعدو أن يكون نظاما إشاريا مغلقا؛ فلم يثبت أن نحلة ما استطاعت أن تشير بطريقة معينة إلى كمية الطعام أو نوعه أو لون الأزهار، أو أن تقدم معلومة مفادها أنها لم تعثر على شيء مهم على بعد ثلاثة كيلومترات من الخلية أو غير ذلك من المعلومات التي لها ارتباط بالطعام[1].

وحتى في حالة امتلاك الحيوانات لأعضاء فيزيولوجية قادرة على صنع الأصوات مثل البيغاء، فإنها تبقى عاجزة عن استعمال اللغة لغرض التواصل بالدقة نفسها، كما هو الأمر عند الإنسان.

(1) باكيسون وموتان وميكي وهايرماس وآخرون: التواصل نظريات ومقاربات. ترجمة: عز الدين الخطابي وزهور حوتي(2007)، ط 1، منشورات عالم التربية. ص: 24.

وهذا من شأنه أن يدفع إلى القول: إن اختلاف الإنسان عن الحيوان لا يكمن في افتقار هذا الأخير، إلى أعضاء النطق، وإنما يرجع بالأساس إلى افتقاره إلى فكر معقد كالذي يمتلكه الإنسان؛ وبالتالي فإن قوة الإنسان لا تتجلى فقط في امتلاكه للغة، بل في قدرته على استعمالها عن وعي.

فعلى الرغم من توفر بعض الحيوانات على أعضاء النطق فإنها تفتقر إلى لغة، في حين أن تعطل هذه الأعضاء عند الإنسان لا يمنعه من تداول اللغة، كما هي الحال عند الصم والبكم، ولذلك يقال: "إن أقوى الناس لا يستطيع أن يطير كما أن أذكى الحيوانات لا تستطيع أن تتكلم".

ولذلك فمن غير المعقول أن نقول: إن للحيوانات لغة وأنها تتبادل الكلام فيما بينها من غير أن نفهمها؛ إذ لو كان الأمر كذلك لتعلمنا لغتها وتواصلنا معها. ولعل السبب في ذلك هو افتقار الحيوان للملكة اللغوية التي توجد لدى الإنسان، ولذلك باءت بالفشل كل المحاولات - إلى حدود الساعة - التي بذلت لتعليم الحيوان اللغة الإنسانية.

وإذا صح هذا، فبماذا تتميز اللغة الإنسانية عن باقي أشكال التواصل لدى الحيوان؟

1- تتميز اللغة الإنسانية بمجموعة خاصيات يأتي في مقدمتها ما أسماه أندري مارتني بالتمفصل المزدوج (*double articulation*)[1]:

أ- **التمفصل الأول**: وهو ما يمكن تسميته بـ"التمفصل المونيمي"، وهو تمفصل اللغة إلى وحدات دلالية – أو مونيمات (*monèmes*) – قادرة على التعبير عن خبرة معينة لسانيا، وأصغر ما يمكن أن تخضعه لهذا النوع من التمفصل هو الجملة (*phrase*).

ب- **التمفصل الثاني**: وهو ما يمكن أن تسميه "التمفصل الفونيمي" وهو تمفصل المونيمات إلى فونيمات (*phonèmes*) فارغة دلاليا.

وتتجلى أهمية هذا التمفصل المزدوج في القدرة التي يمنحها للغة الإنسانية للتعبير، والإمكانيات اللانهائية للاستجابة لجميع متطلبات التجربة الإنسانية الغنية. وذلك في

(1) Andrée Martinet (1970): P. P :13-17

مقابل محدودية أشكال التعبير لدى الحيوان، وضيق إطارها المرتبط بالغريزة (التوالد، الطعام...)؛ في حين يتسع إطار الأشكال اللغوية عند الإنسان اتساعا يشمل كل تجاربه ومعارفه.

إن السؤال الوارد طرحه هنا هو: ألا يوجد نظام رمزي يتوفر على خاصية التمفصل المزدوج خارج اللغات الإنسانية؟ ولعل الجواب عن هذا السؤال واضح؛ فإذا أمكن وجود مثل هذا النظام المزدوج فهذا يعني إمكان وجود لغة تضاهي في تعقيدها وغناها اللغة الطبيعية.

ويمكن الذهاب أبعد من ذلك، بافتراض وجود تمفصل ثالث للغة الطبيعية؛ لأننا نعلم أن فونيمات اللغة الطبيعية تتحلل إلى مجموعة من السمات المميزة (*Traits distinctives*) كسمة الجهر، والهمس، والشفوية... وهو ما يزيد في تعقيد اللغة الطبيعية وغناها.

2- إن العلامات اللسانية عبارة عن رموز اصطلاحية (*Conventionnels*) لا فطرية. ولذلك عرف "ابن جني" اللغة بقوله: "أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1].

كما أكد دي سير أن العلاقة بين الدال (*Signifiant*) والمدلول (*Signifié*) علاقة اعتباطية (*arbitraire*).

3- تتغير اللغة الإنسانية بحكم الزمان والمكان، أما أشكال التواصل الحيواني فإنها ثابتة لا تتغير.

4- تقوم العلامات اللسانية في أداء معناها على القصد والوعي، ويمكن اعتمادها في التعبير عن الأشياء العينية أو المجردة، القريبة أو البعيدة زمانيا ومكانيا (ماض، حاضر، مستقبل، الآثار التاريخية...) يقول السيوطي: "... لأن كل واحد من الخلق لا يمكنه أن يقوم بجملة مقاصده، فحينئذ لا يخلو من أن يكون محل حاجته حاضرة عنده أو غائبة بعيدة عنه، فإن كانت حاضرة بين يديه أمكنه الإشارة إليها، وإن كانت غائبة فلابد له من أن يدل على محل حاجاته وعلى مقصوده وغرضه، فوضعوا الكلام دلالة

(1) أبو الفتح عثمان ابن جني: الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. ط2، دار الهدى للطباعة والنشر. ج 1، ص: 33.

ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولا للترداد[1]. وبهذا يكون القصد أساس التواصل الإنساني، وهذا يفترض بالضرورة اختيارا؛ فالإنسان يختار من بين الوسائل الكثيرة والمتعددة علامات مختارة لتحقيق أغراضه، وهو ما تفتقر إليه الإشارات الحيوانية، يقول جيرار دولودال: "إن عملية التواصل تقوم على أساس هو القصد، فلا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل، ودون وجود إبداع أو على الأقل دون وجود توليف للعلامات، إن هذا الأمر هو واقع"[2].

5- تمكننا اللغة الإنسانية من التعميم والإشارة إلى أشياء متشابهة؛ فبعدما يستقر "النموذج" في أذهاننا نستطيع أن نشير إلى "النسخ" بألفاظ متشابهة.

6- يمكن للإنسان أن يعتمد - إلى جانب العلامة اللسانية- أنظمة أخرى ذات طبيعة أخلاقية، أو اجتماعية، أو فردية... في حين أن أشكال التواصل الحيواني أحادية المضمون. تقول أمينة رشيد: "أما الفارق بين الاتصال الإنساني والاتصال الحيواني فيكمن في أن الرسالة في الاتصال الحيواني أحادية المضمون، أما الرسالة في الاتصال الإنساني فتكون مركبة تتداخل فيها مستويات مختلفة من الأنظمة الاجتماعية واللغوية والأخلاقية والفردية..."[3].

7- يشترط توفر مطلب الإدراك البصري لكي تتحقق مرامي الرسالة التي توجهها النحلة إلى الخلية؛ لأن هذه الرسالة تتم عبر الرقصات وبالتالي فلا يمكن رؤيتها إلا في زمن محدد هو النهار. أما الإنسان فلا يتقيد بذلك لأنه يعتمد على النطق الذي لا يتحدد بزمن ولا بمكان.

(1) جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. شرح وتعليق: أحمد جاد المولى والمجموعة. دار الفكر بيروت. ج 1، ص: 36.

(2) جرار دولودال: السميائيات أو نظرية العلامات. ترجمة : د. عبد الرحمن بوعلي.ط1 .(2000) مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ص: 89.

(3) أمينة رشيد(1986): السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر. ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا : سيزاقاسم – نصر حامد أبو زيد ج1 ط2، منشورات عيون، ص: 58

4- فواعل العملية التواصلية :

تنقسم عملية التواصل -باعتبار عدد المشاركين- إلى قسمين:

- تواصل ذاتي (داخلي) (*monologue*): حيث يجري الحوار بين الذات ونفسها ولا يتعداها إلى غيرها. ويكون ذلك في حالة من الحالات الجمالية الفنية مثل الإنشاد والترنم. وحالات نفسية مثل التذكر واالندم...
- تواصل تفاعلي: يبدأ من متحاورين على الأقل كأصل للحوار الثنائي والجماعي وذلك لأن "كل تفاعل شفهيا كان أو غير شفهي، يتطلب حضور شخصين أو أكثر، يمثلون ما يسمى بالمشاركين"[1]. ويتميز هذا الصنف الأخير عن سابقه بعدد من المميزات نذكر منها على سبيل التمثيل فقط ما يلي:
- تعدد المشاركين.
- اعتماده على الاسترجاع (أو التغذية الراجعة) *(Feed back) (Rétroaction)*.
- إن المخاطَب يتحول إلى مخاطِب و منتج للخطاب في مراحل معينة من مراحل دورة الكلام. بمعنى أن التواصل التفاعلي يقوم على أساس الحوار المتبادل من حيث تبادل الأدوار.
- إنه يساعد على "الإبداع في النقاش.

وقد ذهب مجموعة من العلماء إلى إمكانية قيام نظرية عامة للتواصل وإن اختلفت توجهاتهم، بين أنصار النظرية التي تأسست على نموذج السنن (*modèle de code*)، وأنصار النموذج الاستدلالي (*Le modèle inferentiel*)، وأصحاب التوجه القائل بضرورة الجمع بين مسارات التسنين والاستدلال[2].

وسيكون الشغل الشاغل لهذه النظرية التواصلية هو البحث عن أهم العناصر التي تكون فاعلة في عملية التواصل التي لا يمكن أن تتم إلا بوجود هذه الفواعل بشكل مستمر في

(1) Danielle André-Larochebouvy (1984) : introduction à l'analyse sémio-linguistique de la conversation . Crédif .Paris .P : 31

(2) Dan Sperber & Deidre wilson(1989): La pertinence ; communication et cognition. Tr .Abdelger shenfeld et Dan sperber ed .minuit .P : 13.

كل عملية تواصلية؛ بحيث إذا فُقد واحد منها استحال أن يقوم تواصل؛ وهذا يعني أن لكل عنصر من هذه العناصر دوره الفعال في عملية التواصل. أي أن تأدية أي عنصر من هذه العناصر لدوره مشروط بوجود العناصر الأخرى في الوقت نفسه.

فما هي إذن هذه العناصر؟ وما دور كل واحد منها في عملية التواصل الإنساني؟

1-4 المرسل – المتلقي *(Destinateur –destinataire)*:

يتموقع المشاركون في كل عملية تواصلية-بالضرورة- في موقع المرسل تارة والمتلقي تارة أخرى؛ فنحن نرسل رسائل حينما نكتب أو نبتسم...، كما أننا نستقبل رسائل أيضا عندما ننصت أو نقرأ جريدة أو نشم رائحة... إذن فبقدر ما نرسل رسائل بقدر ما نستقبل أخرى[1].

والمرسل هو الطرف الذي يتولى مهمة توجيه مجموعة من العلامات المحملة بمعان محددة قصد إثارة رد فعل معين لدى طرف خارجي(المخاطب)[2]؛ أي أنه هو مصدر الرسالة، ويكون إما شخصا أو جماعة أو جهازا، وقد يكون مرسلا ومتلقيا في الآن نفسه كما هي الحال في الخطاب الداخلي *(monologue)*.

إن دور المرسل، بهذا المعنى، هو تسنين *(le codage)* الرسالة من داخل نسق من الأنساق التواصلية وفق قواعد كل مجموعة إنسانية (القواعد لغوية مثلا). وبالتالي فالمرسل هو: محور التواصل، حيث ترتكز دورة الكلام على الذات المرسلة التي تحدد نوعية التواصل. والمرسل هو الذي يوجه العملية التواصلية وبالتالي فهو الأساس فيها[3].

ولا يكون المرسل مرسلا إلا بوجود المتلقي، فمن هو المتلقي إذن؟

المتلقي هو الطرف الذي يستقبل المعلومات والمعاني من المرسل. وهو بذلك مكمل دائرة التواصل؛ حيث يعمل على تفكيك الرسائل التي يبعث بها المرسل. ومن ثمة، فإن

(1) Joseph A. DeVito (1938).P : 7.

(2) مصطفى حجازي (1990): الاتصال الفعّال في العلاقات الإنسانية والإدارة. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. ط1.ص:26.

(3) عمر أوكان(2001): مرجع سابق، ص :36.

دوره لا يقل عن دور المرسل، بل إنه عنصر أساس في العملية التواصلية وذلك لأن الوضع التواصلي يستلزم علاقة تسنين *(le codage)*، وفك التسنين *(décodage)* التي يقوم بها المتخاطبون كل بطريقته[1]. ويقوم المتلقي (فردا كان أو جماعة) بتنفيذ ما ورد في الرسالة أو رفضه ... ولكن السؤال الوارد طرحه هنا هو: هل تنحصر وظيفة المرسل في الإرسال، ووظيفة المتلقي في الاستقبال؟

نعم يحصل ذلك في حالة الإخبار، أما في حالة العلاقة التحاورية فإن المتكلم يصير متلقيا والمتلقي يصير متكلما، وبالتالي فال المتلقي قد يقوم بدور الموجه في العملية التواصلية بشكل لا يقل عن نظيره لدى المرسل[2]؛ كما لا ينحصر دور المرسل في مجرد النقل مثلما هو شأن الآلة، بل إن النقل الذي يمارسه المرسل هو في الأقل نقلان اثنان: أحدهما صريح: يتعلق بالمعاني الظاهرة والحقيقية المستقلة عن مقامات الكلام، والثاني ضمني: يتعلق بالمعاني المضمرة والمجازية غير المستقلة عن المقامات[3].

ومادام التواصل نشاطا اجتماعيا كما قال كوفمان – فهذا يفرض وجود المرسل والمتلقي في كل مسار تواصلي. فوجود المتلقي قد يكون فزيائيا وقد يكون متضمنا في حسبان المرسل. إذ كلما أراد المرسل بناء خطابه الذي سيتوجه به إلى المتلقي كلما وضع في حسبانه استعدادات هذا الأخير الذهنية والنفسية...إن المتلقي بهذا المعنى بمثابة مراقب ضمني وهذا ما يجعل المرسل حريصا على انتقاء الملفوظات والاستراتيجية البرهانية الملائمة. والشيء نفسه يقال عن المتلقي الذي يشكل حضور المرسل بالنسبة إليه مسألة ضرورية. ففي الوقت الذي يقوم فيه المتلقي بفك تسنين الرسالة التي استقبلها من المرسل يقوم بقراءة ضمنية لطبيعته الذهنية والمعرفية، وانطلاقا من تخميناته وتوقعاته يختار العبارات الملائمة[4].

(1) جرار دولودال: مرجع سابق، ص :87.

(2) إدريس سرحان(2000): طرق التضمين الدلالي والتداولي في اللغة العربية وآليات الاستدلال. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة. ج1. ص ص: 97-100.

(3) طه، عبد الرحمن(1998): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي ط 1 ص: 216.

(4) C. K, Orecchioni (1998) : Les interaction verbales. Approche interactionnelle et structure des conversations. TOM1, Troisième édition. ARMAND COLIN, PARIS. PP: 13- 14.

وبالتالي فمعنى الرسالة أمر يشترك في تحديده كل من المرسل والمتلقي فهما يقومان بدورين مزدوجين ومتكاملين ومتزامنين.

4-2 الرسالة (*message*):

ويقصد بها المحتوى الذي يرغب المرسل في إبلاغه للمتلقي؛ ويتضمن هذا المحتوى المعلومات، والأفكار، والفرضيات... الموجودة في ذهن المرسل الذي يعمل على إرسالها إلى متلقي معين بغية التأثير في سلوكه. وتختلف الرسالة بحسب طبيعة المعلومات التي تحملها: عاطفية، سياسية، لسانية... وبذلك تشكل الرسالة كتلة بنيوية واحدة متماسكة الأجزاء، وأية محاولة لفصل أجزائها بعضها عن بعض تؤدي إلى تغيير الرسالة وإعادة بنائها من جديد.

قد يكون محتوى الرسالة صريحا كما قد يكون ضمنيا، إلا أن هذا الأخير غالبا ما يكون هو المقصود. ولذلك فنجاح العملية التواصلية متوقف على اتفاق طرفي الحوار على معنى ضمني واحد؛ أي أن يكون هناك تطابق بين ما يقصده المرسل وما يفهمه المتلقي تقول أندي ريشارد *Indy Richard*: "طالما أن الاتصال هو إيصال رسالة إلى الغير بغية تغييره، أو إقناعه بشيء ما، فإن نجاحها يتوقف على إيصال المعنى الضمني لها، بينما يصبح فشلها التضارب بين المعنى الصريح والمعنى الضمني"[1].

4-3 التسنين وفك التسنين اللسانيان

linguistiqus Le codage et le décodage:

يقصد بالتسنين اللساني عملية إنتاج الرسائل التي نقوم بها حينما نترجم أفكارنا ومشاعرنا إلى علامات داخل سنن معين: أي أننا نقوم بتسنين هذه الأفكار. أما عملية فك التسنين اللساني فهي عبارة عن عملية تأويل هذه الرسائل بعد استقبالها مثلما هي عليه الحال حينما نترجم الأصوات المسموعة إلى أفكار وكلمات مكتوبة أو منطوقة أو إلى حركات[2].

(1) نقلا عن مصطفى حجازي (1990) ص: 170.

(2) Jeseph A. DeVito (1938) P : 8.

إن كلا من عمليتي التسنين وفك التسنين اللسانيين لا تتمان بشكل فعال إلا وفق مجموعة من الشروط اللسانية والتداولية التي يجب أخذها في الحسبان لنجاح عملية التواصل. وتتمحور عملية التسنين على المرسل، أما عملية فك التسنين فهي من اختصاص المتلقي. وهما عمليتان نفسيتان تشتغلان في الدماغ البشري بواسطة اللغة[1].

فالمرسل مطالب - أثناء قيامه بعملية التسنين اللغوي- باحترام مجموع القواعد الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، والتداولية المتعارف عليها بين أفراد المجموعة اللسانية التي ينتمي إليها معتمدا في ذلك على كفايته اللسانية والتداولية (التخاطبية). بمعنى أن دوره يتجلى في اختيار الوحدات المشكلة لرسالته، وكلما كان هذا الاختيار سليما كلما ضمن نسبة عالية من النجاح في بث الرسالة بالقصد الذي يرغب فيه. هذا بالإضافة إلى مجموعة من العناصر التي ترتبط بشخص المرسل برابط ما، ومن ذلك مثلا تلك الأحكام والافتراضات المسبقة التي ينطلق منها؛ وهي افتراضات يستطيع المتلقي أن يدركها ويستنتجها من مضمون الرسالة لأنها تعكس المعلومات التي يكون المرسل قد اكتسبها من خلال محيطه الاجتماعي واجتهاداته الشخصية. ومعنى هذا أن اللغة تفضح ما نحاول إخفاءه.

كما أن عملية التسنين اللساني تتأثر بالغاية التي يسعى المرسل إلى تحقيقها لدى متلقيه عبر رسالته، وهو الشيء الذي يؤثر في أسلوب الخطاب ونوعية التعبير؛ فغاية الإقناع المنطقي المحض لا تحتمل شحن الرسالة بالمؤشرات الإيحائية وظلال المعاني، في حين أن غاية التأثير تطبع الكلام بطابع الأدبية وما تقتضيه من صور فنية ومحسنات بديعية...وهنا يتجلى الفرق بين: أسلوب الإغواء الذي يتجه نحو مخاطبة العاطفة مع التركيز على الجوانب النفسية (الترهيب والترغيب) مما يؤدي إلى تغييب شبه كلي للعقلانية، وأسلوب الحجاج الذي يتجه نحو مخاطبة العقل وآلياته المنطقية سعيا نحو الإقناع والاقتناع.

أما عملية فك التسنين اللساني، فإنها تستند هي أيضا إلى الكفاية اللسانية للمتلقي، وإلى كفايته التداولية، وثقافته الموسوعية، وأحواله الخاصة التي ينفرد بها عن غيره.

(1) عمر أوكان (2001): ص: 38.

4-4 السنن (*Le code*):

السنن نسق (*système*) من العلامات والقواعد المنظمة لطريقة عمل تلك العلامات. ولذلك عدَّ صوسير اللسان نسقا من العلامات المعبرة عن الأفكار. وشبهه بأبجدية الصم والبكم وبالطقوس الرمزية وبأشكال الآداب والإشارات العسكرية، إلا أنه، أي اللسان، يعد أرقى هذه الأنساق.

السنن إذن، هو مجموع الرموز والعلامات والقواعد المنظمة لها... المستخدمة في نقل المعاني التي تتضمنها الرسالة: كالكلام والإشارات وملامح الوجه... وحتى الصمت (*silence*)الذي ليس انقطاعا في التواصل، بل هو تواصل من نوع خاص؛ إنه تواصل من خلال ما يعنيه من رفض شيء أو التردد فيه، أو عدم القدرة على البوح به... ولذلك يقال مثلا في بعض المواقف كالزواج "السكوت علامة الرضى".

ومن العوامل الأساسية المساعدة على إنجاح عملية التواصل، اشتراك المرسل والمتلقي في السنن نفسه؛ فإذا لم يكن هذا الأخير متعارفا عليه من الجهتين أدى ذلك إلى فشل عملية التواصل. ولهذا السبب اشترط الإمام أبو حامد الغزالي في طريق فهم المراد من الخطاب "تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة"[1].

يعد الاشتراك في السنن بين المتحاورين إذن شرطا أساسيا في نجاح التواصل. أما إذا وقع خطأ في تأويل السنن أو جهل به، أو وقع فيه لبس، فإن من شأن ذلك أن يعرقل عملية التواصل. ولا أدل على ذلك من كثرة حالات سوء التفاهم بين الأفراد؛ ومن أمثلة ذلك، أن رجلا جاء إلى أحد ملوك جِمْيَر، فوجده خارجا للصيد، فقال له الملك: "ثُب" (أي اجلس) ففزع الرجل من أعلى الجبل فمات، وحين استغرب الملك تصرف الرجل، شرحوا له أن "الوثب" في غير "الحميرية" يعني القفز. وقد كان سبب هذا الخلل في الفهم هو الخطأ في تأويل السنن بسبب سنن مخالف.

(1) نقلا عن عبد الله لحضر(2001): الأحكام الشرعية و قواعد استنباطها عند ابن القيم. مطبعة منشورات عكاظ. الرباط. ص 60.

ولذلك يقول جوزيف دو فيطو: "كي تتواصل الأطراف المشاركة في الحوار يستلزم الأمر امتلاك قدرة لفهم علامات الطرف الآخر ومعرفة استعمالاتها المختلفة وكذا الدلالات المختلفة التي تحملها"[1].

5-4 المقام (*Le contexte situationnel*):

تتم عملية التواصل دائما داخل مجال محدد يسمى المقام؛ ويشمل هذا الأخير كل الملابسات، والأحوال، والظروف، والشروط السيكولوجية والسوسيولوجية، والتاريخية والثقافية...إلخ التي تؤطر مسار عملية التواصل زمانيا ومكانيا. كما تحدد نوع المعلومات التي يجب استعمالها، وكميتها، وكذا مختلف العناصر الفرعية، والأساسية، التي تساهم بشكل فعال في فهم مضمون الرسالة. وعرفه جون ديبوا بقوله: "نسمي المقام (*Situation*)جملة من الشروط السيكولوجية والسوسيولوجية والتاريخية، المحددة لعملية إرسال ملفوظ أو مجموعة من الملفوظات، في زمان ومكان محددين"[2].

وقد ميز جوزيف دو فيطو بين أربعة أنواع من المقامات هي:

أ- المقام الفيزيقي (*physique*): الذي يضم المجال المحسوس أو الواقعي: كلية، مقهى، بيت.. حيث تختلف طبيعة الموضوعات التي يدور حولها الحوار من مكان إلى آخر، وكذا طبيعة الأسلوب المعتمد.

ب- المقام الثقافي (*Culturel*): ويضم نمط العيش، والمعتقدات، والقيم، والسلوكات، والقواعد التي تؤسسها مجموعة بشرية لتحديد ما هو حلال وما هو حرام، وما هو صائب وما هو خاطئ.

ج- المقام الاجتماعي- النفسي (*Socio–psychologique*): ويضم العلاقات الاجتماعية المختلفة التي تربط بين أفراد مجموعة لسانية معينة، والقواعد الثقافية لمجتمع ما، وكذا مختلف التقاليد والأعراف والعادات.

(1) Jeseph A. DeVito (1983) P : 13
(2) Jean Dubois... (1973) : Dictionnaire de linguistique. P: 444

د- **المقام الزماني:** (*temporel*) ويقصد به الزمن الواقعي أو المتخيل الذي تجري فيه العملية التواصلية[1].

إن الاكتفاء بالمعنى المعجمي المباشر والصريح في فهم الرسالة (الخطاب) قد يؤدي إلى قصور في التأويل والفهم. ولذلك غالبا ما ينتقل المتلقي إلى تأويل ما يستقبله من رسائل بتجاوز المعنى المباشر لها، أي أن الأمر يتعلق بإدراك معانيها الضمنية لا مطابقتها للمعيار فحسب. ولذلك فلا بد من أخذ المقام في الحسبان حتى نتمكن من الوصول إلى المعنى المقصود والمراد من أية إرسالية. فعبارة صباح الخير مثلا قد يفهم منها أنها تحية يحيي بها المرسل المتلقي وهذه هي دلالتها الأصلية، إلا أنها قد تأخذ دلالات أخرى، كالتهكم مثلا إذا وجهت إلى متلقي عقب غفلته أو تأخره في النوم.

وقد انتبه العرب القدماء إلى أن الوصول إلى المعنى المقصود من الكلام، شعره ونثره، يقتضي الاهتمام بالمقام أو سياق الحال، بالإضافة إلى المقال أو سياق اللفظ؛ فقد فطن علماء البلاغة إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ولذلك ميزوا بين مواقف اجتماعية مختلفة: المدح و الهجاء والفخر والدعاء... وكان من رأيهم أن لكل مقام مقال وأنه لكل كلمة مع صاحبتها مقام. إن المعنى المقالي أو المعنى الحرفي هو معنى خال من محتواه الاجتماعي والتاريخي، منعزل عن القرائن الحالية ذات الفائدة الكبرى في تحديد المعنى. ومن ثم فإن المعنى الدلالي يشمل المقال والمقام[2].

وقد ميز علماء الأصول بدورهم بين المعنى الأصلي (الحرفي) والمعنى التبعي واعتبروا أن هذا الأخير غالبا ما يكون هو المقصود، أو هو ما يستدعيه المقام[3].

(1) Jeseph A. DeVito (1938)P.P : 5-7.

(2) تمام، حسان، (1994): اللغة العربية معناها ومبناها. الشركة الجديدة دار الثقافة. ص ص:337-339.

(3) عبد الله لخضر (2001). ص: (60).

6-4 القناة: (*Canal*)

ويقصد بها كل أداة مستعملة لنقل الرسالة من مرسل إلى متلقي؛ ويمكن أن نميز أنواعا من القنوات على الشكل التالي:

أ- **قناة طبيعية:** تعتمد على الحواس: بصر، شم، لمس..

ب- **قناة اصطناعية:** تلفاز، راديو، انترنيت...

ج- **قناة لفظية:** حيث يتم نقل المعاني عن طريق علامات صوتية مباشرة.

د- **قناة كتابية:** حيث يتم نقل المعلومات مكاتبة.

هـ- **قناة تصويرية:** ملصقات، صور، لوحات، إعلانات...

وقد يتم اعتماد أنواع مختلفة من القنوات في وقت واحد؛ كما هو الشأن مثلا في المحاورة (*conversation*) حيث يتم استعمال القناة الصوتية، والقناة البصرية، والقناة السمعية في الوقت نفسه، وقد نستعمل قنوات أخرى إلى جانبها. وبالتالي فوصول المعلومة إلى المخاطب بشكل سليم مرهون بمسألة اختيار القناة الأنسب بحسب المقام.

7-4 الاسترجاع (***Feed back) (Rétroaction***):

يعد مصطلح الاسترجاع من المصطلحات الأساسية في نظرية التواصل؛ لأنه يعبر عن التفاعل الدينامي بين المرسل والمتلقي في العملية التواصلية. ذلك أن توجيه رسالة إلى متلقي معين في مقام معين ينتج عنه بالضرورة رد فعل معين (قد يكون بالكلام أو إصدار أصوات معينة أو عبر حركات الرأس أو العين...). ورد الفعل هذا هو الذي يساعد المرسل على توجيه الخطوات الموالية في عملية الإرسال حيث يعدل، أو يعزز، أو يلطف.. في محتويات الرسالة. ولذلك فالمرسل غالبا ما يكون في حاجة ماسة إلى معرفة ردود أفعال المتلقي للاسترشاد بها كي يتمكن من توصيل رسالته بشكل جيد، وهكذا فهذه العملية تضبط سلوك المتكلم وتوجهه في المراحل اللاحقة لاستكمال رسالته حيث يعدل من المحتوى أو اللهجة أو يغير في الشفرة المستعملة، وذلك تبعا لاسترجاع الأثر الذي تلقاه[1].

(1) مصطفى حجازي (1990) ص:38.

تتبنى سيرورة العملية التواصلية إذن على تبادل التأثير والتأثر الفكري والعاطفي بين المرسل والمتلقي أثناء تحاورهما. وهذا ما يخلق نوعا من التفاعل الذي يعد أساسا للمحاورة الناجحة. ففي الوقت الذي يكون فيه أحد الطرفين مؤثرا فإنه في الوقت ذاته متأثر. فالمتكلم يؤثر بحكم وظيفته الإرسالية، لكنه في الوقت ذاته متأثر باستعدادات المتلقي ومجموع المعلومات الذهنية والنفسية والمعرفية التي ينطلق منها (المرسل)، وعلى أساسها تتغير طبيعة التعابير المستعملة.

4-8 التشويش: *(bruit) (Le parasite)*:

يقصد بالتشويش كل ما من شأنه أن يعيق عملية التواصل أو يؤثر عليها؛ ونميز فيه بين:

1- **تشويش فيزيقي** (*physique*): ضجيج الآخرين، ضوضاء السيارات..

2- **تشويش سيكولوجي** (*psychologique*): التحيزات والأحكام المسبقة، والشرود الذهني، وضعف الذاكرة...

3- **تشويش دلالي**: (*sémantique*): دلالة غامضة وملبسة[1] (47). واللغة الملبسة لا تساعد على تحقيق الوظيفة الأساس للغة ألا وهي التواصل وأمن اللبس. ومن أنواع هذا اللبس:

أ- **اللبس المعجمي**: فقد تحمل كلمة معينة دلالات مختلفة مثل المشترك اللفظي؛ فكلمة 'العين' قد يقصد بها حاسة الإبصار، أو عين الماء، أو عين الجاسوس، أو الدرهم، أو الشمس... و الشيء نفسه يقال عن 'العقرب' و'الساعة'...

ومن ذلك أيضا الترادف الذي يعد من المشكلات التي تواجه المعنى، وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في وقوع الترادف بناء على أن كثيراً من الألفاظ المترادفة هي من قبيل الوصف للمسمى لا من قبيل تعدد الاسم للمسمى، أو هي من قبيل التقاطع الدلالي لا التطابق الدلالي.

(1) Jeseph A. DeVito (1938) P : 11

ب- **اللبس التركيبي**: وهو لبس يلحق بالملفوظات لأسباب تركيبية؛ إذ يمكن أن يوافق الملفوظ بنيتين دلاليتين مختلفتين ومثل ذلك الجملة التالية:

[1]- هذا الشاعر تأبط شرا.

فبالإمكان اعتبار 'الشاعر تأبط شراً' خبرا لاسم الإشارة هذا المبتدأ، ويتكون الخبر من المبدل منه (الشاعر) والبدل (تأبط شرا) الذي ورد اسم علم، ويمكن أن لا يراد بـ'تأبط شراً' اسم العلم، بل مجرد جملة صغرى تتكون من الفعل 'تأبط' والفاعل المقدر والمفعول به (شرا) وبذلك يكون قولنا 'تأبط شراً' خبرا للمبتدأ (هذا الشاعر)

ت- **اللبس التداولي**: ويرتبط هذا النوع من اللبس بمرجع عبارة معينة، وغالبا ما يرتبط بالضمائر. ومن ذلك مثلا:

[2]- طرد زيد محمدا من العمل لأنه كان إسلاميا ملتزما.

إذ يتطلب الأمر تحديد من يعود عليه الضمير الغائب المتصل (ـه) هل يعود على الفاعل (زيد) أو على المفعول به (محمدا)[1].

ث- **اللبس المجازي**:

وهو لبس يلازم التراكيب المجازية، ومن سببه:

- الاستعارة:

[3] وجدت فيك البحر.(للدلالة على الكرم والعطاء)

- المجاز المرسل:

[4] شربت ماء النيل.(المراد بعضه)

- المجاز العقلي:

[5] بنت الحكومة دار الثقافة. (المراد العمال)

(1) آن روبول وجاك موشلر: التداولية اليوم. ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني. (2003) المنظمة العربية للترجمة. ص ص: 96-97.

ج- اللبس الإنجازي:

غالبا ما تدل ملفوظات الألسنة الطبيعية على قيم إنجازية مخالفة لتلك التي تدل عليها بمقتضى مؤشرات القوة الإنجازية التي تدخل في تكوين البنية اللسانية لتلك الملفوظات.

ومثال ذلك أن يخرج المتكلم بالاستفهام إلى إفادة الالتماس:

[6]- هل ترغب في الذهاب إلى المسرح؟[1].

وهذا اللبس من شأنه أن يخلق نوعا من الاختلاف بين المعنى الذي يقصد إليه المرسل والمعنى الذي يفهمه المتلقي. وقد يكون ذلك بسبب اختلاف العشائر اللغوية من مكان إلى آخر، أو بسبب استعمال لسان منحرف أو لغة أجنبية غير مفهومة، أو مصطلحات مركبة وغير مفهومة للمتلقي[2].

إن الحديث عن الأثر السلبي للتشويش على عملية التواصل مرتبط بما يسمى بـ: معيقات التواصل، فتواصلاتنا اليومية تتعرض باستمرار لعدة عوائق تحد من فعاليتها، ولعل الوعي بالإشكالات التي تعاني منها عملية التواصل هي الخطوة الأولى التي بإمكانها أن تمنح لنا نوعا من القدرة على السيطرة على عملية التواصل وتوجيهها بشكل يخدم قصدنا التواصلي. وهذه المعيقات قد ترتبط بالمرسل أو المتلقي أو القناة .....[3].

4-9 الطاقة *(énergie)*:

يستوجب النشاط التواصلي وجود طاقة كفيلة بتشغيل قنوات التواصل؛ فالجهاز النطقي للكائن البشري مثلا يستمد طاقته من الطاقة الإجمالية لجسم الكائن الحي ذاته. أما إذا انعدمت هذه الطاقة فإن الجهاز النطقي يتعطل وذلك كأن يكون الكائن ميتا مثلا. والشيء نفسه يقال عن القناة الاصطناعية (الهاتف..).

(1) إدريس سرحان(200) ج-1 . صص: 42-51

(2) Jeseph A. DeVito (1938) P : 11

(3) للتوسع في الموضوع راجع: مصطفى حجازي (1990) ص:151 -170

إن ما تم ذكره من الفواعل قليل جدا، لأن نجاح العملية التواصلية يفرض علينا أن نأخذ في الحسبان مجموعة من الأمور المختلفة، فإلى جانب ما أشرنا إليه هناك عناصر أخرى تكون فاعلة بشكل أو بآخر في عملية التواصل ونذكر على سبيل المثال: عدد المشاركين، والجنس، والسن، والطبقة الاجتماعية، وقدرة الحواس...

وفي الأخير أشير إلى أن الدور الإيجابي لهذه الفواعل لن يحقق النتائج المرغوب فيها إلا بامتلاك المتحاورين لما يسمى بالكفاية التواصلية التي تتجاوز الكفاية اللسانية إلى كفايات أخرى منها ما يتعلق بمعرفة قواعد الاستعمال ذات الطابع الاجتماعي الثقافي، إلى جانب قواعد الربط بين اللغة وبين المقاصد التداولية المختلفة، وكذا معرفة استراتيجيات التواصل اللغوي وغير اللغوي[1].

(1) عز الدين البوشيخي (2002): تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من منظور وظيفي. ندوة: اللغة العربية إلى أين ؟ الرباط ص: 6.

الفصل الثاني

وظائف اللغة وعلاقة التواصل اللساني بأنساق التواصل غير اللساني

1- وظائف اللغة:

شكل موضوع اللغة أرضية خصبة لمجموعة من التخصصات العلمية: اللسانيات، والفلسفة والمنطق... وقد نتج عن ذلك جملة من الإشكالات النظرية والإجرائية المرتبطة بالأساس بأصل اللغة ووظيفتها.

ويمكن صياغة هذه التساؤلات على الشكل التالي:

- هل اللغة فطرية أم مكتسبة؟
- ما علاقة اللفظ بمدلوله اللغوي؟
- ما هي الوظيفة الأساسية للسان الطبيعي؟
- كيف يتم التواصل بواسطة النسق اللساني؟ وهل يتحقق بنوع من الوضوح والشفافية أم أنه يتحقق بشكل من التعتيم و اللاوضوح؟
- ما هي الأنـ ـن التواصلية التي يعتمد عليها الإنسان أثناء تواصله مع الآخرين وما علاقتها بالنسق اللساني؟

لقد تولدت في ظل هذه التساؤلات عدة مقاربات بلورتها فلسفات متعاقبة في الشرق و الغرب على حد سواء.

وسأركّز اهتمامي في هذا المقام على وظائف اللغة وعلاقة التواصل اللساني بأنساق التواصل الأخرى.

أما بالنسبة للوظيفة الأساسية للغة فقد شكلت بدورها، و ما تزال، موضوعا مثيرا للجدل بين العلماء؛ حيث ذهب البعض إلى أن وظيفتها اجتماعية بالأساس (التواصل)؛ إذ تساعد على تمتين العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع. وهو ما يؤكده سيمون ديك بقوله:

إن اللغة الطبيعية أداة للتفاعل الاجتماعي، وهذه الأداة لا تتحقق في ذاتها ولذاتها، بل تتحقق عن طريق فعالية الاستعمال المحدد للتفاعل الاجتماعي بين أفراد المجتمع[1].

في حين يرى البعض الآخر أن وظيفة اللغة معرفية (*Cognitve*) قبل كل شيء؛ حيث تستعمل اللغة، حسب أصحاب هذا التصور، لتمثيل المعلومات وتخزينها وإبلاغها. والحديث عن الوظيفة المعرفية للغة هو حديث عن علاقة العلامات (Les signes) بالأشياء التي تمثلها؛ فاللغة تساعدنا على تنظيم العالم الذي نعيش داخله، كما تساعدنا على تقطيع (Découper) الواقع (Le réel) وإدراكه[2]. ومن بين أصحاب هذا التصور آن روبول وجاك موشلر اللذان أشارا إلى أن اللغة، أولا وقبل كل شيء، تعتبر على الأرجح أداة لتمثيل المعرفة والمعلومة وإبلاغهما[3].

وهناك تصور يتحدث عن الوظيفة الترميزية للغة (La fonction Symbolique)؛ إذ تمكننا اللغة من فك ارتباط العلامة اللغوية بمرجعها الذي تشير إليه (Le référent) لإقامة عوالم خيالية (Imaginaires)، وتذكُّر العناصر الغائبة[4].

وقيام اللغة بجملة هذه الوظائف: المعرفية ، والتواصلية و الترميزية هو ما يضفي عليها بعدا حضاريا.

وقد كان من بين اهتمامات ياكوبسون في نظريته اللسانية الوظيفةُ التواصلية للغة، وهذه الوظيفة ذات طابع ثنائي في القنوات حيث تنقسم إلى قناة نطقية وأخرى كتابية:

1- **تواصل لفظي** (*Verbale*): يتم عن طريق تبادل الملفوظات بين أفراد العشيرة اللغوية. وتتم هذه العملية استجابة لمجموعة من الدوافع النفسية والفيزيولوجية للمرسل. ويعتمد هذا النوع من التواصل على قناة السمع في التلقي، وهو بذلك يفترض وجودا حاضرا لكل من المرسل والمتلقي. وغالبا ما يستعين التواصل اللفظي

(1) Simone Dik (1989) : The theory of functional grammar. FORIS. Publications : 4.
(2) Joëlle Gardes-Tamine, Marie Claude Hubert(1998):Dictionnaire de Critique Littéraire. Cérès Editions. P: 119.
(3) آن روبول وجاك موشلر: التداولية اليوم.ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني. (2003) المنظمة العربية للترجمة. ص: 19.
(4) Joëlle Gardes-Tamine, Marie Claude Hubert(1998):Dictionnaire de Critique Littéraire. Cérès Editions. P: 120.

بمجموعة من العناصر الخارج لسانية أو الموازية لسانيا مثل: الحركات، والإيماءات، ونبرات الصوت...، ولا يهتم هذا النوع من التواصل ـ في الغالب ـ بالقواعد النحوية، كما ينزاح عن الاستعمالات المعيارية من حيث التركيب والدلالة والنطق، لأنه يتسم بالعفوية في الأداء في أحايين كثيرة.

2- تواصل كتابي: لا يشترط بالضرورة وجودا حاضرا للمخاطب، بل غالبا ما يتم بث رسائل إلى هذا الأخير وهو بعيد عن المرسل. ولذلك يراعى في هذا النوع التواصلي السلامة في صياغة الرسالة؛ وذلك عن طريق احترام القواعد المعيارية للغة (القواعد النحوية، وعلامات الترقيم...).

إن الشغل الأساس للسانيات حسب ياكبسون هو دراسة جميع وظائف اللغة، بما فيها وظيفتها التواصلية التي عدها أهم وظيفة للغة الطبيعية.

وقد لخص ياكبسون فواعل العملية التواصلية فيما يلي: أن المرسل ـ 1ـ يبعث برسالة ـ2 ـ معينة إلى المتلقي ـ3 ـ ، ولكي تكون هذه الرسالة فاعلة، فإنها تتطلب سياقا (مرجعا) ـ 4ـ تحيل عليه، وهو قابل للإدراك من قبل المتلقي، وهو سياق لغوي أو قابل لأن يكون كذلك. كما تتطلب هذه الرسالة، بعد ذلك، سننا ـ 5ـ يشترك فيه المرسل والمتلقي كليا أو جزئيا، وأخيرا تقتضي الرسالة قناة ـ 6ـ ترابط فيزيقي أو نفسي، تمكن كلا من المرسل والمتلقي من إقامة التواصل بينهما والحفاظ عليه[1]. وقد وضح ياكبسون هذه العناصر المختلفة والمكونة للحدث الكلامي من خلال الخطاطة التالية:

السياق

المرسل ← الرسالة ← المتلقي

القناة (الاتصال)

السنن

(1) R .Jakobson(1963). ESSAIS de linguistique générale.T1.ed minuit. Paris pp : 213-214 .

وكل فاعل من هذه الفواعل ينتج وظيفة خاصة به، وهذا يعني أن الحدث التواصلي، الذي يتم عبر اللغة، تحدده ست وظائف مختلفة. إن هذا القول الأخير لا يعني بالضرورة أن رسالة معينة تؤدي وظيفة واحدة فقط من تلك الوظائف الست، وإنما يعني أن هذه الوظائف تتفاوت تبعا لطبيعة كل رسالة، بحسب أهميتها؛ فقد تحظى الوظيفة الشعرية مثلا بالأهمية الكبرى في الخطاب الشعري، دون أن يعني ذلك إقصاء تاما أو كليا للوظائف الأخرى، بل يعني فقط أن دورها يظل ثانويا مقارنة مع الوظيفة الشعرية. وقد ذهب ياكبسون إلى أن مسألة حضور وتراتبية هذه الوظائف الأساسية التي نلاحظها في اللغة يجب أن تطبق أيضا على الأنظمة السميائية الأخرى[1].

ويحدد ياكبسون هذه الوظائف في :

1-1- الوظيفة التعبيرية أوالانفعالية (*La fonction expressive ou émotive*):

تتمحور هذه الوظيفة حول المرسل في تعبيره المباشر عن موقفه مما يتكلم عنه أويكتبه[2]، وعن شعوره الانفعالي سواء أكان هذا الشعور صادقا أو كاذبا. ولذلك فأهمية هذه الوظيفة تتجلى في الانطباع الذي يبين لنا إحساس المرسل تجاه ما يتحدث عنه، أو ما يتواصل بشأنه.

ولعل صيغ التعجب هي أهم شكل تعبيري معبر عن هذه الوظيفة، لأن هذه الصيغ تلون أقوال المرسل بدرجات معينة سواء على المستوى الصوتي، أو المعجمي، أو النحوي والتركيبي. فغالبا ما يتجاوز المرسل، في بعض العناصر التعبيرية الدالة على السخرية أو الغضب... ما تحيل عليه ألفاظه من مرجع محدد إلى الإخبار عن إحساسه الذاتي (الشخصي) إزاء هذا المرجع. فالتلوين الصوتي (النبر والتنغيم) يولد اختلافا في المعنى إلى درجة أن كلمة واحدة بإمكانها أن تؤدي حالات تعبيرية مختلفة.

(1) ياكبسون، رومان. الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم (2002)، ط1 . المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – المغرب. ص: 57.

(2) أوليفي رويول. اللغة و الإيديولوجيا. ترجمة حنون مبارك(1999). مجلة علامات عدد 12 ص37.

ويمكن تبيُّن ذلك من مختارات من شعر محمود درويش من قصيدة: "إلى أمي":

أحِنُّ إلى خبز أمي
وقهوة أمي
ولمسة أمي..
وتكبر فيَّ الطفولةُ
يوما على صدر يومِ
و أعشَقُ عمري لأني
إذا مُتُّ،
أخجَلُ
من دمع أمي![1]

يقدم محمود درويش في قصيدته هاته صورة عن نفسه المتألمة من جراء نفيه خارج الوطن، وبالتالي فالقصيدة تعبير عن تجربة الاغتراب وتجربة الإصرار على البقاء والمقاومة. وقد عبر الشاعر عن ذلك كله معتمدا على لغة شعرية قريبة من لغة الحياة اليومية، واعتماد ضمير المرسل واستعمال التعجب.. كل ذلك جعل القصيدة تحمل هما ذاتيا ووطنيا وقوميا وإنسانيا. كما يتضح ذلك أيضا من خلال مقتطف من قصيدة أخرى للشاعر نفسه بعنوان أحد الزعترْ يقول في المقطع الثاني:

أنا أحد العربي ـ فليأت الحصارْ
جسدي هو الأسوار ـ فليأت الحصار
وأنا حدود النار فليأت الحصار
وأنا أحاصركم
أحاصركم
وصدري بابُ كلّ الناس ـ فليأت الحصار[2].

(1) ديوان محمود درويش. ج1. طبعة 14، دار العودة، بيروت. ص: 93.

(2) محمود درويش(1977): ديوان أعراسْ ط5، دار العودة، بيروت ص ص: 25.

حيث نلاحظ أن الشاعر يؤكد هويته العربية عن طريق تكراره للأفعال المسندة إلى ضمير المرسل وضمير الأنا بشكل مطرد وفي حالات مختلفة تعبر في مجملها عن تحدي الشاعر ونضاله رفقة شعبه من أجل الحرية والاستقلال.

2-1 الوظيفة الإفهامية (التأثيرية) (*La fonction conative*):

تتمحور هذه الوظيفة حول المتلقي، وتجد هذه الوظيفة أبرز صيغها في الأساليب الإنشائية: النداء والأمر والاستفهام. والغرض منها هو لفت انتباه المتلقي والتأثير فيه قصد إقناعه بالآراء والأفكار والقضايا التي تحملها الملفوظات والنصوص. ومقصد الإقناع هذا يستلزم فعالية لغوية ومنطقية، تنظم الخطاب بطريقة خاصة، تؤثر في المتلقي، وتجعله يعيد النظر فيما كان يحمله من أفكار ومعتقدات، ودفعه إلى التحرك واتخاذ مواقف: الوعظ والإرشاد والتهديد والقيام بالدعاية، أو بحملة انتخابية...

ويمكن توضيح ذلك من المقطع الخامس من قصيدة أحمد الزعتر لمحمود درويش حيث يقول:

يا أحمدُ المجهولْ!
كيف سكَنْتنا عشرين عاما واختفيت

وظلّ وجهك غامضًا مثل الظهيره
يا أحمد السريّ مثل النار والغابات
أشهرْ وجهك الشعبيّ فينا
وأقرا وصيّتك الأخيرة؟
يا أيها المتفرجون! تناثروا في الصمت
وابتعدوا قليلا عنه كي تجدوهُ فيكم
حنطة ويدين عاريتين
وابتعدوا قليلاً عنه كي يتلو وصيّتهُ
على الموتى إذا ماتوا

وكي يرمي ملاعقهُ
على الأحياء إن عاشوا!

أخي أحمد!
وأنتَ العبدُ و المعبود والمعبد
متى تشهدْ
متى تشهدْ
متى تشهدْ؟[1].

نلاحظ استعمال الشاعر لضمير الـ أنت، وأفعال الأمر، وأسلوبي الاستفهام متوجها بكلامه إلى أحمد الذي فقد هويته وتحول إلى رمز سري يتلو وصيته الأخيرة على موتى الضمائر وهو على أبواب الشهادة يتهيأ للموت راسما بشهادته الطريق لمن أراد أن يعيش حيًا... لذلك تقدس فعله وتقدس سره. كما نلاحظ أن محمود درويش ابتعد عن استعمال اللغة الرصينة والمتينة بمعناها التقليدي، واستعمل في مقابل ذلك لغة قريبة من لغة التخاطب اليومي كي يضمن لنفسه قوة التأثير في النفوس.

3-1 الوظيفة المرجعية : (*La fonction référentielle*)

تتمحور هذه الوظيفة حول المرجع أو السياق (*contexte*)، وتجد هذه الأخيرة حضورا قويا في اللغة العادية. إنها الوظيفة التي يعتمد عليها لتعيين الموضوعات كي تأخذ دلالات معينة ولذلك تسمى أيضا بـ "الوظيفة التعيينية" (Dénotative)، وبالتالي فهي التي تجسد العلاقة بين الدال والمدلول. ويتضح ذلك بشكل جلي في الضمائر الشخصية، وأسماء الإشارة، و"أسماء الموصول"، وأسماء الأعلام"، و"أزمنة الأفعال".

وقد وقف النموذج الكلامي لبوهلر- الذي أخذ عنه ياكبسون الوظائف الثلاث السابقة- عند حدود هذه الأنواع الثلاث من الوظائف، وهو الشيء الذي دفع ياكبسون إلى

[1] المرجع نفسه

إضافة ثلاث وظائف أخرى ومن بينها الوظيفة التأكدية (*phatique*) التي أخذها عن مالينوفسكي (*B. Malinowsky*).

وهذه الوظائف هي :

4-1 الوظيفة التأكُّدية (الإنتباهية) (*la fonction phatique*).

تعتبر وظيفة التنبيه، من بين وظائف اللغة التي اكتشفها العالم اللغوي مالينوفسكي، ويتجلى دور هذه الوظيفة في ربط الاتصال، والتأكد من أن القناة ناجعة وأن انتباه المتلقي مشدود[1].

وتظهر هذه الوظيفة عندما يكون هدف الرسالة في المقام الأول هو إقامة التواصل، أوتمديده، أو السيطرة عليه، أو تأكيده أو قطعه.

وقد ذهب ياكبسون إلى أن هذه الوظيفة، هي الوظيفة الأولى التي يكتسبها الطفل ويستخدمها بنجاح؛ حيث إن الرغبة في إقامة التواصل تسبق لديه القدرة على التلفظ بملفوظات حاملة لدلالات وأخبار معينة؛ أي أنه لا يحيل من خلال كلامه على مرجع إدراكي محدد. ولا يمكن لهذا التنبيه أن يتحول إلى لغة، يتم بها التواصل، إلا بمساعدة محيط لغوي متعاون وخاصة محيط الأسرة. وهذه الوظيفة ليست خاصة بالإنسان فقط، بل نجدها أيضا لدى الحيوانات الناطقة وخاصة الطيور.

يدخل في هذا السياق أيضا عبارات المجاملة والأدب والتحية والسلام والأسئلة عن الأحوال الشخصية وأحوال الطقس وعبارات مثل: هل تسمعني؟، أو استمعْ إلي ...، والتي يكون الغرض منها هو إقامة التواصل والحفاظ عليه أو قطعه، وكذا التأكد من اشتغال دورة الكلام وإثارة انتباه المتلقي أو التأكد من انتباهه ...، وهذا في حد ذاته يعني أنه ليس كل تواصل إبلاغا.

ومن أمثلة العبارات التنبيهية المتعلقة بوسائل الاتصال التقني، بعض الأصوات والغمغمات التي لا يكون الهدف منها إلا التأكد من اشتغال الهاتف أو مكبر الصوت.

(1) الفاسي الفهري، عبد القادر(2003): اللغة والبيئة.مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. منشورات الزمن. ص: 94.

وللتنبيه دور اجتماعي هام عند البالغين، إذ يمكن اعتباره مجرد حيلة اجتماعية تمكنهم من تجنب حرج الصمت[1].

وإذا كانت الوظائف السابقة، وظائف خارج لسانية، فإن ياكبسون سيعمل على إضافة وظيفتين لسانيتين بامتياز، هما: الوظيفة اللسانية الواصفة، والوظيفة الشعرية، فما المقصود بهما؟.

5-1 الوظيفة اللسانية الواصفة(*La fonction méta linguistique*):

وتتمحور هذه الوظيفة حول السنن (*code*)، وبالتالي فإن اللغة عندما تؤدي هذه الوظيفة تصبح لغة صناعية تستخدم لتفسير لغة طبيعية ووصفها، ومثال ذلك: لغة النحاة المستعملة لتفسير عمل اللغة ووصفه، ومن ذلك أيضا اللغة المعجمية التي يستخدمها مؤلفو القواميس والمعاجم لتعريف الألفاظ. والجدير بالذكر أن لكل لغة لغة واصفة خاصة بها، ويمكن التعرف عليها من خلال استخدامها لألفاظ مثل: أي، يعني، ولنقل مثلا، بمعنى أن ... إلخ.

ولعل مصدر اللبس والتناقض اللذين تتميز بهما اللغة العادية راجع بالأساس إلى استعمالها لعبارات منه مجردة من اللغة واللغة الواصفة دون تمييز.

وتكتسي الوظيفة اللسانية الواصفة دورا هاما لدى الناطقة واللسانيين، وكذا في الحياة اليومية؛ ومثلا ذلك الجوابان الممكن تقديمهما على هذين السؤالين: هل تفهم كلامي؟ أو ماذا تقصد بكلامك؟ كل ذلك من أجل التأكد من استعمال السنن نفسه. وقد أكد ياكبسون على دور هذه الوظيفة في تعلم اللغة، واكتسابها، واستعمالها، وكذا في حصر معنى الكلمات الجديدة أو الأجنبية.

(1) تمام، حسان، (1994): اللغة العربية معناها ومبناها- الشركة الجديدة دار الثقافة. ص ص:343-344.

6-1 الوظيفة الشعرية(*la fonction poétique*).

تتمحور هذه الوظيفة حول الرسالة ذاتها، ويقصد بها ما يتعلق بالجانب الجمالي أو البلاغي في الرسالة. ولا ينحصر وجود هذه الوظيفة في مجال الشعر فقط، وإن كان وجودها في هذا العمل الأدبي هو المحدد لبنيته، دون أن يعني ذلك بطبيعة الحال تغييب الوظائف الأخرى؛ وإنما يعني فقط، أن دورها – في النص الأدبي – دور ثانوي، تماما مثلما أن الوظيفة الشعرية ليست غائبة في التواصل اللغوي العادي مثلا، ولكنها لا تقوم فيه إلا بدور ثانوي كما هو الشأن في الشعارات السياسية والإشهارية...

ففي النص الأدبي تتوارى الوظيفية المرجعية ويتراجع دورها لصالح الوظيفة الشعرية؛ ومن ثمة تتسم اللغة الأدبية بالإثارة والتكثيف الجماليين، ووسيلتها في ذلك أدوات فنية وصور معبّرة وموحية مختلفة ومتعدّدة؛ بعضها قديم وموروث؛ كالمجاز والاستعارة والتشبيه... وغيرها من فنون البيان، وبعضها الآخر جديد ومستحدث كالرمز والأسطورة. كما يدخل ضمن هذه الوظيفة: الإيقاع وكل ما يرتبط به من تكرار بعض الحروف، أو المقاطع، والسجع والجناس و التوازنات الصوتية المختلفة الأخرى.

وتعد اللغة مكونا أساسيا من مكونات الصورة الشعرية، ولأجل ذلك يحرص الشاعر على اختيار مفرداته، وفق محورين هما محور التأليف (*Axe syntagmatique*) ومحور الاستبدال (*Axe paradigmatique*)، مما يسمح له بخلق انزياح على المستوى التركيبي والدلالي. وبهذا العمل تكون الصورة قد أدت وظيفة جمالية، من خلال تقديمها للمعنى في صورة تبتعد به عن اللغة المألوفة على مستوى الدلالة والتركيب، إلى جانب وظائف أخرى: انفعالية، ووصفية، حجاجية(عندما يكون القصد من الصور الشعرية هو إقناع المخاطب بوسائل مثل: الاستمالة النفسية والشرح والقياس والتعليل...).

يقصد بشعرية اللغة إذن، انزياحها عن معايير اللغة العادية المألوفة وطبيعتها. ويتحقق هذا الانزياح من خلال المستويات التالية: الانزياح الدلالي، والانزياح الإيقاعي؛ والانزياح التركيبي. وفي تقابل مع خطاطة فواعل العملية التواصلية عند ياكبسون، تأخذ هذه الوظائف الست شكل الخطاطة التالية:

الوظيفة المرجعية

الوظيفة التعبيرية ← الوظيفة الشعرية ← الوظيفة الإفهامية

الوظيفة التأكدية

الوظيفة اللسانية الواصفة

ويمكن الجمع بين الفواعل والوظائف ضمن خطاطة واحدة على الشكل التالي:

أما ما يتعلق بمسألة الشفافية في التواصل عبر الألسنة الطبيعية فقد اعتبر بعض أصحاب النظرية التوصلية أن عملية التواصل تتم في إطار من الشفافية والوضوح بين الذوات المتكلمة وفق مجموعة من الشروط الذاتية والموضوعية، في حين يرى توجه آخر(أمثال: ديكرو وبارث) أن عملية التواصل لا تتم دائما في إطار من الوضوح والشفافية؛ لأن اللسان يصبح أداة لممارسة السلطة ووسيلة للإضمار والتستر، ويرجع ذلك لمجموعة من الأسباب المرتبطة بالخصوص بوجود طابو (*Tabou*) لساني داخل كل المجتمعات البشرية إضافة إلى الخوف الدائم للذات المعترضة من الاعتراض.

هكذا يصبح اللسان ـ تحت تأثير الطقوس والعادات والطابو ـ وسيلة تعتمدها الذات المتكلمة لإخفاء ما تود قوله، دون أن يعني ذلك أن هذه الذات لها مطلق السلطة على اللسان، بل على العكس من ذلك، فاللسان نظام توكيدي إثباتي وسلوك نمطي قطعي حيث يصبح اللسان تشريعا إلزاميا، ومعنى ذلك أن الفرد حينما يتكلم فإنه يفعل ذلك في حدود ما

تسمح به لغته، ومن ثم لا تظهر قدرة الفرد الإبداعية إلا من خلال قدرته على الالتزام بقوانين النسق اللغوي، وبذلك يصبح الإنسان عبدا للغة أكثر مما هو سيدها.

وعلى الرغم من كون الإنسان يعيش داخل عالم مملوء بعدد لا حصر له من الأنظمة التواصلية إلا أن اللسان يعد الأداة المثلى في التواصل لدى كل المجتمعات المعروفة، لأنه الأكثر تعبيرا عن السلوك التواصلي والفكري للإنسان؛ حيث إنه يستعمل كأداة للكشف عن أسرار الكون والسيطرة عليه، كما يستعمل لإنتاج المعرفة واستقبالها ثم تداولها بعد ذلك، وبالإضافة إلى هذا كله فإنه يعتمد كأداة لتمثيل الكون والتداول في شؤونه.

لقد حاول الإنسان منذ القديم أن يتواصل مع مختلف الكائنات الحية، بما فيها الكائنات البشرية، واتخذ من أجل ذلك عدة وسائل لعل أهمها اللسان الطبيعي. ولعلي لن أجانب الصواب إذا قلت: إن الإنسان كائن تواصلي في المقام الأول؛ فكونه اجتماعيا يفرض عليه التفاعل والتواصل، وهذا بدوره يفرض عليه البحث عن وسائل تحقق له ذلك، وقد وجد اللسان أهمّها، يقول السيوطي: "وقال الإمام فخر الدين وأتباعه: السبب في وضع الألفاظ أن الإنسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته، بل لا بد من التعاون، ولا تعاون إلا بالتعارف ولا تعارف إلا بأسباب، كحركات أو إشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد، وأيسرُها و أفيدُها وأعمُها الألفاظ. أما أنها أيسرُ فلأن الحروف كيفيات، تعرض لأصوات عارضة للهواء الخارج بالتنفس الضروري... وأما أنها أفيدُ فلأنها موجودة عند الحاجة معدومة عند عدمها. وأما أنها أعمُها، فليس يمكن أن يكون لكل شيء نقش كذات الله تعالى والعلوم، أو إليه إشارة كالغائبات، ويمكن أن يكون لكل شيء لفظ. فلما كانت الألفاظ أيسرَ وأفيدَ وأعمَ صارت موضوعة بإزاء المعاني"[1].

إن ربط اللسان بالوظيفة التواصلية لا يعني تغييبا للوظائف الأخرى بل يعني فقط أن هذه الوظيفة لها دور أساسي مقارنة مع باقي الوظائف الأخرى وذلك مرده إلى:

1- أن بعض النصوص وبالرغم من نوعية الوظيفة الأكثر بروزا فيها-الوظيفة الشعرية مثلا- فإنها لا يمكن أن تكون خالية من الوظيفة التواصلية؛

(1) السيوطي جلال الدين: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج1. ص :38.

2- أن بعض هذه الوظائف ـ كالوظائف الثلاث التي حددها "هاليداي" والتي أخذها عنه "ياكوبسن"- ليست في نهاية المطاف سوى المقومات الثلاثة لعملية التواصل إذ لا يمكن حصوله في حالة غياب إحدى هذه الوظائف[1].

وقصد تحقيق التواصل بواسطة اللسان الطبيعي، يعتمد أفراد العشيرة اللغوية على مجموعة من الوحدات اللسانية المختلفة والمتكاملة وهي: الكلمة (*mot*)، والمركب (*Syntagme*) والجملة (*phrase*)، والنص (*texte*)، وهذه الوحدات يجمعها أحمد المتوكل تحت مصطلح "خطاب" (*Discours*) وهو في تصوره: "كل ملفوظ/ مكتوب يشكل وحدة تواصلية تامة"[2]. وهذا يعني أن كل وحدة من الوحدات السالفة الذكر، متى شكلت وحدة تواصلية تامة اعتبرت خطابا، وتسمى هذه الوحدات بالمقولات الخطابية، التي تأخذ السلمية التالية: نص>جملة>مركب> كلمة[3].

2- أنساق التواصل:

الأصل أن يكون الغرض الأساس من كل مجهود فكري أو عضلي يبذله الإنسان هو تحسين حياته وحياة الآخرين وتغييرها نحو الأحسن. وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكننا فهم الإنسان إلا بفهم كل ما يسبح في عالمه من منتوج ثقافي: أدب، وفلسفة، وطب، ونحت، وموسيقى... وقد أشار الأستاذ عبد السلام عشير إلى مثل ذلك حيث قال: إن الإنسان لا يفكر، أو يتفلسف، أو يكتب أدبا أو غيره بمعزل عن العالم. إنه في تواصل فعّال مع محيطه الخارجي، وما يحتويه من مؤثرات، ومحفزات، وإكراهات، ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كآلية رئيسية في تشكيل الخطاب لتحقيق تواصل مميز ومثمر بين الناس[4].

(1) المتوكل، أحمد (1995): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية. البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي. دار الأمان. ص: 14.

(2) المتوكل أحمد (2003) : الوظيفة بين الكلمة والسمطية. دار الأمان للنشر والتوزيع.ص: 22.

(3) المرجع نفسه. ص: 23.

(4) عبد السلام عشير (2000): إشكالات التواصل والحجاج مقاربة تداولية معرفية. بحث لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات التداولية. كلية الآداب ظهر المهراز فاس. ص:12.

وإذا كان هذا الزخم الفكري يتم بواسطة العلامات – وخاصة العلامات اللسانية- التي تعتبر بمثابة خزان للحضارة الإنسانية، فإن دراسة هذه العلامات من شأنها أن تجعلنا نفهم جزء من عالم الإنسان.

وقد اهتمت السميائيات، كـ نظرية خاصة بالمعنى وليس مجرد رصد لعلامات معزولة[1]، بشتى أنواع العلامات، التي تنقسم إلى قسمين كبيرين هما:

1- **أنساق العلامات الطبيعية**: وهي أنساق غير مؤسساتية وغير اصطلاحية إلا أن الإنسان يخضعها للثقافة ويحملها دلالات مخصوصة.

2- **أنساق العلامات غير الطبيعية**: ويقصد بها تلك الأنساق المؤسساتية الاصطلاحية التي تكون نتاجا لعمل الإنسان. وينقسم هذا النوع الثاني بدوره إلى:

ا- أنساق العلامات اللفظية: وهي تلك الأنساق التي تتم عبر ألفاظ منطوقة أو مكتوبة، أي يكون الجانب الدال فيها لفظا.

ب- أنساق العلامات الاصطلاحية غير اللفظية: وهي تلك الأنساق التي لا تعتمد على الصوت، أي لا يكون فيها الدال لفظا[2].

وعلى الرغم من أن اللسان هو الأداة التواصلية الأساسية في التواصل الإنساني[3]، فإن الإنسان غالبا ما يضطر إلى استعمال وسائل أخرى تظل غير مباشرة، كحركة اليدين وتعابير الوجه... ومرد ذلك إلى أن الكلمة قد تضلل أحيانا أكثر مما تفصح، كما أن الكلام لا يوصل أحيانا ما يرغب الإنسان في التعبير عنه، ولذلك يضطر إلى استعمال أنساق أخرى غير لفظية تحمل دلالات نفسية، واجتماعية، وثقافية[4].

ولذلك فإن النظريات التواصلية الحديثة تحاول الانفتاح على مجموعة من المعطيات التي تتجاوز النقل الحرفي للمعلومة أو الخبر إلى البحث في الخلفيات المعرفية والمقامية التي

(1) سعيد بنكراد (2003): السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ص: 37.

(2) مبارك حنون (1987): دروس في السميائيات. دار توبقال للنشر، ص :22.

(3) E. Sapir (1968): Linguistique. Tr. Français. Ed minuit. P : 92

(4) مصطفى حجازي(1990): مرجع سابق ص: 105.

تحكم التواصل التفاعلي الإيجابي بين أطراف الحوار وهي معطيات تداولية تؤثث الفضاء التواصلي بمختلف العوامل: المعرفية والسياقية، والمقامية، والنفسية، والاعتقادية...

يؤكد ما سبق ذكره، أن الإنسان يتواصل عبر شبكة من أنساق العلامات في حياته اليومية والفكرية والاجتماعية، وهذا يعني: أن حياتنا محصورة داخل شبكات من العلامات تشكلنا إلى الدرجة التي تجعل إلغاء علامة ما يخل بتوازن المجتمع والفرد معا. ويبدو كأن هذه العلامات تتوالد وتتكاثر بفعل ضرورة داخلية تتجاوب- فيما يظهر- مع ضرورة نابعة من نظامنا العقلي[1]. وتستمد هذه العلامات أو الأشكال الرمزية قيمتها التعبيرية من الثقافة، يقول سعيد بنكراد: إن كل ما تضعه الثقافة بين أيدينا في الأصل والاشتغال علامات تخبر عن هذه الثقافة وتكشف عن هويتها. فالضحك والبكاء والفرح واللباس [...] كلها علامات نستند إليها في التواصل مع محيطنا[2]، ولذلك فهذه الأشكال الرمزية تقوم بدور الوساطة *(médiation)* بين الوعي والوجود الذي يصبح به الواقع (المعطى) حقيقة، أي بين الإنسان وعالمه الخارجي. ويضيف قائلا: فالتوسط بين الإنسان وعالمه حالة مسلم بها، ولا يمكن للإنسان أن يعي ذاته ومحيطه خارج الأشكال الرمزية التي تصوغ مجمل حالات إدراكه[3].

ونظرا لكون التواصل الإنساني متعدد القنوات، فسأحاول تناول بعض أنساق التواصل غير اللسانية بشكل مختصر، ثم أتطرق لاحقا للعلاقة الرابطة بين النسق اللساني وباقي الأنساق التواصلية الأخرى لكي نبين في الأخير أن هذه الأشكال مهما بلغت قوتها التعبيرية فإنها تفتقر دوما إلى نسق اللسان.

(1) إميل بنفنيست: سميولوجيا اللغة ترجمة سيزا قاسم(1987) .ضمن كتاب: مدخل إلى السيموطيقا: سيزا قاسم- نصر أبو زيد ج 2 ط2 ص : 16.

(2) سعيد بنكراد (2003) : مرجع سابق ص : 18.

(3) المرجع نفسه. ص :35.

2-1 النسق الشمي: *(système olfactif)*

يعتمد الإنسان في تواصله اليومي على حاسة الشم التي تقوم بدور هام في عملية التواصل التي تتم عن طريق الروائح

والجدير بالذكر، أن عددا كبيرا من مجالات التواصل تعتمد في اشتغالها على قدرة الإنسان الطبيعية على شم الروائح المختلفة التي يلتقطها لتصنيفها، ومعرفتها، ومنحها دلالة اجتماعية، واقتصادية، وإيديولوجية ثقافية معينة.

إن أهمية هذه الحاسة تكمن في تحديد نوعية العلاقات بين الكائنات البشرية؛ فعن طريق حاسة الشم يميز الإنسان في الروائح بين ما هو طبيعي (عرق)، وما هو اصطناعي (عطور)، كما يميز بين الرجل والمرأة، وبين الجسد الحي والجثة ...والروائح بهذا المعنى وسيلة للتصنيف الاجتماعي مثلها في ذلك مثل اللسان.

وبواسطة التصنيف الثقافي للروائح، عمل الإنسان منذ القدم على رفض كل الروائح الأصلية والطبيعية (الروائح الإفرازية، رائحة العرق..)، وابتكر في مقابل ذلك العطر الذي يعمل على إزاحة الرائحة الطبيعية للكائن البشري[1].

وبذلك تتحول حاسة الشم عن وظيفتها البدائية في التواصل، لأنها تعد إحدى الوسائل التي يعتمد عليها الطفل في التعرف على جسده أولا ثم على أمه والعالم المحيط به عن طريق الرائحة،إلى أداة للتمييز والتصنيف في المجتمع، ولذلك فالمرأة المضمخة بعطر عالي الجودة تستثير حاسة الشم عند الرجل الذي يتبعها فيهديها وردة، أو يعرض عليها الزواج أو...[2].

وتشكل هذه الحاسة وسيلة للتمييز لدى عدد من الحيوانات التي تتخذ الرائحة للتعبير عن رغبتها الجنسية أو التعرف على شريكها أو البحث على الفريسة عن طريق الشم. وتعتمد الشرطة على هذه القدرة التمييزية للكلاب مثلا للبحث عن المجرمين.

(1) برنار توسان: ما هي السميولوجيا. ترجمة محمد نظيف (1994) افريقيا الشرق ص:21.

(2) سعيد بكراد (2003) ص 20.

إن الدلالات المختلفة التي تأخذها العطور كعلامات تكون تابعة من الحقل الثقافي لكل عشيرة بشرية، والتي تعمل على تسنين الأنساق المختلفة تسنينا ثقافيا واجتماعيا. وبذلك تشتغل العطور كأقنعة ثقافية ناتجة عن التمثيل الاجتماعي والثقافي للرائحة.

2-2 النسق اللمسي: *(Système Tactile)*:

يعتمد هذا النسق على حاسة اللمس كجهاز للاستقبال، ويعد نظام الكتابة عند المكفوفين (براي *(Braille)* نموذجا لهذا النسق؛ حيث إن هذه الكتابة تعتمد على حروف مكونة من نقط بارزة تستقبل عن طريق اللمس. وهي بذلك، تعوض حاسة البصر في القراءة.

يعد اللمس -كما هي الحال بالنسبة للنسق الشمي- من الآليات التي يعتمدها الطفل للتعرف على نفسه وعلى أمه والعالم الخارجي المحيط به: كالإحساس بالرطوبة والبرودة والحرارة.. يقول برنار توسان: "الرائحة هي أخيرا معرفة الجنسين والرائحة لا توجد إلا كرائحة للجنس، العالم اللمسي يرتبط بعالم الجنس بواسطة المداعبات، وهو نظام سيميولوجي معقد وخالص في قانون العلاقات الغرامية"[1].

يستفاد من هذا أن المجال التواصلي اللمسي يشبه المجال التواصلي الشمي في انبثاق قواعدهما عن دلالة جنسية قوية؛ ذلك أن الاتصال الجنسي غالبا ما يبدأ بمداعبات وقبلات... وكل ما يدخل ضمن المجال الحركي للمس المكون للقوانين الدالة المتممة للطقس الغرامي وكل ما ينتمي إلى ما يسمى بالتمثيل الرمزي للاتصال الجنسي بتعبير برنار توسان.

وبهذا المعنى يخرج اللمس عن وظيفته الأساسية (الطبيعية) إلى وظائف أخرى إيديولوجية وثقافية مرتبطة بالحقل الثقافي الخلفي لكل مجتمع.

(1) برنار توسان: ما هي السميولوجيا . مرجع سابق ، ص: 24.

2-3 النسق الذوقي: *(Système gustatif)*.

يقوم الذوق بدور هام في مجال التواصل الإنساني والحيواني على حد سواء. ومادام أن هذا النوع من التواصل يتم في الأصل عن طريق الفم وخاصة الشفاه واللسان؛ فحاسة الذوق عند الإنسان والحيوان واحدة، إذ هي الحاسة التي ندرك بها الأطعمة المختلفة ونميز بعضها عن بعض. وهي بذلك قوة طبيعية يصنف بها الكائن الحي الأطعمة إلى طيبة وقبيحة...

فالطفل الرضيع مثلا يحس بنوع من الدفء وذوق حليب الأم عن طريق اللمس الفموي المباشر لثدي الأم، إذن فالأصل في هذا النسق أنه غريزة فموية. إن الذوق بهذا المعنى: "شكل من المعرفة المباشرة أو التلقائية التي تضمن للحيوان، وللإنسان، قدرا من الإدراك لمحيطه، والتعرف عليه، أي التكيف معه"[1].

ونظرا لكون الإنسان كائنا ثقافيا بامتياز، فإن الذوق سيتطور عنده إلى درجة يصبح فيها معيارا للتصنيف والتمييز بين ثقافة وأخرى، ولمعرفة نسبة التطور من مجتمع إلى آخر؛ وذلك بحسب اختلاف الأذواق في المسكن والمطبخ والصناعة والفن...

إن حاسة الذوق إذن تجعل الإنسان ينتقل من الطبيعة إلى الثقافة؛ فقد أصبحنا نميز في الأكل مثلا بين الأكلة العصرية والأكلة التقليدية، وبالتالي بين الإنسان العصري المتحضر والإنسان التقليدي، وبذلك أصبح الذوق أداة للتصنيف شأنه في ذلك شأن اللسان.

لقد تحول الذوق من الناحية الثقافية إلى: "ملكة للحكم على الجميل، والقدرة التي تكونت لدينا لإدراك ما هو جميل، للإحساس به وتمييزه عن القبيح"[2]؛ فعن طريق هذه الملكة نستطيع الحكم على الأشياء، والأفكار في العالم: الروائح، والأطعمة، والمنتوجات... بالجمال أو القبح في جميع الحالات وفي جميع الثقافات والحقب.

إن تاريخ الذواقة، كما يقول برنار توسان، هو تاريخ لتطور الإنسان نحو الثقافة والتكنولوجيا، بدء من اعتماده على الأدوات البدائية إلى الإلكترونية. وتحرر بذلك من

(1) الميلودي شغموم(1999أ): تمجيد الذوق والوجدان ط1. دار الثقافة، مؤسسة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ص:5.
(2) المرجع نفسه ص: 6.

ارتباطه الأصلي بالفم ليشمل كل الذات. يقول الميلودي شغموم: "إن الذوق نتاج الثقافة أي تربية خاصة عندما نحصره في المجال الفني فقط، إنه تقوية وتهذيب لحواسنا وخاصة السمع والبصر. وفي هذه الحالة فإنه يتحرر من ارتباطه الأصلي بالفم واللسان ليشمل كل الحواس بل كل الذات"[1].

2-4 النسق الإيمائي: *(système kinésique)*

سبقت الإشارة إلى أن العملية التواصلية يمكن أن تتم بطرق أخرى غير الكلام، كالحركات (*gestes*) والإيماءات (*kinésiques*)؛ فعندما لا نستطيع أن نعبر عن كل ما يخالجنا من مشاعر وأحاسيس ... نلتجئ إلى اعتماد الإيماءات والإشارات التي ترفع عنا الحرج، إذ تتدخل كبديل عن الكلام الذي يدخل في الطابوهات الاجتماعية (*tabous*): أي ما يحرم قوله بالألفاظ بحكم الأخلاق والتقاليد السائدة، ومثال ذلك الإيماءات التي ترمز للاتصال الجنسي والعادة السرية... وكل ما له علاقة بالجنس.

ولذلك وجه السميائيون اهتمامهم نحو دارسة الطقوس بوصفها سلوكا دالا ووسيلة من وسائل الاتصال غير اللساني الذي يدخل ضمن ما يسمى بالاتصال الحركي-الإيمائي، الذي يضطلع بدور هام في الحياة الاجتماعية للأفراد. إن هذه الحركات عبارة عن أقنعة إيديولوجية حيث إن هذه الإشارات تعمل على حجب وكتمان الكلمات التي تخضع للرقابة الاجتماعية تحت إشارات تعوضها وتأخذ وظيفتها الدلالية"[2].

وغالبا ما يمزج الإنسان بين الملفوظ اللساني والحركات الإيمائية، وهنا تتجلى الروابط الوثيقة بين اللسان والحركات الإشارية لدرجة أننا في غالب الأحيان لا نستطيع الفصل بينهما عند ما يصدران عن ذات واحدة. وهنا تتضح علاقة الارتباط بين الاستعمال الاجتماعي للسان والاستعمال الاجتماعي للجسد يقول إدوارد طوماس هال (*E. T*

(1) المرجع نفسه ص: 6.
(2) برنار توسان: مرجع سابق ص :27.

Halle): الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين لا يتكلمون لغتين مختلفتين فحسب، بل يسكنون عوالم حسية مختلفة"[1].

كما يظهر دور الحركات في الحالات التي يصعب فيها التواصل مع طرف نجهل عبارات لغته، فنضطر إلى الإشارة إلى ما نود التعبير عنه بواسطة الإيماءات حتى نستطيع ربط الاتصال معه. ونحن بذلك، كما يقول برنار توسان نؤسس لغة عالمية.

تمتلك كل ثقافة أنماطا معينة من الإشارات والحركات... المرتبطة بالمجال الشعائري والعقائدي: كالحركات المتعلقة بالصلاة، واحتفالات الزواج وحركات الاستقبال؛ فالصيني مثلا ينحني أمام سيده تسع مرات للدلالة على الاحترام والطاعة... إلى غير ذلك من الحركات المستنة.

إن الدلالات المختلفة التي تأخذها هذه الحركات ليست مولدة من هذه الحركات ذاتها بل هي خاضعة للتسنين الثقافي الذي يمكننا من فهم ابتسامة خجلى ونظرة متوسلة ونظرة جريئة... إن للعين علاقة بالوجه وهو المدخل الرئيسي لاكتشاف كل الانفعالات الممكنة ولذلك فبالإضافة إلى الجانب النفعي للعين (الإبصار) هناك مناطق للنفوذ لا يستطيع أحد تحديد حجمها كما يقول بنكراد؛ لأن الإنسان يمنح للعين الكثير من المضامين عبر التسنين الثقافي الذي يحول سلوك العين من سلوك طبيعي إلى سلوك سيميائي (الغمز مثلا) نتيجة للتواطؤ مع الآخرين. وقد أبدع الشعراء والأدباء في وصف لغة العيون والنظرات حيث أصبحت العين عندهم تقتل، وترفض، وتجرح، وتحيي... إضافة إلى وظيفتها الطبيعية وهي الإبصار فأصبحنا بذلك: نتحدث عن العيون التي تبرق فرحا، والنظرة المتفائلة، والنظرة الباردة النابذة، والنظرة الخجولة والنظرة المستحيلة، والنظرة المتحدية، والنظرة الآثمة، والنظرة العاجزة المتوسلة، والنظرة الحافية، والنظرة المتلهفة المنادية، والنظرة التي تجذب وتقرب، والنظرة التي تبعد وتصد..."[2].

(1) نقلا عن سعيد بنكراد (2003) ص: 91.
(2) مصطفى حجازي (1990): مرجع سابق ص: 106.

ومن ذلك أيضا حركة اليدين والقدمين، وكيفية الجلوس واستجماع الأطراف في حالة الانتباه. أو التراخي على المقعد في حالة عدم الاهتمام وكثرة الحركة والوقوف والجلوس في حالة الملل والضيق...

معنى ما سبق أن الإنسان يخضع خلال حياته اليومية لركام من الرسائل التي لا تجسد قصدية مباشرة.

2-5 النسق السمعي(اللفظي): *(système auditif)*:

يعتمد النسق السمعي على حاسة السمع كأداة للاستقبال. ويعد اللسان الطبيعي من أهم الوسائط المعتمدة للتواصل بهذا النسق. ويضم أيضا لغة الطبول ولغة الصفير... وتنقسم أنساق التواصل السمعي إلى ثلاثة أصناف:

أ- **الأصوات الفظة** *(Sauvages)*: التي تنفلت من التصنيف اللساني ويطلق عليها اسم الفونيم الجامع *(archiphonèmes)*، وهي لا تعني في ذاتها شيئا ولكنها تحمل دلالة معنية؛ كالقهقهة والأصوات المحاكية *(Onomatopées)*.

ب- **الأصوات الطبيعية** *(Naturel)*: وسميت طبيعية لتميزها عن الأصوات التي يكون مرجعها ثقافيا كالموسيقى. ويشكل هذا النوع حقلا تواصليا سمعيا، له أهمية بالغة في الحياة اليومية؛ ومثال ذلك صوت الثور الذي يعلن عن حضوره، وضوضاء الزجاج المكسر.. وقد تتحول هذه الأصوات من الطبيعية إلى الثقافية عبر تسجيلها.

ج- **الأصوات الثقافية** *(culturel)*: وهي الأصوات التي ينجزها الإنسان بأهداف تواصلية مختلفة وتمثل الموسيقى أحسنها، ومرجع الموسيقى مرجع ثقافي بامتياز. وللنسق السمعي علاقة بما يسمى بالنسق السمعي البصري الذي يتخذ السمع والبصر أداتين للاستقبال؛ ومثال ذلك: التلفاز، السينما ....[1].

(1) برنار توسان: مرجع سابق، ص:29.

2-6 النسق الأيقوني (*Système Iconique*):

يسمي ش. س. بورس" Ch.S .Peirce أيقونا كل أنظمة التمثيل القياسية المتميزة عن الأنظمة اللسانية[1]. وإذا كانت الدلالة لا تكترث للمادة الحاملة لها[2] فإنه بإمكاننا الحديث عن الدلالة من خلال الصورة التي تمكن الإنسان، بفعل الثقافة، من إعطائها دلالات معينة، وذلك لأن الصورة لا تتحدث أبدا عن نفسها، ودلالتها تفوق شكلها التعبيري[3].

إن دلالة الصورة بهذا المعنى لا تأتي من الصورة ذاتها، أو بمعنى آخر، إن دلالتها ليست معطى جاهزا، بل يتم توليدها من خلال الأنساق المبنية التي تقوم باستعادة القيم الدلالية المحصل عليها من خلال الممارسة الإنسانية ذاتها[4]، أي أنها مرتبطة بالمعرفة السابقة التي يوفرها التسنين الثقافي، والاستعمال الإنساني الذي أودعها قيما للدلالة والتواصل والتمثيل.

3- علاقة التواصل اللساني بالأنساق التواصلية الأخرى:

يتبين - من خلال ما سبق- أن عملية التواصل الإنساني تتم عبر الألفاظ والإشارات بل وبما يسميه Halle "اللغة الصامتة (*Le langage silencieux*)... إلا أن ما ينبغي التنبيه إليه هو أن اللسان يعد أداة التواصل المثلى لكل المجتمعات البشرية؛ حيث إن أية رسالة لا يمكنها الوصول بوضوح ودقة -نسبيين- إلا بمرورها من التعبير غير المباشر (إشارات المرور مثلا) إلى التعبير المباشر وذلك عن طريق نطقنا بالعبارات التي تعبر عن ذلك. ولذلك يمكن اعتباره "الشكل التواصلي الأكثر وضوحا"[5].

هذا بالرغم من أن الفرد أثناء تواصله مع الآخرين يضطر إلى استعمال وسائل أخرى تظل غير مباشرة كالحركات، وتعابير الوجه... إذ غالبا ما تضلل الكلمة المتلقي أكثر

(1) برنار توسان: مرجع سابق. ص :29.
(2) سعيد بنكراد(2000): المعنى بين التعددية والتأويل الأحادي. ضمن مجلة علامات، عدد 13 ص: 10.
(3) برنار توسان : مرجع سابق ص : 32.
(4) سعيد بنكراد (2003) ص: 77.
(5) إلفار هولتشاين رومان ياكبسون أوالبنيوية الظاهرية. مرجع سابق. ص: 143.

مما تقوده إلى المعنى، كما أن الكلام لا يوصل دوما ما يقصده المتكلم لأنه، أي الكلام، قد يكون أداة للتمويه والستر أحيانا.

وقد ذهب إميل بنفنست إلى أن اللسان هو النسق السيميوطيقي المفسر لجميع الأنساق الأخرى؛ حيث إننا لا نستطيع أن نتحدث عن أي نسق سيميائي إلا من خلال نسق اللسان الطبيعي. كما أن دلالة أي نسق لا تأتي إلا بترجمة علاماته إلى علامات الألسنة الطبيعية، يقول إ- بنفنست: "إن اللسان هو مؤول كل الأنساق اللسانية وغير اللسانية"[1]. ويضيف قائلا: "إن النسق اللساني هو أهم نسق بين أنساق التعبير الأخرى، لأنه يحتل مكانة كبيرة في المجتمع أكثر من أي نسق آخر"[2].

أن النسق اللساني هو النسق الذي يمكنه أن يترجم بألفاظه الخاصة الرسائل التي تبعث بها الأنساق الأخرى بشكل أفضل من هذه الأنساق ذاتها بينما العكس ليس صحيحا. يقول: "إذا رمزنا إلى مجموع الأنساق ب (S)، وإلى نسق اللسان ب (L) فإن المحاورة تتم دائما في الاتجاه L← S ولا يمكن أن يحدث العكس أبدا"[3].

وفيما يتعلق بعلاقة اللسان الطبيعي بالأنظمة السيميوطيقية الأخرى يذهب "رولان بارت" إلى أن اللغة تقع على قمة هرم باقي الأنساق الأخرى، ولذلك فقد اعتبر السيميولوجيا جزء من اللسانيات: يقول: "إن اللسانيات ليست فرعا، ولو كان مميزا، من علم العلامات، بل السيميولوجيا هي التي تشكل فرعا من اللسانيات"[4]. وذلك على عكس صوسير الذي اعتبر اللسانيات مجرد فرع من السيميولوجيا"[5].

وهكذا، وعلى الرغم من أن العملية التواصلية يمكنها أن تتحقق بأشكال أخرى غير لسانية: حركة، ضوء، رسم... إلا أن هذه الأشكال تؤول في نهاية المطاف عن طريق النسق اللساني، وذلك أنه في غياب اللغة لا يمكن للعقل أن يشتغل، على اعتبار أنه لا وجود لفكر

(1) E .Benveniste(1974): Problèmes de linguistiques générales. V2.E. Gallimard Paris.P : 60.
(2) Ibid. P : 49
(3) Ibid. P : 54
(4) R. Barthes (1964): Eléments de Sémiologie. In communications N°4 P: 92.
(5) F. De Saussure (1972) : Cours de linguistique générale, ed. Payot . P :33.

بدون لغة ولا للغة بدون فكر. إن اللسان بهذا المعنى هو المسؤول عن تحويل الأنساق الأخرى إلى أنساق دالة: فالضوء الأخضر مثلا، في علامات المرور يقول، للسائق: "يسمح لك بالمرور"، أما الضوء الأحمر فيقول له: "يمنع عليك المرور" أو "قف"، أما الميزان المعلق على جدران المحكمة فيرمز إلى "العدالة" ويقول للقاضي: "اعدل بين الناس"، وفي مجال الألوان فإن اللون الأبيض أو الأسود عندما ترتديه امرأة توفي بعلها فهو يدل على أنها في حداد" ولذلك كله اعتبر "موسيرّ" اللسان أرقى الأنساق الأخرى[1].

وبهذا المعنى فإن اللسان وحده يستطيع أن يكون أداة للتواصل وأداة واصفة في الآن نفسه (*Méta – langage*). وهو بذلك، الأداة الوحيدة لفهم باقي الأنساق وتأويلها؛ فنحن مثلا لا نستطيع أن نتحدث عن الموسيقى من خلال خطاب مشتق من النوتات الموسيقية، تماما كما لا يمكننا أن نشرح الصورة بالصورة ولا فهم اللوحة من خلال خطاب آخر غير خطاب الكلمات المؤولة لعناصر اللوحة[2].

(1) Ibid P : 33.

(2) سعيد بكراد (2003)، ص: 42.

الباب الثاني

العناصر الموازية لسانيا والخارج لسانية والكفاية التواصلية المطلوبة في المحاورة

الفصل الأول

تقنيات التعبير الكتابي والشفهي

1- لماذا الحديث عن تقنيات التعبير والتواصل؟

طورت البشرية عبر تاريخها الطويل إمكانات متباينة ومتعددة لتخزين الإنجازات المعرفية وتعميمها تبعا لتطورها الحضاري. ويمكن في هذا الصدد التمييز بين المراحل التالية:

- مرحلة هيمنة قناة التواصل الشفهي: وهي مرحلة الرواية؛ أي المرحلة التي كانت فيها الأمم تعتمد على الرواية في نقل أشعارها وأمثالها...
- مرحلة هيمنة قناة التواصل الكتابي: وهي ما يعرف بمرحلة التدوين؛ إذ اعتمد الإنسان في عملية التخزين والتعميم على الكتابة.
- مرحلة هيمنة قناة التواصل الكتابي الطباعي: حيث أصبح من الممكن تعميم المعارف بالكتاب والصحف والمجلات والجرائد...
- مرحلة هيمنة قناة التواصل السمعي البصري: حيث مكنت الثورة التكنولوجية، التي شهدها القرن الماضي، البشرية من تخزين المعلومات وتعميمها اعتمادا على أجهزة إلكترونية بأحجام صغيرة.

ومع تطور وسائل الاتصال، منذ العقد الأخير من القرن الماضي، بظهور الهاتف النقال والبارابول والإنترنيت... ظهر علم جديد عرف بـ"تقنيات التعبير والتواصل" وكانت الغاية منه مواكبة مختلف التحولات التي تشهدها الحضارة البشرية على الأصعدة المختلفة: السياسية والاقتصادية والتكنولوجية...

إن التعرف على مختلف التقنيات المعتمدة في التعبير والتواصل، بشكليه الشفهي والكتابي، وضبطها كفيل بتمكين المجتمع البشري من ربط أواصر الحوار الفعّال، وتجنب كل أشكال العنف التي من شأنها أن تعيق عملية التواصل والتفاهم.

كما أن التمكن من هذه التقنيات من شأنه أن يُربّي في أطراف الحوار روح الحوار والمناقشة والمقارعة بالحجة... وكل الأساليب التي ستخدم الفرد والمجتمع على حد سواء.

فهذه التقنيات تعلمنا كيف نتوجه بالحديث إلى الآخر من جهة، كما أنها تعلمنا أدب الإنصات إليه من جهة أخرى.

وقبل أن أركز انشغالي في استعراض مختلف تقنيات التعبير الشفهي الموظفة في المحاورة التي تعد محور هذا البحث، ارتأيت من المفيد جدا أن أبدأ بذكر بعض تقنيات التعبير الكتابي ودورها في العملية التواصلية ولو بشكل مقتضب. ثم أنتقل بعد ذلك إلى ذكر مختلف تقنيات التعبير الشفهي بشكل عام لأنتهي بتفصيل القول في المحاورة.

2- بعض مظاهر الاختلاف بين التواصل الشفهي و التواصل الكتابي:

يعد التواصل اللفظي الشكل الأولي للتواصل، وهو عبارة عن مسار وسيرورة اجتماعية. ويتحقق هذا النسق التواصلي عن طريق تبادل ملفوظات تلائم النظام الصوتي للسان المعتمد أثناء التعبير. وغالبا ما يكون هذا التواصل اللفظي في حاجة إلى مساندة أنساق تواصلية أخرى كالإيماءات... ومختلف الأنساق الأخرى (تم تناولها بتفصيل في الفصل الثاني من الباب الأول) التي تعد دعامة أساس لهذا النسق التواصلي. أضف إلى ذلك الدور الهام للحيزين الزمني والمكاني. ومعنى ذلك أن الفصل بين التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي، من الناحية العملية والواقعية، يعد من الأمور الصعبة جدا كما سيتبين لاحقا، لأن التواصل يعد كلا غير قابل للتجزيء.

وقد كان لعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيا، أمثال: إدوارد سابير و ديل هايمز وغيرهما، فضل السبق إلى دراسة الشكل المنطوق للغة دراسة جادة وأكّدوا على أهميتها الاجتماعية التي تتجلى في خلق التفاعل الاجتماعي.

ولا يخفى عن أحد، أن الكلام يعد جانبا أساسيا من جوانب التفاعل الاجتماعي اليومي، حيث إنه يُمكّننا من اكتشاف الخبرات المشتركة بين أفراد المجتمع ودراستها، كما يساعدنا أيضا على دراسة طرقهم ومناهجهم التواصلية في الحياة اليومية، وما تشير إليه من خصائص عقلانية وأخلاقية تمكنهم من تحقيق تواصل تفاعلي فيما بينهم.

إن اللغة بهذا المنظور بمثابة وسيط لإنجاز أفعال اجتماعية علمية وعملية، وهي بذلك وسيلة لتشكيل الواقع الاجتماعي. ولذلك تم تغيير تلك النظرة التي جعلت من اللغة نسقا مستقلا عن منتجه وخارجا عنه. وهنا يُسَجَّل للتداولية اهتمامها الخاص بلغة الحياة اليومية، كما يُسجل لها أيضا مساهمتها، إلى جانب علم الاجتماع (*Sociologie*) وعلم اللهجات (*Dialectologie*) في النهضة الكبرى التي شهدتها الدراسات التي تعنى باللغة المنطوقة، والتواصل اللفظي وخاصة المحاورة.

وقد أوجز (*S.Moscovici*) مظاهر الاختلاف والتمايز بين التعبير الشفهي والكتابي كما يلي:

1- إن الطاقات العضلية العصبية المبذولة خلال الكتابة هي طاقات أهم من تلك المبذولة خلال الكلام.

2- تفترض التبادلات الشفهية وجود الآخر، في حين تتوجه التبادلات الكتابية إلى شخص غائب. لذا فإن الإشارات الحركية وإيماءات الوجه التي تستخدم في الحالة الأولى هي إشارات وإيماءات لا يمكن استخدامها في الحالة الثانية...

3- الإرسال الشفهي إرسال متواتر و مألوف ومستمر، أما الإرسال الكتابي فنادر أكثر ومتقطع أكثر إذ تقتضي الكتابة تعمدا أكبر للقيام بها، وجهودا أعظم للتكيف مع موقف مقيد نسبيا.

4- يُضفَى على كل مَوقِفِ إرسالٍ، شفهي أو كتابي، معنى اجتماعي خاص يوجِّه بدوره سلوك القائمين بالإرسال أو التلقي، فالقيمة الاجتماعية التي تُضفَى على التعبير الكتابي، غير المألوفة عموما، تعمم على صورة خصائص مميزة للرسائل الناتجة عن هذا النمط من التعبير. وهذه القيمة هي قيد مفروض على المرسل، يُسهِم في توجيه سلوكه[1].

(1) نقلا عن كمال بكداش: التعبير الشفهي والتعبير الكتابي. ضمن مجلة الفكر العربي. عدد مزدوج 8-9 . السنة: 1979. ص. ص: 29-30.

ومن الخصائص الخلافية أيضا بين التعبير الكتابي والتعبير الشفهي، والتي عملت مجموعة من الأعمال التي تنتمي إلى مجال علم النفس التجريبي على إبرازها، ما يلي:

1- إن التعبير الكتابي يحرص على أن يكون أفضل إعدادا من الوجهة النحوية، وأقل إطنابا في مفرداته، وأكثر تواترا بالأسماء. في حين أن التعبير الشفهي يميل في الغالب إلى الإطناب، وإلى استخدام الأفعال بنسب مهمة، أما من الوجهة الصورية فهو أقل إعدادا.

2- يمتاز التعبير الشفهي بحجم أكبر لإرساله اللغوي من التعبير الكتابي، من حيث المعدل المتوسط لعدد الكلمات.

3- تتواتر التعابير المجردة، بنسبة أكبر، في التعبير الكتابي، في حين تتواتر التعابير الشائعة وغير الدقيقة بنسبة أكبر في التعبير الشفهي[1].

ومن مظاهر التمايز الأخرى بين التعبير الكتابي والشفهي، أن الكتابة تتميز عن الكلام من جهتي: الاستمرارية عبر الزمان والتنقل عبر المكان، كما كان يرى القدماء، بسبب المكانة التي كانت للكتابة في عصرهم، كما تؤكده أقوالهم مثل: "القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هدراً وأن "اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن [الهالك/ الكائن]، مثله للقائم الرّاهن" ومن ذلك أيضا قولهم "الكتاب يُقرأ بكل مكان، ويُدرَس في كل زمان؛ واللسان لا يعدو سامعَه، ولا يتجاوزه إلى غيره[2]". وإذا كانت الكتابة تتمتع بتينك الميزتين، فقد تم تجاوز ذلك بفضل التقدم العلمي الذي سلب اللغة المكتوبة هاتين الميزتين بعد اختراع أجهزة التسجيل المختلفة والإذاعة والتلفاز، بل إن التلفاز يزيد على عملية حفظ النص بنغمته، الاحتفاظ بتعبيرات الملامح وحركات أجزاء الجسم.

(1) المرجع نفسه. ص: 31.

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :. البيان والتبيين: تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. دار الجيل بيروت. ج 1. ص. ص: 79-80.

أضف إلى ذلك كله عجز اللغة المكتوبة عن تقديم تمثيل دقيق للغة المنطوقة، إذ غالبا ما تظل الأولى عاجزة عن تقديم تمثيل فونولوجي أمين لكثير من الظواهر الصوتية ومثال ذلك: ما لا يُلفظُ من الأحرف المُدغمة والمُنقلبة من قبيل:

- النون والتنوين المُدغمان: (مَنْ يَّعْمَلْ- عذاباً مُّهيناً).
- النون المنقلبة ميما: (من بَعْدُ (مِمْبَعد))
- الحرف المُدغم إدغاما متجانسا: (أثَّاقَلْتُمْ دَعَوا- لَقَد تَّقَطَّعَ).
- الحرف المُدغم إدغاما متقاربا: (قُل رَّبِّ- نَخْلُقكُّم).

وعلاوة على ذلك توجد بعض القرائن غير اللفظية المصاحبة لعملية التلفظ مثل الحركات وتعابير الوجه...التي تعمل لغة الرواة، والمسرحيين...على محاولة وصفها عن طريق اللفظ الصريح.

ومما يزكي تميز الكلام عن الكتابة أيضا أن عددا من الدول، وخاصة الدول المتقدمة (مثل الولايات المتحدة الأمريكية) تعتمد في تدريس اللغة الأجنبية في مدارسها على المنهج المسمى بالمنهج السمعي النطقي وهو منهج "يعنى بتدريس اللغة الأجنبية أو الثانية ويقوم على أساس تعليم الكلام والاستماع قبل تعلّم القراءة والكتابة، ويستعمل الحوار والتّمرينات ولا يشجع استعمال اللغة الأم في قاعة الدرس، كما يستعمل التحليل التقابلي"[1].

ويمكن إرجاع أسباب تميز اللغة المنطوقة عن المكتوبة إلى ما يلي:

1- إن الإنسان تكلم قبل أن يكتب، ولا يزال كل منا يكتسب لغة مجتمعه ويتعلمها كلاما ونطقا قبل أن يمارسها كتابة وتدوينا.

2- توجد مجتمعات كثيرة تتكلم لغاتها ولا تكتبها، كما يوجد أفراد أميون يتكلمون اللغة ولا يكتبونها.

(1) سامي عياد حنا وكريم زكي حسام الدين و نجيب جرجس(1997): معجم اللسانيات الحديثة. ط.1. مكتبة لبنان ناشرون. ص: 10. كما يرجى العودة إلى الصفحتين 30-31 من المعجم نفسه للتعرف على المقصود بالمنهج التحليلي التقابلي).

3- يمكننا أن نحول الكلام المكتوب إلى كلام منطوق بسهولة، ولكن يصعب علينا أن نحول الكلام المنطوق إلى كلام مكتوب بالطريقة نفسها التي ينطق بها المتكلم.

4- إن الكلام يقوم بدور هام في حياتنا اليومية أكثر من الكتابة، لأن عملية التواصل والتفاهم التي تعتمد الكلام تستغرق أكثر من نصف وقت الإنسان الذي يقضيه متكلما ومستمعا[1].

ورغم ذلك كله، لا ينبغي أن ننسى التفاعل الموجود بين اللغة المكتوبة والأخرى المنطوقة من حيث الأخذ والعطاء، وهذا التفاعل طبيعي وحتمي؛ ذلك أن الكلام عبارة عن مسار يجري في الزمان، ولا شيء أكثر تلاشيا من هذه الظاهرة الاجتماعية، إذ لا يكاد يُلْفَظ به حتى يموت إن لم يستعده فكر آخر أو ذاكرة أخرى. ولذلك فنحن نعمد إلى الكتابة مثلا كي نتخذها خزانا مكانيا لهذه الظاهرة المضمحلة.

3- تقنيات التعبير و التواصل.

3 -1 بعض مظاهر التعبير الكتابي وتقنياتها.

من بين التقنيات المعتمدة في التواصل الكتابي نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

3-1-1 تدوين رؤوس الأقلام (*Prise de notes*):

إن ضبط آليات هذه التقنية سيساعدنا (أساتذة وطلبة...) على تدوين أكبر قدر ممكن مما يتم استقباله من معلومات وأفكار، على شكل رؤوس أقلام. إذ من المعلوم أن الحصول عل معلومات من درس أو عرض، أو محاضرة، أو كتاب...ليس كافيا ومفيدا وإجرائيا، إذا لم تكن هذه المعلومات منظمة ومترابطة بكيفية تُسهِّل تذكرها وتُيسِّر استغلالها. فبالإمكان مثلا عرض الأفكار التي تم جمعها بشكل منظم بطرق مختلفة من قبيل: الترسيمة القائمة على الدوائر أو عن طريق التشجير أو الجدول...

(1) الرجع نفسه: انظر مقدمة المعجم تحت عنوان: اللسانيات الحديثة: مقدمة مختصرة .

3-1-2 علامات الترقيم (*Signes de ponctuation*):

الأصل في اللغة أن تكون منطوقة. فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[1]. والكتابة ما هي إلا صدى ومحاولة لنقل المنطوق وتصويره؛ لذا ابتكر الإنسان من الوسائل ما يجعل المكتوب مقارباً للمنطوق. حيث دفعه ذاك إلى الاستعانة أحياناً بوضع علامات ورموز اصطلح عليها علامات الترقيم. وهي عبارة عن علامات اصطلاحية، الهدف منها الفصل بين الجمل وتقسيمها بشكل يساعد القارئ - عند النظر إليها - على تنويع نبرة الصوت بما يناسب كل مقام من مقامات الفصل والوصل أو الابتداء. كما تساعد هذه العلامات كذلك على تبيُّن الفرق - في ملفوظ معين - بين التعجب و الاستفهام ومجرد الإخبار، ونحو ذلك من الأساليب التي تقتضيها طبيعة المقال[2].

ولأن المقام لا يسمح بتفصيل القول في هذه العلامات فسأكتفي بذكرها بشكل مختصر على الشكل التالي: الفاصلة، والفاصلة المنقوطة، والنقطة، ونقطتا التفسير، وعلامة الاستفهام، وعلامة التعجب، والمزدوجتان، والقوسان، والعارضة، والعارضتان، والمعقوفان، ونقط الحذف.

ويمكن توضيح أهمية بعض هذه العلامات من خلال الأمثلة التالية:

1- الجو ممطر.

2- الجو ممطر؟

3- الجو ممطر!

(1) ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار.ط2 دار الهدى للطباعة والنشر. ج1. ص:33.

(2) تقوم بعض القرائن اللفظية كالنبر والتنغيم... بدور أساسي في التعبير الشفهي يشبه دور علامات الترقيم في التعبير الكتابي . وهو ما أكده أحمد زكي باشا بقوله: "دلت المشاهدة وعززها الاختبار على أن السامع و القارئ يكونان على الدوام في أشد الاحتياج إلى نبرات خاصة في الصوت أو رموز مرقومة في الكتابة، يحصل بها تسهيل الفهم والإدراك، عند سماع الكلام أو قراءة المكتوب". أحمد زكي باشا(1912): الترقيم وعلاماته في اللغة العربية. قدّم له واعتنى بنشره عبد الفتاح أبو غُدّة. الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب. ص: 3. وهو الشيء نفسه الذي أشار إليه تمام حسان بقوله: "والتنغيم في الكلام يقوم بوظيفة الترقيم في الكتابة غير أن التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة. وربما كان ذلك لأن ما يستعمله التنغيم من نغمات أكثر مما يستعمله الترقيم من علامات كالنقطة والفاصلة والشرطة وعلامة الاستفهام وعلامة التأثر وربما كان ذلك لسبب آخر". - تمام حسان(1994): اللغة العربية معناها ومبناها. الشركة الجديدة دار الثقافة. ص.ص:226-227.

فلو تم حذف علامات الترقيم (؟!.) من هذه الملفوظات لكانت متشابهة من حيث الغرض من التلفظ بها. ولكن حضور هذه العلامات يمكننا بالفعل من التمييز بين مقاصد ثلاثة للمرسل كلما كتب ملفوظ من هذه الملفوظات. وهكذا فغرضه في المثال الأول هو مجرد الإخبار. هذا مع العلم أن هذا الملفوظ يمكن أن يَقصد به المرسل أمورا أخرى تتجاوز مجرد الإخبار إلى مقاصد أخرى يحددها مقام التلفظ. أما المثال الثاني فإنا أمام ملفوظ استفهامي يتساءل المرسل من خلاله عن حالة الطقس. وفي المثال الأخير فإن المرسل يعبر عن انفعاله ووجدانه بفعل تساقط الأمطار. والفكرة الهامة التي أود تسجيلها تحت هذا العنوان هي: إن الدور الذي تضطلع به علامات الترقيم في التعبير الكتابي شبيه، إلى حد ما، بدور التنغيم في التعبير الشفهي، في ما يخص التمييز بين معاني الجمل والملفوظات، وإن كان التنغيم يوفر إمكانيات متعددة تفوق بكثير الإمكانيات التي توفرها علامات الترقيم بخصوص هذه المسألة. وهو الأمر الذي سيتبين بشكل جلي حينما سأتناول التنغيم من جهة وظيفته في التعبير الشفهي لاحقا.

3-1-3 التلخيص (*Le résumé*):

يراد بالتلخيص، إعادة كتابة مضمون نص من النصوص أو كتاب... بشكل مختصر شريطة عدم إضافة أي شيء لمضمون النص الأصلي؛ ومعنى هذا أنه لا ينبغي لنا ـ ونحن نلخص مؤلفا ما ـ أن نعلق على النص الأصلي، أو نحكم عليه أو نحلله، أو ننتقده... بل ينبغي فقط إعادة صياغة الأفكار الواردة في مؤلف من المؤلفات بطريقة مختصرة ومنظمة.

4-1-3 تقديم كتاب (*Présentation d'un livre*):

لكي نتمكن من تقديم كتاب أو أطروحة... يتحتم علينا القيام بما يلي:

1- تلخيص مضامين النص الأصلي بشكل منظم ودون أية زيادة أو إضافة.
2- التعريف بصاحب المؤلَّف وبسيرته العلمية.
3- ذكر العنوان الأصلي للمؤلف وتاريخ النشر ودار النشر ورقم الطبعة...

4- ذكر عدد الصفحات والأبواب والفصول والأقسام...
5- إذا كان المؤلَّف مترجما ينبغي الإشارة إلى اللغة الأصلية التي كتب بها المؤلِّف مع ذكر الكاتب الأصلي واسم المترجم وسنة الترجمة.

5-1-3 السيرة العلمية (*Le Curriculum Vitae*):

يقصد بالسيرة العلمية المعروفة اختصارا بـ(CV) العرض الموجز الذي ينجزه كل من يود أن يتقدم لاجتياز امتحان أو طلب عمل...حيث يتم الانتقاء الأولي للكفاءات المطلوبة انطلاقا من المعلومات الواردة في (CV) وترتبط هذه المعلومات بـ:

1- الحالة المدنية
2- الشواهد والدبلومات
3- التجارب والتداريب...
4- المهنة الحالية
5- الأعمال المنجزة: كتب، مقالات...
6- الأنشطة العلمية: المشاركة في ندوات، الإشراف على أطاريح ومناقشتها...
7- اللغات التي يتقنها صاحب السيرة العلمية (كتابة ومحادثة)

هناك تقنيات أخرى لا يسع المجال لذكرها وتفصيل القول فيها نحو: التحليل والتفسير والتقرير... وهي تقنيات تساعد على تسهيل التواصل وتنظيمه.

2-3 بعض مظاهر التعبير الشفهي وتقنياتها:

كان ظهور اللسانيات الحديثة مرتبطا بالتحول من دراسة اللغة المدونة (فقه اللغة) إلى دراستها في جانبها المنطوق. وفي ذلك اعتراف بأهمية الكلام، إلى جانب الكتابة، في الحياة الاجتماعية. إن الحديث عن تقنيات التعبير الشفهي حديث ذو شجون ومرد ذلك إلى:

- تعدد هذه التقنيات.
- دخولها ضمن التفاعلات الشفهية.

- التداخل والتشابه الموجود بينها.

ونجد ان السنة الناس تتداول مجموعة ألفاظ إن لم تكن واحدة في المفهوم، فهي متقاربة في المعنى ونقصد بذلك: المناظرة والمجادلة، والمقابلة (*entretien*)، والحوار (*Dialogue*) والندوة (*colloque*)، والمداخلة (*intervention*) و المحاورة... وهذا ما يطرح إشكالية الغموض في الحدود الموجودة بين هذه الأنشطة الكلامية مجتمعة وبين المحاورة؛ لأنها ترجع في نهاية أمرها إلى طريقة البيان والتبيين التي يتميز بها الإنسان خلقة وتتم بشكل شفهي.

لذلك كله، سأشير إلى بعض هذه الأنشطة وبعض التقنيات المستعملة فيها باختصار، وساركز اهتمامي في هذا العمل على المحاورة . وبعد ذلك انتقل إلى تناول الاستراتيجيات المختلفة والمتنوعة التي يعتمدها الأطراف المشاركون في هذه الأنشطة لتسهيل التفاعل والتفاهم بينهم واقصد بذلك:

- العناصر الموازية لسانيا (*Paralinguistique*) مثل النبر والتنغيم...
- الكينيزيك (*La kénésique*)
- البروكسيميك (*La proxémique*)

1-2-3 الحوار والمحاورة: (*Dialogue* et *conversation*)

3 - 2 - 1 - 1 التعريف اللغوي:

ورد في لسان العرب لابن منظور ما يلي: ألحَوْرُ: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حارَ إلى الشيء وعنه حَوْراً ومَحاراً ومَحارَةً وحُؤُوراً. وأحارَ عليه جوابه: ردّه. وأحَرْتُ له جواباً وما أحارَ بكلمة، والاسم من المُحاوَرَةِ الحَوِيرُ، تقول: سمعت حَوِيرَهما وحِوَارَهما. والمُحاوَرَة: المجاوبة. والتَّحاوُرُ: التجاوب؛ وتقول: كلّمته فما أحار إليّ جواباً وما رجع إليّ حَويراً ولا حَويرَةً ولا مَحُورَةً ولا حِوَاراً أي ما ردّ جواباً. واستَحَاره أي استنطقه. وفي حديث علي، كرم الله وجهه: يرجع إليكما ابنا كما يحَوْر ما بَعَثْتُما به، أي بجواب ذلك... وهم يَتَحاوَرُون أي يتراجعون الكلام. والمُحاوَرَةُ: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، وقد

حاوره. والمَحُورَةُ: من المُحاوَرة مصدر كالمَشُورَة من المُشاوَرَة كالمَحْوَرَة...وما جاءني عنه مَحُورَة أي ما رجع إليّ عنه خبر. وإنه لضعيف الحَوْر أي المُحاوَرَة[1].

وفي القاموس المحيط: "والمُحاوَرَةُ والمَحُورَةُ والمَحُورَةُ: الجوابُ، كالحَوِيرِ والحِوارِ، ويُكْسَرُ، والحِيرَةِ والحُوَيْرَةِ، ومُراجَعَةُ النُّطْقِ. وتحاوَرُوا: تراجَعُوا الكلامَ بينهم"[2].

يستفاد من التعريفين أعلاه أن: الحِوار و المحاورة والتحاور من الناحية اللغوية تعني الشيء نفسه أي: التجاوب بين طرفين وردّ كل طرف بجوابٍ للطرف الآخر، كما تعني دفع كل طرف بالطرف الآخر إلى النطق والكلام. وتدل أيضا على مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

3-2-1-2 التعريف الاصطلاحي:

أ- المحاورة: (*conversation*)

يقصد بالمحاورة (*conversation*) النشاط الكلامي الذي يمارسه أفراد المجتمع فيما بينهم، بوعي أو بغير وعي في الغالب. إنها شكل من أشكال التفاعلات الشفهية التي تمتد عبر مستويات الحياة الإنسانية المختلفة، إذ نعتمدها في الأحاديث اليومية العادية، كما نعتمدها في العلاقات "العملية وغيرها من التفاعلات المؤسساتية"[3].

تقوم المحاورة على تعدد المشاركين- مشاركَين على الأقل – لتبادل الكلام وفق ميكانيزم التناوب في أخذ الكلمة، أي: التتابع في أخذ الكلمة من أجل حصول التفاعل. وهذا التناوب كفيل بالحفاظ على النظام في المحاورة. أما أن يتحدث المتحاورون دفعة واحدة فإن ذلك سيؤدي إلى تشويش ذلك النظام(مقاطعة الآخر قبل إتمام حديثه)، إذ المحاورة نَصٌ مُنتَج بشكل جماعي مترابط الخيوط وإلا فإنها ستكون ناقصة في حالة وقع خطأ في الأدوار.

(1) ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي. باب الحاء. (قرص مدمج: موسوعة مكتبة المعاجم واللغة العربية).

(2) ا لعظيم أبادي (أبو الطيب)(1993): القاموس المحيط. مؤسسة الرسالة. فصل الحاء. (قرص مدمج : موسوعة مكتبة المعاجم واللغة العربية).

(3) Danielle André Larochebouvy(1984): introduction à l'analyse sémio- linguistique de la conversation .crédif -Paris .P.P: 5.

ويتحقق هذا التناوب اعتمادا على قواعد الاتساق والانسجام، وبذلك فهي تنظيم لقواعد التسلسل التركيبية والدلالية والتداولية.

ويمكن الحفاظ على التناوب في أخذ الكلمة أثناء المحاورة بمساعدة بعض الضوابط التي تساعد على تمرير الكلمة بين المتحاورين. كما تعتمد على مجموعة من الإشارات التي توحي بانتهاء دور أحد المتحاورين وبداية دور الطرف الآخر. وقد تكون هذه الإشارات من طبيعة شفهية كان يتم اعتماد بعض الأفعال الانجازية (السؤال) من خلال بعض الملفوظات مثل: نعم، ولا، وفيها نظر أولقد أنهيتُ كلامي. ماذا عنك أنت؟... كما يمكن أن تكون هذه الإشارات من طبيعة فونيتيقية وبالخصوص تطريزية (Prosodique) مثل: الوقف (La Pause)، أو التباطؤ في الكلام والتراخي في نطق بعض المقاطع في الملفوظات ... وفي الأخير فقد تكون هذه الإشارات من طبيعة إيمائية حركية مثل: تركيز النظر على المخاطب الذي ستكون له الكلمة فيما بعد، أو تحريك الرأس والحاجبين بطريقة تفيد الرغبة في بدء الكلام أو قطعه[1].

وإذا وقع سوء تفاهم بين المتحاورَيْن في مسألة فهم هذه الإشارات ــ بسبب عدم وضوحها مثلا ـ فسيؤدي ذلك إلى عرقلة التفاعل بينهما. ومن ذلك مثلا: الصمت لمدة معينة من قبل المرسل، وهو ماقد يوحي بالرغبة في إنهاء دوره في الكلام. وقد تتم هذه العرقلة عن طريق مقاطعة المرسل أثناء كلامه، فمن باب الاحترام أن يترك المتلقي المرسل يتمم كلامه، لأن من شروط سلامة التدخل في المحاورة أن يستمع المتلقي لكل القضايا المتلفظ بها حتى يتمكن من فهمها فهما صحيحا، ولا يؤولها بشكل خاطئ فيجيب بملفوظات غير مناسبة أو يعسر عليه إيجاد الرد المناسب. ورغم ذلك فالمقاطعة أمر مقبول في نظام الأدوار ما لم يكن لها أثر سلبي على السير العادي للمحاورة من توتر أو انفعال...

و يعتمد المتحاورون على المقام كعنصر فاعل في عملية تأويل الملفوظات، إضافة إلى أهمية العناصر اللسانية الخاصة في عملية التلفظ مثل: الضمائر، والإشاريات

(1) ATHERINE KERBRAT- ORECCHIONI(1998) : Les interaction verbales. Approche interactionnelle et structure des conversations. TOM1, Troisième édition. ARMAND COLIN , PARIS. PP : 165-166

(*déictiques*). وغيرها من الوحدات اللسانية، والموازية لسانيا أو الفوق قطعية (*supra-segmentaux*) التي تقوم بدور هام في بناء تقنية المحاورة بليونة (*souplesse*) واقتصاد (*économie*).

وبعيدا عن العناصر اللسانية الخالصة، تتدخل في تشكيل المحاورة عناصر سوسيو-ثقافية (*socio-culturels*)، وأخرى تتعلق بالجانب الحركي (*Kinésiques*)، والنفسي (*psychologique*). وكلها عوامل تؤثر، إيجابا أو سلبا، على التفاعل أثناء عملية التحاور التي يؤدي فيها استرجاع الأثر (*Feed-back*) دورا هاما في الحفاظ على استمرار روح المحاورة وينفي عنها سمة الخطية (*linéaire*).

ويتمتع المشاركون في المحاورة بحقوق و واجبات متساوية، بخلاف ما هو الأمر عليه في الاستجواب (*interview*) حيث يكون أحد أطراف الحوار شاغلا لوضعية المسيطر والمهيمن. كما أنه عبارة عن منتوج موجه إلى جمهور مستهلك (*consommateurs*) فقط، أي أنه لا يشارك في التفاعل (*interaction*). ورغم ذلك فمن حقه أن يقرر ويعبر عن رأيه[1]. ويضاف إلى ذلك أن المُستَجوِب هو الذي يتحكم في محتوى المواضيع المتبادلة. وهذا من شانه أن يخلق لاتوازنا في الأدوار. فالمُستجوِب (السائل) يستدرج المستجوَب (المسؤول) إلى وجهة معينة ومقصودة يتعين عليه أن يقدم إجابة انطلاقا منها.

وما دامت المحاورة تتم عبر الألفاظ فإن ذلك يعني أنها تندرج ضمن ما يسمى بالتفاعل اللفظي لأن كل المصطلحات التي تنتمي إلى التبادل اللفظي (*l'échange verbale*) يمكن أن تدخل ضمن المصطلح النوعي التفاعل (*interaction*) وبشكل أكثر تدقيقا ضمن التفاعل اللفظي (*interaction verbale*)[2]. ويمكن أن نميز من داخل هذا النوع التفاعلي بين:

1- تفاعل متبادل (*réciproque*) وتفاعل غير متبادل(*non-réciproque*) سواء في التفاعل اللفظي أو غير اللفظي.

(1) Danielle André Larochebouvy(1984): introduction à l'analyse sémio- linguistique de la conversation: P 11.

(2) Ibid: P12.

2- التفاعلات الحركية الخالصة.

3- التفاعلات الحركية اللفظية (المحاورة).

4- التفاعلات اللفظية الخالصة (اتصال هاتفي)[1].

وتتكون الوحدة الدنيا (*l'unité minimale*) للمحاورة، باعتبارها تفاعلا لفظيا متبادلا، من مثير لفظي (*stimulus verbale*) وجواب لفظي (*réponse verbale*) مرفوقين بحركات، أو غير مرفوقين بها.

وعلى العموم تتميز المحاورة عن غيرها من أشكال التفاعل بما يلي:

1- إنها وحدة لسانية.

2- إنها عبارة عن علاقة تفاعلية سواء كانت لفظية خالصة أو لفظية حركية.

3- إنها عبارة عن علاقة تفاعلية تبادلية، تتكون وحدتها الدنيا من زوج من الأجوبة التي تكون في الواقع منتجة من قبل متحاورين مختلفين.

4- إنها تتضمن وجوها (*phases*)، وصيغا (*formules*) مستعملة في التحليل، وتشكل أساسا في معرفة بنيتها.

5- إنها تستدعي حضور مشاركَيْن، على الأقل، يتمتعان بنفس الحقوق في دورة الكلام. فعلى الرغم أن المشاركين في المحاورة لا يتمتعون بالوضع الاعتباري نفسه إلا أنهم أثناء التفاعل يتصرفون بشكل يغيب فيه استحضار الوضع الاعتباري.

6- إنها نشاط يتميز بالعفوية (*Spontanéité*)، والمجانية (*Gratuité*) حيث إن المشاركين في المحاورة لا يعلنون عن أية أهداف سوى المحاورة نفسها.

7- إنها وحدة محددة في الزمان والمكان[2].

وإذا كانت المحاورة تتمتع بكل هذه المميزات، فإن ذلك سيكون دافعا إلى التفكير في التفاعل اللفظي - وفي المحاورة على وجه الخصوص - باعتباره نسقا وبنية قابلة للوصف

(1) Ibid: P.P 13-14.
(2) Ibid. PP :18- 19.

والتحليل بمساعدة القواعد المكوِّنة(*les règles constitutives*) والقواعد الخاصة بالعمل والاشتغال (*les règles de fonctionnement*) (الوظيفية)؛ واعتبارُ المحاورة بنيةً معناه أنها مكونة من عناصر دنيا (*minimales*) وأخرى غير دنيا (*non minimales*) ومزودة بشكل (*forme*) ودلالة (*signification*)، كما يعني ذلك أيضا أن تركيبها يتم بواسطة عدد من العلاقات المجردة الموجودة بين هذه الوحدات ووظائفها، أي أنها تُبنى بواسطة الدور الذي تؤديه هذه الوحدات، ومتواليالتها، ومختلف العلاقات القائمة بينها[1].

يفهم مما سبق أن المحاورة ليست موضوعا منتهيا (*objet fini*)، بل هي مسار (*processus*)؛ أي أنها موضوع قابل لأن يتوسع ويتطور؛ وهي بذلك ليست معطى (*un donné*)، بل هي بناء متجدد في كل وقت؛ وهذا مرده إلى الدينامية التي يعرفها التبادل اللفظي.

وعليه، فالمحاورة نسق مفتوح، مادام مجراها يتعلق - باستمرار - بالعناصر الخارجية المتعلقة بالوضعية الفيزيقية والنفسية للمشاركين. أما مظهرها المركب (*complexe*) فيعود بالأساس إلى تعدد العناصر المكونة لها وتفاعلاتها المختلفة.

إن الحفاظ على روح المحاورة وصيانتها يفرضان تعاونا (*coopération*) متبادلا بين مختلف أطراف هذه الممارسة الاجتماعية أثناء تفاعلهم حتى ولو في الحرب الكلامية (السياسية) (*polémique*).

يمكن القول، من خلال ما سبق، إن المحاورة مؤسسة اجتماعية تضم كل الممارسات التي تنظم دور الملفوظ في مجتمع معين، وتمتلك هذه المؤسسة عنصرا يحددها نوعيا هو الكلام.

وعندما أقول: إن المحاورة مؤسسة اجتماعية فإنني أشير إلى أنها تخضع لمجموعة من القواعد، والضوابط، والمبادئ... وهو ما يعني في حد ذاته أنها تجسد نوعا من السلطة الاجتماعية. وقد كانت دراسة مبادئ المحاورة والقواعد الضابطة لها... من أدق المباحث التي اهتمت بها التداولية. وهو ما تناولته بتفصيل في هذه الرسالة[2].

(1) Ibid. PP : 19.
(2) الفصل الثاني من الباب الثالث.

ب- الحوار (*Dialogue*):

اقترح الأستاذ محمد العمري تعريفا مركزا لكلمة الحوار قائلا: الحوار خطاب (أو تخاطب) من أجل الإقناع بقضية أو فعل. وبعبارة أدق: الحوار هو: كل خطاب يتوخى تجاوب متلقٍّ معين، ويأخذ ردَّه بعين الاعتبار من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين؛ قريبة من هذا الطرف أو ذاك، أو في منتصف الطريق بينهما. صورته المُثلى مناقشة بين طرفين أو أكثر، وقد يكون تعقيبا بعد حين على صفحات الجرائد أو غيرها من وسائط الاتصال التي تتيح فرصة للتعليق على رأي الآخرين، وقد يكون في أي صيغة أخرى. وبهذا نعتبر استعمال كلمة حوار بمعنى استجواب استعمالا جزئيا يراعي الشكل[1].

واضح من التعريف أعلاه أن الحوار يروم إقناع طرف لآخر بقضية معينة أو فعل معين وهو ما لا تضطلع به المحاورة؛ إذ لا يشترط في المحاورة أن تكون بغرض الإقناع. ومما يميز الحوار عن المحاورة هو كون الحوار نشاط أو ممارسة نهدف من خلالها إلى رفع الخلاف أو الاختلاف القائم بين المتناظرين.... فالحوار ينبني على الاختلاف، والاختلاف في الرأي هو مدار الحوار النقدي الذي يستهدف رفع أوجه الاختلاف بين المتناظرين أفرادا كانوا أو جماعات[2]. فالاختلاف قد يولد الحوار، وهذا الحوار يختلف بحسب درجة الاختلاف بين المتحاورين؛ فقد يكون حوارا تفاوضيا مبنيا على تبادل الرأي بكيفية هادئة وعقلانية، وقد يتحول إلى عراك وسجال وخصام وتضليل وعنف[3].

إن الحوار أسلوب لتقريب وجهات النظر بين الأطراف المختلفة في المجالات المختلفة: السياسية والدينية والثقافية...لأنه يربي فينا ثقافة الحق في الاختلاف.

وإذا كان الأصل في الحوار هو الاختلاف[4] فإن المحاورة لا تنبني بالضرورة على هذا الاختلاف؛ ففي المحاورات اليومية التي تتم بين أفراد العائلة ،مثلا، يمكن أن نلاحظ أنّ هذا

(1) محمد العمري(2002): دائرة الحوار ومزالق العنف. كشف أساليب الإقناع والمغالطة. مساهمة في تحليل الخطاب.إفريقيا الشرق. ص: 9.

(2) حسان الباهي(2004): الحوار ومنهجية التفكير النقدي. أفريقيا الشرق – المغرب .ص: 12).

(3) المرجع نفسه.

(4) طه عبد الرحمان(2002): الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. الطبعة الأولى. المركز الثقافي العربي ص: 28.

النوع من تبادل أطراف الكلام يقع قصد التسلية (سرد القصص والنكت)، أو تذكر أحد أفراد العائلة الغائبين أو المقارنة بين الأبناء من حيث الذكاء والشغب والجمال... وغيرها من النقاشات التي لا تحمل في طياتها معنى الاختلاف الذي يقصد منه تناقض وجهات النظر حول موضوع ما، مما يحتم اللجوء إلى الحوار من أجل محاولة التقريب بين وجهات النظر المختلفة.

ومما يميز الحوار عن المحاورة أيضا حيث إن موضوع الحوار يكون محددا سلفا، في حين أن المحاورة قد تتم في أية لحظة زمنية وفي أي مكان دون سابق إعلان: فقد نجري محاورة في محطة القطار مع شخص غريب حول مواضيع عديدة تحدد بشكل تلقائي، وقد تتم كذلك في الشارع مع أحد الأصدقاء الذي غاب مدة طويلة، فتتبادل أطراف الكلام حول اشتياق بعضنا للبعض الآخر أو الحديث عن ظروف العمل...

إن ما سبق ذكره لا يعني أن تبادل أطراف الحديث في المحاورة يتم دائما في حالة من الاتفاق التام في الآراء، بل قد يتدخل أحد الطرفين بين الفينة والأخرى للاستفسار عن شيء ما وردَ ذكرُه أثناء المحاورة، كما قد يخالف أحد المتحاورين الطرف الآخر في تصرف معين أو قول ما ... وفي مثل هذه الحالات تتخذ المحاورة منحا جديدا حيث يظهر الاختلاف في الرأي ويحاول كل طرف الدفاع عن موقفه وهنا تقترب المحاورة من الحوار.

وقد ميز محمد العمري بين أنواع حوارية مختلفة، على الرغم من صعوبة مثل هذا العمل، وشبه من يحاول القيام بهذا التمييز بمن يدعي القدرة على الفصل بين الذاكرة والعقل والوجدان. وصاغ هذه الأنواع على شكل جدول كما يلي:

دائرة الحوار (أو دائرة الممكن)		محيط دائرة الحوار(أو دائرة المطلق)	
ـ 1 ـ مشاورات	مجالاتها : 1ـ استشارة: بين مدير وخبير لتوظيف المعرفة... 2 ـ تشاور (بين أنداد): تدبير موقف: فتوى 3 ـ فحص اختيار مشترك	المعرفة (تداولها)	1 ـ تخزين المعارف واسترجاعها قصد الاستشارة، من أي مصدر علمي. 2 ـ استعلام (لتحصيل المعرفة من خبير)
ـ 2 ـ مناظرات	1 ـ مفاوضات(حول مطالب) 2 ـ منازعات(في مواقف وآراء) 3 ـ فحص أطروحات ومذاهب	النظر العقلي البرهاني	صناعة ذهنية تنظر في الموضوع دون النظر في المحتوى. (الجدل للفحص)
ـ 3 ـ استهواء	1 ـ استمالة(بالمخيلات) 2 ـ استفزال(مغالطة).	العنف	1 ـ تخييلي شعري 2 ـ ومرجعي: كذب، قذف ، تهديد

(1)

ففي دائرة الحوار نفترض بالضرورة وجود الآخر؛ فإذا كان هذا الآخر متعاونا كانت المشاورة، وإن كان منازعا كانت المناظرة، أما إن كان متقادا دون روية كان الاستهواء. ولكل جنس من هذه الأجناس الحوارية امتداد معين؛ إذ يوجد في امتداد التشاور المعرفة في بعدها التخزيني، أي نشاط الذاكرة بشكل أساسي، ويوجد في امتداد المناظرة التأمل والاعتبار والمعرفة المنطقية والبرهانية، أي نشاط العقل بصفة أساسية. ويوجد في امتداد الاستهواء العنف السيكولوجي والرمزي، أي نشاط الوجدان بشكل أساسي[2].

2-2-3 المناظرة (La Conversation Dialectique):

المناظرة كما عرفها الميداني: "هي المحاورة بين فريقين حول موضوع لكل منهما وجهة نظر فيه تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه، مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره"[3].

(1) محمد العمري (2002) دائرة الحوار ومزالق العنف. ص:11.
(2) المرجع نفسه. ص:11.
(3) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني(2004) : ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة. دار القلم، دمشق. الطبعة السابعة. ص: 271.

إن المناظرة بهذا المعنى هي محاورة جدلية بين طرفين آراؤهما متضادة حول قضية معينة. وقد كانت هذه المجادلات سائدة في مجالات مختلفة كالأدب (المناظرات التي دارت بين الدكتور طه حسين وخصومه من الأدباء حول كتابه "في الشعر الجاهلي") وفي مجال الدين الإسلامي (المناظرات التي كانت بين أئمة مسلمين وأنصار ديانات مخالفة للإسلام، ومنها أيضا المناظرات بين الفقهاء والأصوليين حول الخلافات الفقهية وأصولها). وقد تكون المناظرة بين طرفين ينتميان إلى تخصصات مختلفة، ومثال ذلك المناظرة اللغوية الفلسفية التي دارت بين متّى بن يونس القنّائي الفيلسوف وبين أبي سعيد السيرافي في المفاضلة بين المنطق اليوناني والنحو العربي في مجلس الوزير أبي بشر الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات[1]. ومثال ذلك أيضا المناظرة الطريفة التي دارت بين عالم نحو هو الفراء ورجل دين هو محمد بن الحسين الشيباني صاحب أبي حنيفة؛ حيث امتحن محمدٌ الفراءَ في مسألة فقهية فأجابه عليها من فن النحو: قال محمد: "ما تقول في رجل صلى فسها، فسجد سجدتين للسهو فسها فيهما؟ ففكر الفراء ساعة ثم قال: "لا شيء عليه" فقال له محمد: "ولم؟" قال: "لأن التصغير عندنا لا تصغير له، وإنما السجدتان تمام الصلاة، فليس للتمام تمامٌ فقال محمد: "ما ظننت آدميا يلد مثلك !"[2]

1-2-2-3 آداب المناظرة:

وضع علماء آداب البحث والمناظرة جملة من الآداب ألزموا المتناظرين بها، للحفاظ على سلامة المناظرة، وتحقيق الغرض المتوخى منها وهو الوصول إلى الحق، أو إقناع الآخر به بعيدا عن التعصب للرأي أو المذهب. ومن أهم تلك الآداب ذكر الميداني ما يلي:

1- أن يتجنب المناظرُ مجادلةَ ذِي هَيْبةٍ يخشاه، لئلا يؤثر ذلك عليه، فيضعفه عن القيام بحجته كما ينبغي.

(1) جرار جهامي (1994): الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية: دراسة تحليلية نقدية. دار المشرق بيروت. الطبعة الأولى ص ص: 231 ـ 251.
(2) سعيد الأفغاني: في أصول النحو. المكتب الإسلامي. ص: 105.

2- الا يظن المناظرُ خصمَه حقيرا ضعيفا قليل الشأن، فذلك يقلل من اهتمامه، فيمكن خصمه الضعيف منه.

3- الا يظن خصمَه أقوى منه بكثير، حتى لا يتخاذل ويضعف عن تقديم حجته على الوجه المطلوب.

4- الا يكون في حالة قلق نفسي واضطراب، أو في حاجة تفسد عليه مزاجه الفكري والنفسي، كأن يكون جائعا، أو ظامئا، أو حاقنا، أو حاقبا، أو نحو ذلك.

5- أن يتقابل المتناظران في المجلس، ويُبصر أحدُهما الآخرَ إن أمكن، ويكونان متماثلين أومتقاربين علما ومقدارا.

6- الا يكون المناظرُ متسرعا يقصد إسكاتَ خصمه في زمن يسير، لأن ذلك يفسد عليه رويته الفكرية، ويبعده عن منهج المنطق السديد، والتفكير في الوصول إلى الحق.

7- أن يقصد كلٌّ من المتناظرين المساهمةَ في إظهار الحق ولو على يد خصمه.

8- أن يتجنب كلٌّ منهما الهزء والسخرية، وكلَّ ما يشعر باحتقار المناظر وازدرائه لصاحبه، أو وسمه بالجهل أو قلة الفهم، كالتبسّم والضحك والغمز والهمز واللّمز.

9- أن يحترز المناظرُ عن الاختصار المخل في الكلام، وعن إطالة الكلام بلا فائدة ترجى من ذلك.

10- أن يتجنب المناظرُ الألفاظ الغريبة، والألفاظ المجملة التي تحتمل عدة معان، من غير ترجيح أحدها الذي هو المراد.

11- أن يأتي كلٌّ من المتناظرين بالكلام الملائم للموضوع، فلا يخرج عمّا هما بصدده.

12- الا يتعرض أحدهُما لكلام خصمه قبل أن يفهم مراده تماما.

13- أن ينتظر كل واحد منهما صاحبَه حتى يفرغ من كلامه، ولا يقطع عليه كلامه قبل أن يُتمه.

14- أن يقبل كلٌّ منهما الحقَّ الذي هداه إليه مناظره، أو يعترف بأنّ قوّة دليله تقدّم ترجيحا لوجهة نظره، أو لمذهبه، حتى يُكْتَشف شيء آخر يُضْعِف دليله، ويجعله غير صالح للترجيح[1].

ومن الأمور التي ينبغي للمناظر أن يتجنبها أيضا: الإصرار على الرفض الذي يعد مكابرة ممنوعة، والمراوغة التي تعني التهرب والانسحاب من مجلس المناظرة. ومتى وَجَد المناظرُ خصمَه مراوغا فمن الأفضل له أن يقطع المناظرة، ويُلزِم خصمَه بالهروب والانسحاب. فعن طريق هذه المراوغة يستطيع الخصمُ أن يستدرجه إلى موضوع آخر، ثم آخر وهكذا، فتتحول المناظرة إلى ما يشبه المصارعة الحرة التي ليس لها قيود ولا ضوابط. وهذا جدال محظور[2].

3-2-2-2 شروط المناظرة:

يشترط في المناظرة أربعة شروط:

الشرط الأول: أن يكون المتناظران على معرفة بقوانين المناظرة وقواعدها، حول موضوع المناظرة.

الشرط الثاني: أن يكون المتناظران على معرفة بموضوع المناظرة.

الشرط الثالث: أن يكون الموضوع مما يجوز أن تجري فيه المناظرة ضمن قواعد هذا الفن وضوابطه. إذ لا تجري المناظرة، مثلا، في البديهيات الجلية: الكل أكبر من الجزء...

الشرط الرابع: أن يُجري المتناظران مناظرتهما على عُرف واحد، فإذا كان كلام المعلِّل جاريا على عرف الفقهاء مثلا فليس للسائل العارف بذلك أن يعترض عليه استنادا إلى عرف النحاة، أو عرف الفلاسفة...[3].

---

(1) للتوسع في موضوع ضوابط المناظرة وآدابها يرجى مراجعة : ضوابط المعرف للسبتاني ص ص:372 ـ 371.

(2) المرجع نفسه. ص: 373.

(3) المرجع نفسه، ص: 375.

وبخصوص هذا الشرط الأخير، فقد أشرت في بداية حديثي عن المناظرة إلى أن بعض المناظرات قد جرت بين عالمين من تخصصين مختلفين حول مسألة معينة. وضربت مثالا لذلك بمناظرة بين الفراء ومحمد بن الحسين الشيباني صاحب أبي حنيفة حول مسألة فقهية.

2-2-2-3 مراحل المناظرة.

تجري المناظرة عبر ثلاث مراحل هي:

مرحلة المبادئ: حيث يتم تحديد موضوع المناظرة.

مرحلة الأواسط: وهي مرحلة تقديم الدلائل والحجج.

مرحلة المقاطع: وهي المرحلة التي ينقطع فيها البحث، إما إلى الضروري واليقيني الذي يجب التسليم به بالضرورة العقلية، وإما إلى الظني الذي يُسلّم به الخصم[1].

3-2-3 المقابلة: (*L'entretien*).

عادة ما يتم اعتماد هذه الممارسة في التواصل المهني. وتتميز المقابلة عن الحوار والمحاورة من حيث القيمة الرمزية التي يتمتع بها الأطراف المشاركون في هذا التفاعل اللفظي أو ذاك. ففي الحوار والمحاورة يكون هناك تساو وتكافؤ بين الأطراف، أما في المقابلة فالأمر مختلف لأنها تخضع لقوانين وضوابط خاصة حيث يتمتع المرسل- السائل(المستجوِب) بقيمة معنوية ورمزية تجعله متحكما في سير المقابلة. أما المتلقي (المستجوَب) فمن الواجب عليه الخضوع والانضباط لأوامر المرسل، فمهمته تقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي يوجهها إليه المرسل. ومن الأمور التي ينبغي أن تتوفر في المرشح أثناء كل المقابلات الشفهية ما يلي:

- أن يكون متمكنا من المواضيع التي تطرح للنقاش في المقابلة.
- عدم التسرع في الإجابة.
- أن يكون المرشح قوي الشخصية؛ لتفادي كل توتر أو ارتباك أثناء الإجابة وهذا ما يكسب المترشح الثقة في النفس.

(1) المرجع نفسه. ص: 376.

- أن يكون أنيق الهندام، وبشوشا...
- أن يتجنب كل أشكال الانفعال والغضب ؛ فقد يقصد أحدُ أطراف اللجنة العلمية استفزاز المترشح بأسئلة معينة بغرض التأكد من شخصيته كما يقع مثلا في المقابلات الشفهية لولوج مراكز تكوين الأساتذة. ويتم اعتماد هذا الأسلوب بشكل كبير في القطاع الخاص.

4-2-3 العرض (*L'exposé*):

العرض عبارة عن بحث مصغر حول قضية معينة يتقدم به عارض معين إلى جمهور معين. ويتولى العارض مهمة الإجابة عن التساؤلات والاستفسارات الموجهة إليه من الحاضرين. وللعرض أيضا ضوابط وقوانين لابد أن تلتزم بها الأطراف المشاركة كل من جهته. فالجمهور مطالب بالتفاعل مع العارض بشكل إيجابي؛ إذ على السائل أو المستفسر أن يتفادى الخروج عن موضوع البحث، وأن يكون سؤاله مركزا وواضحا، كما يشترط فيه أيضا أن يتحلى بالأدب أثناء تساؤله أو استفساره... وعلى العارض من جهته أن يُحسن اختيار مادة العرض باعتماد المصادر والمراجع، كما يتوجب عليه أن يلتزم الهدوء والتركيز أثناء الإجابة، وأثناء إلقاء العرض فعليه أن يعتمد من الأساليب ما لا يشعر الجمهور بالملل كأن يلجأ إلى الترفيه عنه بين الفينة والأخرى باعتماد لغة كوميدية مثلا أو أي شيء يجعل الجمهور أشد ارتباطا بموضوع العرض.

5-2-3 الاجتماع (*La réunion*):

حينما نتحدث عن اجتماع معين فإننا نكون بالضرورة بصدد الحديث عن مجموعة أشخاص يعقدون اجتماعا أو تجمعا من أجل مناقشة مشكل معين أو مصلحة مشتركة بين هؤلاء الأشخاص. ويتم عقد هذا النوع من اللقاءات من قبل المؤسسات التعليمية أو الجمعيات أو الأحزاب السياسية أو الهيئات النقابية... لمناقشة أمر طارئ أو تدارس قضايا مرتبطة بجدول أعمال مستقبلي...

ويتكون كل اجتماع من الأطراف التالية:

- المسؤول: الذي يتولى مهمة تَيْسِير الاجتماع وتنظيمه.
- المُقرِّر: ويتولى مهمة تقديم تقرير حول وقائع الاجتماع وأخذ توقيعات المشاركين.
- المشاركون.

ولنجاح أي اجتماع كيفما كان نوعه، يتطلب الأمر أن يمر هذا الاجتماع في جو من الشفافية والوضوح بين الأطراف المشاركة؛ بحيث تتمتع كل الأطراف بالحرية نفسها في الإدلاء بآرائهم في جميع القضايا المعروضة للنقاش، كما ينبغي للمُيَسِّر المسؤول أن يأخذ كل الآراء في الحسبان سواء كانت مؤيدة أم معارضة.

الفصل الثاني

العناصر الموازية لسانيا والخارج لسانية المساهمة في المحاورة

1- العناصر الموازية لسانيا المساهمة في توجيه المحاورة:

سبق أن أشرت، في ثنايا هذه الرسالة، إلى أن المشارك في المحاورة عادة ما يكون في حاجة ماسة إلى الاستعانة بمجموعة من العناصر الموازية لسانيا (*Paralinguistique*) مثل النبر والتنغيم... وقد أولاها التداوليون عناية خاصة لما أدركوا دورها البارز في تحديد ما تحمله الألفاظ من دلالات مختلفة. وترتبط تلك الدلالات في كثير من الأحيان بالطريقة التي يتكلم بها الأفراد في تفاعلاتهم الشفهية.

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن دور كل عنصر من هذه العناصر، أود في البداية أن أوضح مسألة أعتبرها غاية في الأهمية، ويتعلق الأمر بتخصيص كل عنصر من هذه العناصر بعنوان خاص به مع العلم أن الواقع اللغوي كما نمارسه في حياتنا اليومية لا يؤمن بهذا النوع من الفصل. ولذلك سأعتبر هذا الفصل إجرائيا فقط. ومرد ذلك إلى الأمور الآتية:

أ- إننا نتواصل بملفوظات وليس بكلمات معزولة عن السياق والمقام.

ب- وجود حالات يصعب فيها أن نحدد ما المسؤول عن معنى من المعاني التي يمكن اشتقاقها من ملفوظ معين، هل هو النبر بمفرده أو هو التنغيم بمفرده أو هما معا؟ وسيتم تبيان ذلك في الأسطر القادمة من البحث.

1-1 التنغيم (*L'intonation*):

يقصد بالتنغيم الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة بحسب ما يقتضيه المقام التواصلي، وهو ظاهرة شائعة في معظم اللغات الإنسانية؛ فالتنغيم في اللغة العربية يقوم بوظيفة تمييزية واضحة بين الجملة التقريرية والجملة الاستفهامية والجملة المنفية...

إنه نوع من التلوين الصوتي الذي يكسو به المرسل نطقه للجمل أو العبارات، فتبدو هابطة النغمة أو عالية أو متوسطة أو طويلة أو قصيرة أو لينة أو خشنة أو ... إلخ، الأمر الذي يؤثر تأثيرا مباشرا على معنى الوحدة المصحوبة بنغمة. يقول الأستاذ تمام حسان" فالجمل العربية تقع في صيغ وموازين تنغيمية هي هياكل من الأنساق النغمية ذات أشكال محددة. فالهيكل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية وجملة العرض غير الهيكل التنغيمي لجملة الإثبات وهن يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة"[1].

يعني هذا الكلام أن فهم القوة الإنجازية (*La force Illocutoire*) التي يتعين إعطاؤها للملفوظ متى صاحبه هذا التنغيم أو ذاك يتوقف، في حالات كثيرة، على نوع التنغيم المرافق له. ولهذا عدّ الاستاذ تمام حسان الصيغةَ التنغيمية من القرائن اللفظية التي تُعين على كشف المعنى النحوي للجملة، تماما كما تُعين الصيغة الصرفية على بيان المعنى الصرفي.

يقوم المرسل، أثناء المحاورة، بدور مهم في تحديد القوة الإنجازية لملفوظاته بوضعها في إطارها الصوتي الملائم. ويتم ذلك عن طريق التغييرات التي يُحدثها في مستوى الصوت، بين الارتفاع والانخفاض، أثناء الكلام حسب مقتضيات كل مقام تواصلي؛ ومعنى هذا أن الكلام لا يتحقق بتنغيم واحد وإنما بتنغيمات مختلفة تنتج عن التغيرات الصوتية التي يحدثها الجهاز المُصَوِّتي للمرسل، وهذا مهم جدا في إطار الحجاج.

وتمكننا هذه التغيرات الصوتية من التمييز بين الدلالات والمعاني التي تحملها جمل مختلفة أوجملة واحدة. ويعني هذا الكلام أن الجملة الواحدة قد يكون لها أكثر من معنى في أكثر من مقام على الرغم من أنها تبدو متشابهة من حيث تركيبها، فالتنغيم يساعدنا بشكل

(1) تمام حسان (1994): اللغة العربية معناها ومبناها. ص: 226.

كبير على التفريق بين الأساليب: كأن نميز بين الخبر والاستفهام والتعجب في جملة يتم التلفظ بها بإيقاعات صوتية تختلف باختلاف مقصديات المرسل من كلامه. وهذا ما أشار إليه أوستين" حينما تحدث عن التشديد على الصوت و إيقاعه وتنغيمه بإمالته وغير ذلك من فنون القراءة؛ إذ عادة ما تقدم مجموعة من التوجيهات للممثلين لتحسين أصواتهم وحركاتهم وأوضاعهم وضبط انفعالهم كتعليمهم كيفية إصدار التهديد. ومثل لذلك بما يلي:

- سيهاجم!(إنذار)
- سيهاجم؟(استفهام)
- سيهاجم!؟ (احتجاج)

ويعلق أستين" على ما سبق بقوله إن اللغة المكتوبة عاجزة عن نقل اللغة المنطوقة بسهولة؛ فمثلا حينما أردنا الاحتجاج حاولنا نقل إيقاع الصوت، وتنغيمه والتشديد عليه باستعمال علامتي التعجب والاستفهام معا غير أن هذا العمل غير كاف للتعبير عن المعاني المقصودة.. ثم إن علامات الترقيم، وكتابة الحرف الأول من الكلمات مائلا، وترتيب الألفاظ عبارة عن وسائل (*Moyens*) أكثر اختصارا وإجمالا ولا يمكن أن تفي بالغرض المرجو[1].

وقد أشار لـ.ف. فتجنشتين (Ludwig Wittgenstein) إلى أن الذي يحدد معنى الكلمات هو طريقة استعمالنا لها في اللغة بالفعل، وأن معيار صحة استخدام الألفاظ في اللغة هو طريقة استخدامنا لها في اللغة العادية وفي الحياة اليومية. وفي هذا الصدد يقول: إن معنى الكلمة (الجمل والعبارات) يتحدد بناء على الظروف المختلفة التي تستخدم الكلمة في حدودها بالفعل[2].

وقد عدّ بيير غيرو التنغيم من بين الوسائل الكونية الدالة على طبيعة العلاقة بين المرسل والمتلقي، فقد تكون حميمية، أو موقرة، أو ساخرة، أو آمرة، أو منافقة ..[3] ولذلك

(1) *J.L Austin: Quand dire, c'est faire. Traduction et introduction de G. lane (1970). Ed. de seuil. Paris. P.P: 94-95 .*

(2) عزمي إسلام: لدفيج فتجنشتين. مجموعة نوابغ الفكر الغربي عدد 19. دار المعارف بمصر. ص: 102).

(3) بيير غيرو: سيميائيات التواصل الاجتماعي. ترجمة: محمد العماري. ضمن مجلة علامات. العدد12: ص: 47

تعد دراسة التنغيم من أدقّ جوانب الدراسة اللغوية وأكثرها خطورة، بسبب تعدد التنغيمات في البيئة اللغوية أو اللهجية الواحدة، وارتباط هذه التنغيمات بالمواقف النفسية، وبالثقافة والتراث والمستوى الاجتماعي. ورغم ذلك فإن المتلقي غالبا ما يكون بمقدوره التعرف على مقصود المرسل لأن دلالة هذه التنغيمات عرفية تماما كدلالة الكلمة على معناها ودلالة الحركة الإعرابية أو الرتبة على الباب النحوي الخاص[1].

و ذهب تمام حسان إلى أن للتنغيم دلالةً وظيفية من حيث تأثيره على بيان وتوضيح الدلالات المختلفة ومقاصد الكلام؛ لأنه يساعد على إزالة اللبس عن معنى الجملة وعلى إدراك الفرق بين المعاني يقول: "وللنغمة دلالة وظيفية على معاني الجمل تتضح في صلاحية الجمل التأثرية [أسلوب التعجب] المختصرة نحو لا!، نعم!، يا سلام!، الله !إلخ لأن تقال بنغمات متعددة ويتغير معناها النحوي والدلالي مع كل نغمة بين الاستفهام والتوكيد والإثبات لمعان مثل الحزن والفرح والشك والتأنيب والاعتراض والتحقير وهلم جرا حيث تكون النغمة هي العنصر الوحيد الذي تُسبب عنه تباينُ هذه المعاني لأن هذه الجملة لم تتعرض لتغير في بنيتها ولم يضف إليها أو يستخرج منها شيء ولم يتغير فيها إلا التنغيم وما قد يصاحبه من تعبيرات الملامح وأعضاء الجسم مما يعتبر من القرائن الحالية"[2]. وهذا يتأتى بإتقان مجموعة من طرق الأداء في النطق تتمثل في النبر، والوقف، والإيقاع، ووصل بعض الكلام، واختلاس بعض الأصوات والاستغناء عن بعضها ومد بعضها لتكون واضحة... هذه الأمور هي علامات بارزة وهي ما يكوّن التنغيم. فالمتكلم قد يهدف بحديثه وتتابع نغمات كلامه إلى العتاب، أو الاستحثاث، أو لفتِ النظر، أو الامتعاضِ إلى غير ذلك.

إن التنغيم هو الذي يساعد على التفريق بين الإغراء والتحذير في قولنا: (الرجلَ الرجلَ) فإذا كانت النغمة مرتفعة فإنها تحذرك من الرجل، وأما إذا نطقت بنغمة مستوية فإنها تدل على الإغراء. من هنا كانت إشارات ابن جني الذكية تدل على أهمية التنغيم، فقد بين أن ".. لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال خبراً. وذلك قولك : مررت

(1) تمام حسان (1994): اللغة العربية معناها ومبناها. ص: 226.
(2) المرجع نفسه، ص: 228.

برجل أيَّ رجل. فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهماً. وكذلك مررت برجل أيّما رجل؛ لأن ما زائدة"[1]. والذي يدل على ذلك إنما هو التنغيم الذي يجعل المتحدث يمد صوته عندما يقول(أي رجل) مستخدماً النغمة العالية المنتهية بالمنحدرة. وأشار الأستاذ أحمد المتوكل في هذا الصدد إلى أن التنغيم الذي تأخذه الجملة، في العادة، هو التنغيم المطابق لقوتها الإنجازية الحرفية؛ بحيث تأخذ الجملة الخبرية تنغيما تنازليا في حين أن تنغيم الجملة الاستفهامية تنغيم تصاعدي. كما أن تنغيم الجملة يختلف باختلاف القوة الإنجازية المستلزَمة مقاميا؛ فتنغيم الجملة الاستفهامية المقصود بإنجازها مجرد السؤال يختلف اختلافا بيّنا عن تنغيم الجملة الاستفهامية المقصود بإنجازها الالتماس أو الإخبار أو الأمر.. "[2].

ومعنى هذا الكلام أن للتنغيم أهمية عظيمة في تبيُّن خروج الأسلوب إلى عن قوته الإنجازية الاصطلاحية إلى قوة إنجازية مولّدة أو مشقة وهو ما يسمى بالاشتقاق الإنجازي(*La dérivation illocutoire*). ومثال ذلك: أن نقول لمن نراه يضرب أباه:

1- أتضرب أباك؟

فحينما يتلفظ المرسل بهذا الملفوظ في هذا المقام التواصلي، فإن مراده لا يكون هو تحقيق السؤال، بل الإنكار والزجر. ولذلك سيكون له، في هذه الحالة، مَيلٌ إلى التلفظ بهذا الملفوظ بقوة تفوق بكثير القوة اللازمة لتحقيقه لو كان القصد منه هو مجرد السؤال. وفي مثل هذه الحالات يكون أثر قرينة التنغيم أعظم من أثر القرينة اللفظية، أي أداة الاستفهام الهمزة. فبالرغم من أن هذه الجملة استفهامية في لفظها فإنها لا تحمل معنى الاستفهام وإنما معناها التوبيخ (الإنكار والزجر) الذي يشتقه المتلقي انطلاقا من التنغيم الصوتي الذي يؤدي به المرسل هذه الجملة، إضافة إلى تطبيق قاعدة خطابية تقول: "إذا استفهم المتكلم(أ) المخاطب (ب) عن سبب فعل(ب) أو اعتقاده للموضوع (ج)، وكان (ج) محلا بما يعتبره (أ) معيارا

(1) ابن جني: الخصائص. ج3 ص: 269.
(2) أحمد المتوكل(1988): اللسانيات الوظيفية مدخل نظري. منشورات عكاظ: ص: 56ـ 57.

(Norme)، فإن هذا يستلزم حواريا أن(1) ينكر على (ب) فعله أو اعتقاده (ج) أو ينهاه أو يزجره عن ذلك[1].

قام الأستاذ تمام حسان بوصف النظام التنغيمي للغة العربية الفصحى معتمدا في ذلك وجهتي نظر مختلفتين:

الأولى مرتبطة بشكل نغمةٍ آخرٍ مقطعٍ وقع عليه النبر في الكلام وميز هنا بين:

- تنغيم هابط ينتهي بنغمة هابطة على آخر مقطع وقع عليه النبر ويستعمل هذا النوع في الإثبات والنفي والشرط والدعاء والاستفهام بالظروف ونحوها دون الأداتين هل والهمزة؛
- وتنغيم صاعد ينتهي بنغمة صاعدة على المقطع المذكور ويستعمل في الاستفهام (خاصة بالأداتين هل والهمزة) والعرض.

والثانية مرتبطة بالمدى الذي بين أعلى نغمة وأخفضها في الصوت سعة وضيقا، وميز ضمن وجهة النظر هاته بين ثلاثة أقسام هي:

- التنغيم الواسع: وهو ما كان نتيجة إثارة أقوى للأوتار الصوتية، مما يسبب علو الصوت. ومن أمثلة استعماله الخطابة والتدريس لأعداد كبيرة من الطلاب والصياح الغاضب...
- التنغيم المتوسط: وهو أقل تطلبا لكمية الهواء وما يصحبها من علو صوت، ويستعمل للمحادثات العادية.
- التنغيم الضيق: ويستعمل في العبارات اليائسة الحزينة وفي الكلام بين شخصين يحاولان ألا يسمعهما ثالث على بعد قليل منهما.

وهكذا حدد تمام حسان للحن العربي للكلام النماذج التنغيمية الستة الآتية:

- التنغيم الصاعد الواسع التنغيم الهابط الواسع

(1) ادريس سرحان(2000): طرق التضمين الدلالي والتداولي في اللغةالعربية وآليات الاستدلال. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة من شعبة اللغة العربية وآدابها.تخصص لسانيات.ص: 502.

- التنغيم الصاعد المتوسط التنغيم الهابط المتوسط
- التنغيم الصاعد الضيق التنغيم الهابط الضيق

وهناك نوع آخر من التنغيم سماه بالتنغيم المسطح لا هو بالصاعد ولا هو بالهابط ومثل لذلك بالآيات الآتية:

2- يقول تعالى: (1) **(فإذا برق البصر* وخسف القمر* وجمع الشمس والقمر* يقول الإنسان يومئذ أين المفر)** .

ويعلق تمام حسان على هذه الآية بقوله: "فالوقف على"البصر" و"القمر" أولا و"القمر" ثانيا وقف على معنى لم يتم فتظل نغمة الكلام مسطحة دون صعود أو هبوط. أما الوقف عند"المفر" فالنغمة فيه هابطة لأنه وقف عند تمام معنى الاستفهام بغير الأداة أي الاستفهام بالظرف"[2].

و يمكن تبين أهمية التنغيم في الدارجة المغربية من المعاني المختلفة التي يمكن أن تأخذها ملفوظات معينة باختلاف التنغيم الذي نُطقت به، فنحن، مثلا، نستعمل جملة "الله أكبر" بتلوينات صوتية مختلفة باختلاف المقاصد والأغراض؛ حيث تستعمل في النداء إلى الصلاة، وعند ما يقوم شخص بفعل أو عمل نبيل نستكبره، وقد نستعملها أيضا عندما نشاهد فعلا نستنكره، وفي التعجب من أمر معين وفي الموت... بحيث يكون التنغيم هو العنصر الوحيد الذي يكشف عن اختلاف هذه المقاصد؛ لأننا لم نغير من بنية الملفوظ اللسانية، وإنما الذي تغير هو تنغيمه وطريقة تلفظنا به.

هكذا نلاحظ أن التنغيم يقوم بدور أساس في تسهيل التواصل والتفاهم بين الناس؛ ففي المسرح مثلا يعتمد الممثلون بشكل كبير على التنغيم في نقل مجمل الأفكار والمشاعر ....التي يتكفل كل ممثل بنقلها للمتفرجين بحسب مقاصد العرض المسرحي التي يستقبلها المتفرج ويترجمها إلى أفكار ومشاعر... وهنا يتحقق التفاعل بين الممثل والمتفرج، ولذلك نجد

(1) سورة القيامة، الآيات:7-10.

(2) تمام حسان (1994): اللغة العربية معناها ومبناها. 229 -230.

...خصوص ...رجعه تنبيهات من قبل ... ... تكيفية التي يسعى الممثل أن يقدم ... دور ... من حيث نغمة الصوت ... وملامح الوجه و حركات الجسد ...ومثال ذلك ... نتطرف من بعض مسرحي لعبة الكوميديا ... في الفصل الثالث المعنون بـ تحولات الصدمة المنتظرة

3. لمقدم (رضوان) وأنت أيها المتعامل في البذلة الزرقاء، أنت ساعد هذا الحي. ساعده الأيمن والأيسر كذلك... (يضحك في خبث) أليس كذلك؟

- رضوان: كلنا في الحي سواعد. نحيط ألوف الأليسة ولا نلبس إلا جلودنا..
- حمدان: (في سخرية) هذا إذا تركوا جلدك آمنا (يضحكون)
- ( )
- سعدان: وما عرفناك إلا نذير شؤم...
- لمقدم: (يضحك) أحمل اليوم ما يؤكد العكس. اسمعوا هذا المنشور... (يخرج منشورا يهم بقراءته ثم يتوقف مترددا) لا لن أقرأ. يجب أن تتهيؤوا نفسيا حتى لا يسقط أحدكم مغشيا عليه. من يدري؟ الفرجة قد تقتل ..نعم، قد تقتل، فلم تضحك؟(لحمدان) استعدوا أولا ثم أقرأ المنشور ثانيا.. اسمعوا (يقرأ) لقد قرر أعضاء المجلس البلدي- الموتر طبعا- أن يقوموا بترحيل سكان الحي إلى مكان ما - الدراسات الآن جارية والموقع لم يحدد بعد، ولكن، اطمئنوا - وعليه فلابد من إفراغ حي القصدير حالا حتى يمكن هدمه وبناؤه فنادق سياحية جميلة. فكروا في السّواح والدولار والدينار... فكروا .. (ينظر إلى الثلاثي ليقرأ في العيون رد الفعل. يرمونه بنظرات غريبة). ..[1]

[1] عبد الكريم برشيد (2004). في الدرامي في مدن الصفيح. ط1. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. ص ص 14-15

1-2 النبر (*L'accent*)

يقصد بالنبر الوضوح والبروز ... مقطع ... صوتية ... أو المقاطع الأخرى نتيجة درجة ارتفاع الصوت. وعلى ذلك نجد أن الفونيم أو المقطع المنبور يمثل وضوحا سمعيا إذا قورن بغيره من الفونيمات أو المقاطع تجاوره في الكلمة. ومعنى هذا الكلام أن النبر هو قوة التلفظ البسيطة التي تتعدى الصامتات في كل مقطع من مقاطع الكلمة. ويتحقق عن طريق لضغط على مقطع معين من مقاطع الكلمة، فيعطي هذا المقطع المنبور قدر من التميز أو الوضوح السمعي. و لذي يحمل بدوره قيمة دلالية كالانفعال أو الاهتمام أو التأكيد ... إلخ.

يضطلع النبر بدور مهم في اللغة، فكل متحدث بلغة ما، يضغط على بعض المقاطع فيها، وكلما انتقل النبر من مقطع إلى آخر أدى ذلك إلى تغير دلالة الكلمات، أو الصيغة الصرفية أو المعاني في الملفوظات. وقد رأينا الشيء نفسه في التنغيم. وإضافة إلى ذلك فإن النبر يقوم بوظيفة نطقية تتصل في المقام الأول بالنظام الصوتي للغة حيث نجد أن أداء المتكلم يُقسم الحدث الكلامي المنطوق إلى أقسام ترتبط بأهمية المقاطع التي يؤديها من ناحية. كما أن أداء المتكلم لا يجري على طبعة صوتية واحدة فنجده يرتفع عند بعض المقاطع أكثر مما يرتفع عند غيرها[2]. نستخلص مما سبق أنه إذا تم تحريف مكان النبر فسيؤدي ذلك إلى عرقلة التواصل بين المرسل و لمتلقي. وهذا ما عبر عنه أندري مارتيني بقوله: إن أي كلمة لم تنبر بشكل حقيقي، لن تفهم حتى ولو نطقنا بشكل جيد الفونيمات المكونة لها. ويدل ذلك على أسبقية إدراك النبر إن تمييز المقطع المنبور عن غير المنبور، يعني أن جميع العناصر الأساسية قد أنجزها المتكلم، ومتمثلة في الجملة بشكل حقيقي، وأدركت بشكل مطاوع من قبل المخاطب[3].

[1] معجم اللسانيات الحديثة. ص 133

[2] المرجع نفسه ص 133

[3] نقلا عن عبد الحميد راهيد (1999). نبر الكلمة وقواعده في اللغة العربية. دراسة صوتية. سلسلة صوت 2. ط 1. دار وليلي للطباعة والنشر ص 19

فعلى المستوى الصرفي، للنبر وظيفة دلالية تتصل بالنظام الصرفي في بعض اللغات النبرية مثل الإنجليزية التي تميز بين الفعل والاسم في بعض الأحيان باختلاف موضع النبر حيث نجد نبر المقطع الأول في الأسماء مثل: Présent التي تعني هدية و Increase التي تعني زيادة، أما في الأفعال فيتم نبر المقطع الثاني كما يلي Présént بمعنى يهدي، Increasey بمعنى يزيد[1].

وإلى جانب هذا الدور الوظيفي للنبر على المستوى الصرفي في اللغات النبرية، هناك دور للنبر في هذه اللغات على المستوى التركيبي ويتمثل هذا الدور في المعاني الإضافية التي يمكن أن يعطيها نبر الانفعال لبعض المنطوقات الصادرة عن المرسل ككلمة' تعالى' التي يمكن أن تستعمل في الأمر أو الاستعطاف. ويرتبط هذا النوع من النبر بالجملة ولذلك يسمى نبر الجملة؛ حيث يعمد المرسل إلى نبر كلمة معينة في الجملة تأكيدا لها أو تلميحا بدلالة معينة. ومثال ذلك نبر المتكلم لكلمة 'سافر' في الجملة التالية: هل سافر أخوك؟ وذلك على افتراض أن قصد المرسل هنا هو التأكد من أن الأخ سافر ولم يقم بفعل آخر، أما إذا نبر لفظ' أخوك' فذلك من أجل التأكد من أن الأخ هو المسافر وليس شخصا آخر[2].

يتحقق 'نبر الجمل' إذن عن طريق الضغط على كلمة بعينها في إحدى الجمل المنطوقة، تكون أوضح من غيرها من الكلمات التي تتألف منها تلك الجملة، وذلك للاهتمام بها أو تأكيد عليها ونفي الشك عنها من المرسل أو المتلقي...، وهذا السلوك اللغوي شائع في كثير من اللغات. ويشير ابن جني إلى مثل ذلك بقوله '... وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: كان والله رجلا! فتزيد في قوة اللفظ بـ(الله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها. أي: رجلا فاضلا أوشجاعا أو كريما أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانا! وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا أو جادا أو نحو ذلك. كذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان

(1) معجم اللسانيات الحديثة، ص: 133.
(2) المرجع نفسه ص 133-134.

إنسانا! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنسانا لئيما أو لحزا أو مبخلا أو نحو ذلك'[1].

وقد أكد الأستاذ تمام حسان على الصلة الوثيقة بين النبر والتنغيم، بل، ذهب أكثر من ذلك حيث عدها صلة لا يمكن انفكاكها ومثل لذلك بالمثالين التاليين:

4- هل جاء زيد؟

5- متى جاء زيد؟

فالجملة الأولى ذات تنغيم صاعد، أما الثانية فتنغيمها هابط، ولا يصعد التنغيم مع الظروف- والكلام هنا لتمام حسان- إلا عند إرادة التعبير بجملة الاستفهام عن معان إضافية كالدهشة أو التعالي. ثم يضيف أن هبوط النغمة أو صعودها أو تحولها عن المستوى السابق في وسط الكلام أو آخره لا يكون إلا متفقا مع موقع النبر فلا تتحول النغمة هذا التحول إلا على مقطع منبور. يقول' ... وهذه الصلة الوثيقة بين النبر وبين التنغيم لا يمكن انفكاكها ولذلك يكثر أن يقف المرء عند احد المعاني باحثا عما إذا كان هذا المعنى وظيفة النبر بمفرده أو التنغيم بمفرده ثم لا يستطيع الجزم بأنه وظيفة أحدهما على انفراد[2].

1-3- الوقف (*La pause*):

سبقت الإشارة إلى أن المتلقي(السامع أو القارئ) يكون على الدوام في أشد الحاجة إلى نبرات خاصة في الصوت أو رموز مرقومة في الكتابة تساعد على تسهيل الفهم والإفهام عند سماع الكلام أو قراءة المكتوب. ومن تلك النبرات الوقف. وليس يدخل في غايتي هنا أن أستطرد إلى سرد التعاريف المختلفة للوقف بحسب المجالات المعرفية المتعددة التي يستعمل فيها هذا المصطلح: الشعر والنحو والعروض والقراءات القرآنية.... ولكنني بالتأكيد لن أتغافل عن ذكر بعض من هذه التعاريف التي ستخدم الفكرة التي أود تسجيلها تحت هذا العنوان والتي ترتبط بالدور الذي يقوم به الوقف في التواصل الشفهي.

(1) ابن جني: الخصائص. ج2 ص:371.
(2) تمام حسان(1994): اللغةالعربية....ص:230.

وقد عرفه صاحب "التعريفات" بقوله: الوقف في اللغة: الحبس[1]. أما صاحب "الكافي في التجويد" فيعرفه بقوله: "الوقف عبارة عن قطع الصوت عن آخر الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة"[2]. وجاء في معجم "المصطلحات العربية في اللغة والأدب" أن الوقف يراد به في الدراسات النحوية واللغوية: "كف عن مواصلة القراءة بسبب من الأسباب كتفادي تجزيء المعنى الواحد، أو البدء بما يفسد المعنى، أو أن القارئ لا يسعفه النفس"[3].

يستفاد من هذه التعريفات أن الوقف هو قطع الصوت آخر الكلمة زمنا ما، أو هو: قطع الكلمة عما بعدها، وهو من الظواهر الصوتية ذات الشأن في توجيه المعنى على مستوى التركيب.

فمما لا شك فيه أن المتكلم لا يمكنه أن يسترسل في كلامه دون انقطاع وتوقف، لأن ذلك من المحال. إذ بمقدور الإنسان أن ينجز، في المتوسط، حوالي 12 وحدة فونيمية في الثانية، وحوالي: 4 إلى 5 وحدات مقطعية في الثانية، وحوالي: 100 إلى 200 كلمة في الدقيقة الواحدة أي بمعدل كلمة واحدة في كل400 جزء من الثانية. ووفق هذه السرعة المتناهية، يسترجع الكلمات، بمعلوماتها الدلالية والتركيبية والإملائية والصواتية، المخزنة في الذاكرة، داخل المعجم الذهني الذي يتوفر على عشرات الآلاف منها[4]. إلا أنه يشترط في هذا الإنجاز أن تتعقبه لحظات صمت أو توقفات تختلف في مدتها من حيث الطول والقصر، من أجل تحقيق إدراك سليم لما يتلفظ به المتكلم. وهنا يبرز دور الوقف الذي يساعد على تقسيم الكلام إلى دفعات كلامية، تعتبر كل واحدة منها إذا كان معناها كاملا فعلا إنجازيا،

[1] الشريف الجرجاني(2003): التعريفات . وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية بيروت- لبنان. ط. 2. باب الواو. ص: 248.

[2] عبد العلي المسئول(2005): الكافي في التجويد. مطبوعات الهلال وجدة. الطبعة الثانية. ص: 122.

[3] مجدي وهبة وكامل المهندس(1979): معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مكتبة لبنان. مدخل الوقف ص: 239.

[4] مصطفى بوعناني (2004): أهمية المعجم الذهني في إنجاز اللغة وإدراكها: المعالجة المعجمية والتحت- معجمية للوحدات اللغوية. ص: 7 (مقال).

أما إذا لم يكن معناها كاملا، كالوقف على الشرط قبل ذكر الجواب مثلا، فإن هذا الفصل الإنجازي حينئذ يشمل على أكثر من دفعة كلامية واحدة[1].

فبمساعدة الوقف نستطيع أن نُميّز بين الدلالات المختلفة التي تحملها الجملة التالية:

6- **ما شاء الله.**

فإذا نطقنا بها بدون توقف فالجملة مثبتة بمعنى: "الذي أراده الله". أما إذا نطقنا بها بتوقف قليل بعد النطق بـ "ما" فيكون المعنى: إن الله لم يشأ أو لم يرد.

يرتبط الوقف إذن بتمام المعنى كليا أو جزئيا، ولذا فعادة ما يتم التمييز بين ثلاثة أقسام من الوقف هي:

- **الوقف الناقص**: ويكون هذا النوع من الوقف "بسكوت المتكلّم أو القارئ سكوتا قليلا جدا، لا يحسن معه التنفُّس" وعلامته في الكتابة الفاصلة(،) وتوضع فيما يأتي:

أ- بين المفردات المعطوفة، إذا قُصرت عباراتها وأفادت تقسيما أو تنويعا.

مثال ذلك:

7- **الكلام ثلاثة أقسام: أسم، وفعل، وحرف.**

ب- بين المفردات المعطوفة، إذا تعلّق بها ما يطيل عبارتها.

مثال ذلك:

8- **لا يستحق الاحترام "كلّ رجل لا يقرن القول بالعمل، وكل صانع لا يتوخى الإتقان، وكلّ شريفٍ يسلك سبيل التُّهم.**

ج- بين الجمل المعطوفة القصيرة، ولو كان كلّ منها لغرض مستقل.

مثال ذلك:

9- **الشمس طالعة، والنسيم عليل، والطيور مغردة، والأزهار ضاحكة.**

د- بين جُمل الشرط والجزاء، أو بين القسم وجوابه (فيما إذا طالت جملة الشرط والقسم).

مثال ذلك:

[1] تمام حسان(1994): اللغة العربية: 270.

10- إن قدرت أن تزيد ذا الحقّ على حقه وتطول على من لا حقّ له، فافعل.

11- لئن أنكر المرء من غيره ما لا ينكر من نفسه، لهو أحق.

ه- قبل ألفاظ البدل، حينما يراد لفتُ النظر إليها أو تنبيه الذهن عليها. مثاله:

12- مثل هذه اللغة، لغة العلم والحضارة، تكون حياتها مقدمة لنشأة جديدة لأهلها.

و- بين جملتين مرتبطتين في اللفظ وفي المعنى. مثاله:

13- كادت السيارة أمس تدوس طفلا، يظهر أنه أصمّ.

ز- لحصر الجمل المعترضة. مثاله قول المتنبي:

14-

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس، تُعلم

• **الوقف الكافي:** ويكون بسكوت المتكلم أو القارئ سكوتا يجوز معه التنفُّس وعلامته الفاصلة المنقوطة(؛) ويقع هذا الوقف بين كل عبارتين فأكثر، يكون بينها ارتباط في المعنى لا في الإعراب. وكذا في أحوال التقسيم والتفصيل التي يطول فيها الكلام. وأهم هذه المواقع هي:

ا- بين الجمل المعطوف بها على بعض، إذا كان بينها مشاركة في غرض واحد. مثال ذلك:

15- خير الكلام ما قلّ ودلّ؛ ولم يَطُل فيُمَلّ.

ب- قبل المفردات المعطوفة التي بينها مقارنة أو مشابهة أو تقسيم أو ترتيب أو تفصيل ... مثاله:

16 - إغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك؛ وصحتك قبل سقمك؛ وفراغك قبل شغلك؛ وغناك قبل فقرك؛ وحياتك قبل موتك.

ج- قبل الجملة الموضّحة أو المؤكّدة لما قبلها. مثال ذلك:

17 - يكون الوصل بين أجزاء الكلام فيما عدا مواضيع الوقف المذكورة؛ فلا يصح الوقف على جزء جملة لا يكتمل به المعنى.

• **الوقف التامّ:**

يكون هذا النوع من الوقف بسكوت المتكلمّ أو القارئ سكوتا تاما مع استراحة للتنفس. وعلامته النقطة(.) وتوضع في نهاية كلّ جملة مستقلة عما بعدها في المعنى والإعراب.

مثاله:

18- كان أرسطوفان أول من اهتدى إلى وضع علامات الترقيم. وقد عرفت تطورا تدريجيا منذ القرن الثاني قبل الميلاد[1].

2- العناصر الخارج لسانية المساهمة في توجيه المحاورة:

2-1 الكينزيك: (*La kinésique*)

يعود مصطلح (*kinésique*) في أصل اشتقاقه إلى اللفظ اليوناني (*Kinesis*) الذي يعني الحركة[2]. والكينزيك علم حديث ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين على يد العالم الأنتروبولوجي الأمريكي بيرد ويستيل(*Ray Birdwhistell*) في دراسة بعنوان مدخل إلى الكينزيك (*Introduction to Kinesics*) التي نشرها في أوائل الخمسينات. هذا دون أن نغفل عن الدور الهام لداروين في هذا الصدد، فقد كان من بين الباحثين الأوائل الذين اهتموا بالحركات الإيمائية وبنقل الأحاسيس التي تعكسها. وترسخ في اعتقاده الطابع الكوني لبعض هذه التعابير مثل تعابير الوجه مثلا. وقد قام بوضع تصنيف أولي للأحاسيس الأساسية عند الإنسان لازال معتمدا من قبل جل الباحثين رغم بعض التعديلات التي قد تعتوره من قبل البعض منهم[3]. ولكن سيتضح من خلال الأسطر الموالية أنه لا يمكن التصديق بكونية كل الإيماءات التي تصدر عن أجسادنا وإن كان بعضها يقبل هذا الوصف مثل إشارة اليد الدالة على الرفض والتهديد، ودعوة الابتسامة إلى التضايف والتعايش. وتختلف، في مقابل ذلك، دلالات العين من ثقافة لأخرى؛

(1) أحمد زكي باشا : الترقيم وعلاماته في اللغة العربية: ص.ص: 17-22.

(2) معجم اللسانيات الحديثة...ص: 73.

(3) *Jean- Claud Martin(1999) : Le guide De la Communcation. Marabout. P: 85*

فالغمز بالعين مثلا يستعمل للتعبير عن مشاعر الحب والإعجاب لدى العديد من البلدان. إلا أن هذه الحركة تدل في اليابان على الوقاحة وقلة الحياء، والشيء نفسه يقال عن اختلاف النظرة التي ننظر بها إلى الآخرين عند اللقاء؛ فالعرب وسكان أمريكا الجنوبية، وجنوب أوربا يميلون إلى نظرات أكثر حدة من سكان آسيا وافنود. أما في الصين واليابان فإن القيام بهذا السلوك يدل على العدوانية، وبالمقابل فإذا مال الصيني (أو الياباني) بنظره كثيرا فإنما ليعبر عن احترامه[1].

ينصب اهتمام هذا العلم إذن، على دراسة التواصل الجسدي ولاسيما الإيمائي منه. وينطلق من فرضية مفادها أن التعبير الجسدي يشكل نسقا مستنا، يكتسبه الفرد من المجتمع ويختلف من ثقافة لأخرى. فمن الملاحظ أن أجسادنا تنفعل مع ما نحاول التعبير عنه أثناء حديثنا مع الآخرين. ومعنى هذا أننا لا نتكلم بألسنتنا فقط وإنما بسائر أعضاء جسمنا كله إن الجسد الإنساني بهذا المعنى هو خزان للدلالات بتعبير الأستاذ سعيد بنكراد[2]. أو كما يقول في موضع آخر: إنه علامة، وككل العلامات لا يدرك إلا من خلال استعمالاته[3].

من عادتنا، أثناء التكلم، أن نرفق كلامنا بعدد من الحركات الجسدية (علامات غير لغوية): من تحريك لليدين (مع المشيرات مثل هذا وأنا وفي تحديد المكان والزمان مثل قبل وبعد وخلف وأمام...) وتقطيب للحاجبين أو رفعهما، وكسر الجفون ونفخ الأحناك وهز المنكبين وغمز بالعين... كل هذه الحركات عبارة عن تعابير تؤكد المضامين التي نحاول إبلاغها بواسطة الكلام أو تكمل النقص الذي قد يعتورها، وهكذا يتجلى دورها في التواصل الاجتماعي وبالتالي دورها الوظيفي.

إن استعمال هذه الحركات من قبل الأفراد لتأكيد على انتمائهم العشائري، والعقدي، والثقافي... بل تعد هذه السلوكات الجسدية أساسا لنمو شخصيتنا وتطورها؛ فقبل أن يتمكن الإنسان من استعمال اللغة استطاع أن يوصل تجاربه عن طريق الإيماء[4].

(1) *Ibid. P: 85.*

(2) سعيد بنكراد (2003): السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها.سلسلة شرفات 11 . منشورات الزمن. ص: 137 .

(3) المرجع نفسه: ص41.

(4) *Jean- Claud Martin(1999) : P:16 .*

ومعلوم أن التعرف على هذه الأمور يعد من الشروط الأولى التي تفرضها الحياة الاجتماعية مادمنا نعيش داخل نسق مرجعي تتخلله طقوس (*Rites*) متنوعة. وعلينا أن نتكيف معها حتى لا يدفع بنا غير ذلك خارج اللعبة؛ فهذه الطقوس أولاً طقوس سلوكية. وعن طريق تعابيرنا وهيآت أجسادنا وتجلياتنا الكينيزية نستطيع أن نتواصل بسهولة[1].

وتعد هذه التجليات الكينيزية بمثابة سند لنا على كشف قناع المعاني فيتحقق بذلك الفهم و الإفهام. وقد ورد عن الجاحظ قوله: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى....لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغتَ الإفهامَ وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[2]. وذكر من بين هذه الأشياء اللفظ والإشارة والعَقْد (والعقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليد) والخط والحال التي تسمى نصبةً.(النَّصبَة هي الحال الدالة) ويهمني في هذا الموضع حديثه عن الإشارة حيث يقول: " أما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدَّد رافع السَّيف والسَّوط، فيكون زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيراً[3].

وقد عدّ الجاحظ الإشارةَ عوناً للفظ، و نعم العونُ هي له ونعم التُرجمان هي عنه؛ فغالبا ما تنوب عن اللفـ وعن الخط، ومن ذلك المقامات التي يتم فيها استخدام الإشارة بالطَّرْف والحاجب وغير ذلك من الجوارح في أمور يسترها بعض الناس عن بعض. بل إن الجاحظ ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في أهمية الإشارة حيث قال: "ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنًى خاصّ الخاصّ، ولجهلوا هذا الباب البتّة[4].

وقد أورد بيتين شعريين للشاعر أبي العتاهية في دلالات الإشارة:

(1) *Ibid. 17.*

(2) الجاحظ. البيان والتبيين .ج1. ص:76.

(3) المرجع نفسه: ص: 77.

(4) المرجع نفسه: ص: 78.

-19

أشارتْ بطَرْفِ العين خيفةَ أهلِها ... إشـارة مـذعورٍ ولم تتكـلّم
فأيقنتُ أنّ الطَّرفَ قد قال مرحباً ... وأهـلاً وسَـهلاً بالحبيـب المتيّم

لقد وعى الجاحظ أهمية الإشارة ودورها الفعّال إلى جانب اللسان في التواصل، وعبر عن ذلك بقوله: "وحُسنُ الإشارة باليد وبالرأس من تمام حسن البيان باللسان"[1]. وإذا كانت الإشارة نِعمَ العون للفظ في تبليغ المعاني كما سلف الذكر، فإنها في مثل حالة هذين العاشقين تفوق اللفظ في التعبير قوة فـ "رب إشارة أبلغ من عبارة؛ فقد أخبرتِ العينُ ـ وليس اللسان ـ العاشقَ أن المعشوقة تبادله الحب والعواطف الجياشة يقول الجاحظ: "ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت"[2]. ويتضح ذلك أيضا في قول شاعر آخر:

-20

العينُ تُبدي الذي في نفس صاحبها ... مـن المحبّـة أو بُغـضٍ إذا كانـا
والعين تنطق والأفـواهُ صامـتةٌ ... حتى ترى من ضمير القلب تِبيانا

إن العين لتكلمنا بما يحوي قلب المتكلم، وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: "وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التي تظهر فيها وفي نظرها وخواص أوصافٍ يحدس بها على ما في القلوب من الإنكار والقبول"[3].

لقد درس العلماء التواصل غير اللفظي، لتحديد حجمه، أو نسبته في تواصلنا اليومي. ولاحظوا أنه في موقف ما، يكون التواصل غير اللفظي، هو كل الرسالة، أي بنسبة 100٪، مثل رجل يعجب بامرأة، فيغمز لها بعينه، من دون ألفاظ. إن العين بهذا قد تجاوزت وظيفتها الغريزية إلى فعل ثقافي.

(1) المرجع نفسه. ص: 79.
(2) المرجع نفسه. ص: 79.
(3) عبد القاهر الجرجاني (1983):أسرار البلاغة. تحقيق هـ. ريتر. ط3. دار المسيرة- بيروت ص: 49.

والمتكلّم، والكلام هنا للجاحظ، قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه. حتى أن الأسلاف فرّقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني. ولو قُبضت يده ومُنع حركة رأسه، لذهب ثلثا كلامه"[1].

وتستأثر حركات اليدين وتعابير الوجه بحصة الأسد في هذا المضمار، ويمكن أن نقدم في هذا الصدد مثالا حيا على أهمية ملامح الوجه، في الكشف عن الانفعالات التي لا يعبر عنها اللسان بالحالة المأساوية التي لاحظناها، عبر التلفاز، بخصوص "جون ماكين" مرشح الحزب الجمهوري لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، أثناء المناظرة الثالثة التي جمعته بخصمه الديموقراطي "باراك أوباما"؛ فقد كان "ماكين" عصبيا ومتوترا ؛ حيث كان يكثر من رفع حاجبيه وعض شفتيه، وفي مقابل ذلك كان "أوباما" يبدو أكثر ثباتا وارتياحا حيث كان يبتسم حتى في الحالات التي كان يتعرض لهجوم من قبل "ماكين" وكل هذه الأمور من شأنها أن تؤثر في نتيجة الانتخابات لصالح "أوباما".

أما تعابير الوجه وأهميتها في التواصل الشفهي فقد أكدّ "مارتان" أن غياب تعابير الوجه يعني في الآن نفسه غياب التواصل[2]. وليس في وسع أي عضو من أعضاء الجسم أن يبسط لنا مثل هذه الأحاسيس التي تترجم المشاعر المختلفة للإنسان . وميز بين منطقتين في الوجه: أعلى الوجه و [illegible]، كما حدد لكل عضو فيه دلالاته المختلفة التي قد يحملها . وهي على الشكل الآتي:

(1) الجاحظ: البيان والتبيين. ج3. ص: 119.
(2) Jean- Claud Martin(1999) :P: 80

أعلى الوجه

الحركة	دلالتها
النظرات المختلفة	الأمر والتوجيه- المكر- الدهشة-
تقطيب الجبهة	الصعوبة- الألم- الدهشة والذهول
تقطيب الحاجبين	المشكل- الصعوبة
خفض حاجب واحد	الشك – الارتياب
جعيدات حول العينين	الابتسامة- اللطافة

أسفل الوجه

الحركة	الدلالة
قبض المنخارين	الغضب – القسوة
فتح الفم	الدهشة - الفضول- الخوف
ابتسام الفم	أكثر من 50 ابتسامة مختلفة
فتح الفم وإبداء الأسنان (حركات الفم غير متناسقة)	التكشيرة – الشك
عضعضة الشفتين	الكذب – المشكل - الصعوبة
خفض إحدى زوايتي الفم	الحزن – التقزز
إعلاء إحدى زاويتي الفم	ابتهاج – الرضى
قبض الفكين	الألم – الغضب[1]

ولقائل أن يقول: إن اعتماد تلك الحركات والإشارات دليل على عجز الكلام عن التبليغ. إلا أن الصواب خلاف ذلك، فقد ضرب لنا الجاحظ مثالا بحال النساء في مقامات النياحة، إذ يعمدن إلى الإشارة بالمآلي(خرقة تمسكها المرأة عند النواح) وضرب الصدور

(1) *Ibid. P:81.*

بالنّعال. ولكن ذلك كله لا يعد عجزا منهن عن التعبير، وإنما يكون العجز والذّلة متى دخل الخلل والنقص على الجوارح، أما الزّيادة فيها فالصواب فيه[1].

ولم يغب عن التداوليين الدور الهام لهذه الحركات فقد قال أوستين: إنه بمقدورنا استخدام الحركات والإشارات أثناء الكلام نحو: الغمز بالعين والإشارة باليد ورفع الكتف وتقطيب الحاجبين، أو أفعال طقوسية غير لفظية، بل قد يتم استخدام هذه الحركات في بعض الأحيان، دون استعمال الكلام وهنا تتجلى أهميتها القصوى[2].

وإذا كان التواصل هو إقامةُ العلاقة، والاشتراكُ في المعلومات التي يتم بثها واستقبالها، فإن ذلك يعني أن أي استخدام لهذه الحركات لا يمكن أن يكون ناجحا ما لم يسبق هذا الاستخدام تعاقدٌ بين أطراف المحاورة حول الدلالات المختلفة التي تحملها هذه الحركات. لذلك فحتى يتحقق القصد الذي نرغب أن نبلغه للمتلقي، لابد أن نتقن استعمال هذه الحركات المرافقة لكلامنا. كما يفترض في المتلقي أن يكون على قدر من الذكاء، بحيث يستطيع فهم مراد المتكلم من حركة أو إشارة يقوم بها أثناء تواصلهما. معنى هذا، أن هذه التعبيرات، وإن كان بعضها يتميز بالكونية، فإنها من إنتاج الثقافة. لذلك، قد نجد اختلافا في كيفية استعمال هذه الإشارات من ثقافة إلى أخرى وكذا في طاقتها التعبيرية. ومثال ذلك اختلاف الطريقة التي يتم بها تحريك الرأس للدلالة على الرفض أو القبول من ثقافة إلى أخرى فهناك أمم تعبر عن الرفض بتحريك الرأس مرات متعددة من اليسار إلى اليمين، في حين أن أمم أخرى تعبر عن هذا الرفض بتريك الرأس من الأعلى إلى الأسفل الذي يعني القبول بالنسبة للأوائل. ولعاملي المناخ والجغرافيا في ذلك الدور الكبير، ومن ذلك ما يقال عن سكان ضفتي المتوسط بخصوص ميلهم إلى المزج بين الملفوظ اللساني والملفوظ الإيمائي، وهذا ما يعني أن الاستعمال الاجتماعي للسان مرتبط أشد الارتباط بالاستعمال الاجتماعي للجسد. فاللسان الأصلي المتجذر في وجدان الفرد له جسد أصلي يقابله كما قالَ دافيد لبرطونْ (*David Lebreton*). وهو ما عبر عنه هالْ بقوله: إن الذين ينتمون إلى ثقافتين

(1) الجاحظ. ج3: 117.

(2) *J.L Austin: Quand dire, c'est faire. P.P: 96.*

مختلفتين لا يتكلمون لغتين مختلفتين فحسب، بل يسكنون عوالم حسية مختلفة[1]. ومثالنا في ذلك، الطريقة التي يتحدث بها الإنسان الأمازيغي الذي لا يجيد الحديث بالدارجة المغربية؛ بحيث يمكن أن نلاحظ بسهولة تلك الهوة الفاصلة بين ما يقوله وبين الانفعالات التي ترتسم على محياه. فقد يكون بصدد قول شيء معين ولكن إيماءاته قد تشير إلى عكس ذلك، أو على الأقل لا تساعد في إبلاغه بالشكل نفسه لو اعتمد لغته الأم. والسبب في ذلك هو انعدام التوافق بين لغة محيطه وارتباطها بالثقافة الأمازيغية، وبين تلك الحركات المنبثقة عن محيط مغاير لمحيطه و للثقافة المشكّلة لهذه الحركات والبانية لها. فهذا المتكلم يجب أن تتوافر لديه صورتان مختلفتان عن الواقع بتعبير "هال"، وهذا راجع بالأساس إلى أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه ولذلك فإنه دائم البحث عن الكيفية التي تتم بها العلاقات بين الأفراد والمجموعة التي ينتمي إليها.

لقد تبين لنا بشكل جلي أن الكلام ليس النسق الوحيد الذي يستعمله الإنسان للتواصل مع غيره؛ فهناك مجموعة من المحددات الصوتية مثل النبر والتنغيم والوقف... التي تسهم في تحديد دلالات ومعاني الملفوظات. ولكن هناك - من ناحية ثانية - أيضا أنساق أخرى وأنماط سلوكية غير لسانية تصاحب كلامنا وتدعمه مثل تعابير الجسم المختلفة: من حركات اليدين والشفتين والعينين المصاحبة للكلام، وكذا طريقتنا في الوقوف والقعود والمشي، وشتى أنواع التعبيرات المختلفة التي نلاحظها على بشرة الوجه مثل تغير اللون (اصفرار، أو احمرار، أو شحوب اللون...) والتصبب عرقا وارتعاش الأطراف....

زيادة على ما تم ذكره من الأمور التي تساعدنا في فهمنا لمقاصد للآخرين وإفهامهم مقاصدنا أود أن أنتقل إلى الحديث عن دور الحيز المكاني (التجاور والتقارب) في تسهيل التواصل بين المتحاورين أو إعاقته.

[1] سعيد بكّراد، (2003): ص.ص: 90-91.

2-2 البروكسيميك (*La proxémique*):

البروكسيميك علم يهتم بدراسة الكيفية التي ينظم بها الإنسان الفضاء بن المكاني والزماني ويستثمرهما في التواصل مثل المسافة بين المتحاورين. ويعود الفضل في تأسيس هذا العلم للعالم الأمريكي إدوارد طوماس هال (*E. T. Hall*) في كتابه "اللغة الصامتة" (*The Silent Language*).

فقد دلّت المشاهدة وعززها الاختبار أن الإنسان لا يقتصر، أثناء التواصل، على الكلام، بل يستعين بالحركات الجسدية كما سلف الذكر، ويضيف إلى كل ذلك توظيف الحيزين المكاني والزماني؛ ففي كل ثقافة يكون هناك نوع من التواضع بين أفراد المجتمع بخصوص المسافة التي ينبغي أن تفصل بين الأفراد المتحاورين أثناء التواصل، بحسب نوعية العلاقة الرابطة بينهم والقصد من هذا التواصل ونوع المعلومات المراد إبلاغها ...

من الملاحظ أن الإنسان يقوم، مثله مثل الحيوان، بتحديد مناطق النفوذ التي لا يسمح لأحد بتخطيها وتجاوزها وإن اختلفت طرق هذا التحديد بينهما، فإذا كان الحيوان، الكلاب مثلا، يعتمد في ذلك على عملية التبول في مناطق نفوذه ليخبر الآخرين من بني جنسه بهذه الحدود الممنوع تخطيها من قبل أي غريب، فإن الإنسان يحدد هذه المناطق عن طريق القوانين والاستدلالات أو الضرورات الوظيفية التي تقيه من الأعداء والمتطفلين[1]. وقد ميّز مارتان بين ثلاثة أنواع من الأحياز هي: الحيز القَبَلي أو العَشيري (Tribal)، والحيز العائلي ثم الحيز الشخصي[2]. ومن المفيد جدا أن نحسن ترك المسافة اللازمة بيننا وبين الآخرين وخاصة في الأماكن العمومية: المقهى، ساحة عمومية، الشاطئ... فليس هناك مسافة محايدة.

[1] *Jean- Claud Martin(1999) .P: 54.*
[2] *Ibid. P. 54.*

وقد حدد هال ثمان مسافات دالة يمكن أن تفصل بين المتخاطبين الأمريكيين وهي:

المسافة الدالة	الصوت المعتمد	موضوع المحاورة	المسافة المعتمدة
شديدة القرب	الهمس الخافت	سري جدا	بين 5و 20 سم
قريبة	همس مسموع سري	سري وحميمي	بين 20و 30 سم
محايدة	صوت خفيض في الداخل وقوي في الخارج	سري وحميمي	من 30 إلى 50 سم
محايدة	صوت خفيض وضعيف	موضوع شخصي	من 50 إلى 90 سم
محايدة	صوت قوي	موضوع غير شخصي	من 1.30 م إلى 1.50 م
المسافة العمومية	صوت قليل مفخم قليلا	خبر عمومي موجه للآخرين علاوة على المخاطب	من 1.60 م إلى 2.40 م
غير الحجرة	صوت مرتفع	مخاطبة جماعة	بين 2.40 م و 6 م
مجاوزة للحدود	صوت مرتفع	نحية من بعيد- انصراف	من 6 م إلى 30 م[1]

وقد أشار بْيير غيروْ إلى أن محددات المكان السمعية هي التي تتحكم ،بداهة، في هذه المسافة، كما أنها اتفاقية إلى حد بعيد؛ ومثل لذلك بحرص الأمريكيين الناطقين بالانجليزية على اتخاذ مسافة محددة بينهم وبين مخاطَبيهم، في حين يجنح اللاتينيون إلى تقليصها. وهو ما سجله عن هال حين قال: "المسافة في أمريكا اللاتينية أصغر مما عليه في الولايات المتحدة. ذلك بأن اللاتينيين لا يشعرون بالراحة في مخاطباتهم إلا إذا كانت المسافة بينهم أقرب من تلك التي تثير في أمريكا الشمالية مشاعر الشبق الجنسي أو العدوان. والنتيجة هي أنهم كلما اقتربوا منا تراجعنا إلى الخلف. وبذلك يجدوننا متحفظين أو مُقْرِفين وغير ودودين. أما نحن فنتهمهم دائما بالنفخ في وجوهنا ومحاصرتنا ورشّنا بلعابهم"[2].

إن الجهل بهذه الدلالات المختلفة للمسافة التي ينبغي أن تفصل بين المتكلمين، والتي تختلف من ثقافة لأخرى، من شأنه أن يوقع في مشاكل عديدة أثناء التواصل. وقد سجل هال أن الأمريكيين الذين عاشوا فترة في أمريكا اللاتينية، دون أن يدركوا دلالة هذه المسافة، يعمدون إلى اعتماد حيل أخرى من قبيل الاحتماء بمكاتبهم، واستعمال الكراسي والطاولات

(1) بيير غيرو: سيميائيات التواصل الاجتماعي. ص:48.
(2) المرجع نفسه. ص: 49.

لإجبار الأمريكي اللاتيني على مراعاة المسافة اللائقة في نظرهم. والنتيجة هي أن الأمريكي اللاتيني قد يقفز على الحاجز إلى أن يبلغ المسافة التي يمكن أن يتحدث فيها براحة"[1].

تبين لنا بشكل واضح أن الحيز المكاني يضطلع بدور هام في تنوا صلاتنا اليومية، وأود أن انتقل إلى الحديث عن أهمية الحيز الزماني في هذا التواصل. ويتجلى ذلك بوضوح حينما نود مقابلة شخص معين في إطار اللقاءات المهنية أو الشخصية...حيث يُفرض علينا أن ننتظر لمدة زمنية معينة قد تطول وقد تقصر بحسب المقام. يقول بْيير غيروْ: "فمعلوم أنه حتى أبسط الموظفين يفرضون على زوارهم فترة انتظار تتناسب مع رتبهم و أهميتهم الإدارية، والتي بدونها يشعرون أن حقا من حقوقهم قد أهدر"[2].

ويتخذ الحيز الزمني، شأنه في ذلك شأن الحيز المكاني، طابعا اتفاقيا، بحيث يختلف استعماله وتحديده من ثقافة لأخرى. ومعنى هذا أن الزمن ذو بعد ثقافي هو أيضا؛ ومثل بْيير غيروْ لذلك بالماغول الأكبر الذي كان يفرض على السفير انتظار ثلاثة أشهر قبل أن يستقبله. فالزمن بهذا المعنى يكتسي طابعا رمزيا، كما هو الشأن بالنسبة للمكان. وتختلف دلالات هذه الرمزية من ثقافة لأخرى. وعليه، فإن هذين المحددين يعتبران علامتين دالتين، تحددان لنا نوع العلاقة الرابطة بين المتكلمين وطبيعتها.

إن ما تم تناوله في هذا الباب الذي خصصته للحديث عن التواصل الشفهي سواء من حيث أنواعه المختلفة. حاورة، ومقابلة، وعرض، واجتماع، أو من حيث العناصر الموازية لسانيا: النبر والتنغيم والوقف... والخارج لسانية: الحركات والإيماءات والمسافة، يؤكد لنا بشكل لا مجال فيه للشك ـ أن هذا النسق التواصلي يتميز بالتعقيد الذي يعود بالأساس إلى تعدد الأنساق التي تساهم بقدر متفاوت، وبصيغ مختلفة في إنجاح هذه السيرورة التواصلية أو إفشالها. وهذا التعقيد أكبر من أن تحتويه دراسة فردية، وخاصة إذا علمنا وجود أنساق أخرى لم يتم تناولها في هذا البحث مثل: الألبسة ومختلف أشكال البروتوكولات الأخرى... التي تشتغل إلى جانب الكلام بشكل يستعصي معه الحديث عن تواصل شفهي بحت، وأعني هنا التواصل وجها لوجه.

(1) المرجع نفسه. ص: 49.
(2) المصدر نفسه. ص: 49.

الفصل الثالث

الكفاية التواصلية المطلوبة في المحاورة

(la compétence communicative)

1- مفهوم الكفاية التواصلية

ما المقصود بالكفاية التواصلية؟ وما هي مكوناتها؟ وما هو الدور الذي تضطلع به أثناء عملية التواصل اللساني؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة هو ما سيشكل محور هذا الفصل.

ينتمي مصطلح الكفاية[1] إلى حقول معرفية متعددة ومختلفة. ويعود ذلك إلى تعدد الخلفيات العلمية للباحثين الذين يستعملونه في تخصصات عدة: القانون والبيولوجيا و البيداغوجيا... ويهمني في الوقت الراهن تحديد المقصود بهذا المصطلح في مجال اللسانيات وعلاقته بالتواصل.

يعود لفظ كفاية في استعماله في اللسانيات إلى شومسكي (Noam Chomsky). وقد كان لهذا المفهوم أثر بارز على العلوم الإنسانية وتخص بالذكر اللسانيات. والكفاية، حسب شومسكي، هي المعرفة اللسانية الضمنية للأفراد المؤهلين لاستعمال لسان معين؛ فعندما يملك الفرد لسانا ما فإن ذلك دليل على أنه قد استبطن نظامَ القواعدِ التي تُحدِّد الشكل الفونيتيقي للجملة ومضمونها الدلالي.

وترتبط الكفاية، عند شومسكي، بمفهوم آخر لايقل عنها أهمية و هو مفهوم الإبداعية في اللغة؛ وتتجلى هذه الإبداعية في قدرة مستعملي اللسان الطبيعي، انطلاقا من

---

(1) لقد واجهتني عدة صعوبات في البحث عن تعريف دقيق ومحدد لمفهوم الكفاية؛ من جهة، كما واجهتني صعوبات في ترجمته إلى اللغة العربية، وذلك بسبب تعدد الترجمات الخاصة به، فمن الباحثين من ترجمه بالقدرة (أحمد التوكل وعز الدين البوشيخي، وآخرون) ومنهم من ترجمه بالكفاية ومنهم أستاذنا الدكتور إدريس سرحان، وقد اعتمدت هذه الترجمة الأخيرة لدقتها ووضوح دلالتها.

عدد محدود من القواعد، على توليد عدد غير محدود من الجمل؛ فعندما نستعمل، مثلا، القاعدة التالية:

ج ← م ف + م س + م س

فإننا نتمثل في الحقيقة المظهر الإبداعي للغة؛ حيث إن هذه القاعدة المختصرة تمثل توالدا لعدد غير نهائي من الجمل. وتتميز الكفاية عند شومسكي بميزة أساس وهي أنها كفاية نحوية صرف.

أما الكفاية التواصلية عند التداوليين فإنها لا تنحصر في معرفة مستعملي اللسان الطبيعي بالقواعد الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية فحسب، بل تتعداها إلى معرفة القواعد التداولية التي تساعد على إنتاج عبارات لغوية سليمة وفهمها في مختلف مقامات التواصل المتنوعة بتنوع مقاصد المتكلمين[1].

إن الكفاية التواصلية، في النظريات المؤسسة تداوليا، تجمع بين الكفاية النحوية والكفاية التداولية معا؛ حيث لا يمكن الفصل بينهما دون الإخلال بالتواصل، لأنه لا يمكن الفصل بين نسق اللغة والقواعد الضابطة لاستعمال هذا النسق بأنواعها المختلفة: ثقافية واجتماعية وأخلاقية... وعلى هذا الأساس، يمكن تحديد بعض مميزات الكفاية التوصلية فيما يلي:

- إنها كفاية مكتسبة.
- وكونية.
- ومركبة، حيث إنها تضم كفايات فرعية مختلفة ومتكاملة فيما بينها.
- وإجرائية، لأنها ترتبط بمهارات وسلوكات قابلة للأجرأة في مقام وسياق تواصليين.
- إنها كفاية واحدة، أي أن الكفاية التواصلية لا تُجزأ إلى كفايات تتعدد وتختلف بتعدد واختلاف أقسام الخطاب (من الكلمة إلى النص). وهذه الوحدة هي ما يُمكّن مستعملي اللغة الطبيعية من التواصل فيما بينهم بغض النظر عن نوع العبارات اللغوية وحجمها. والحديث عن كفاية تواصلية واحدة ورفع تجزيئها لا يخص أقسام

(1) أحمد التوكل(2003): الوظيفية بين الكلية والنمطية. دار الأمان للنشر والتوزيع الرباط. ط 1. ص: 19.

الخطاب وإنما يمتد إلى أنماطه كذلك. فليس هناك، مثلا، كفاية خاصة بالخطاب الأدبي (الإبداعي، الفني) تخالف كفاية الخطاب العادي. فالكائنات البشرية، حسب الأستاذ أحمد التوكل، تمتلك الكفاية نفسها التي تُمكّنها من إنتاج أنماط الخطاب وفهمها إلا أن بعضهم يفعّل ويغذي جوانب معينة من هذه الكفاية أكثر من بعض؛ فالأدباء، مثلا، يختلفون عن غيرهم من مستعملي اللغة الطبيعية في كونهم يُفعّلون الجانب الفني من الكفاية اللسانية ويغذونه، في حين أن هذا الجانب من الكفاية يظل كامنا عند الآخرين ولكنه غير منعدم يمكنهم من فهم الخطاب الأدبي وتأويله وإن لم ينتجوه[1].

لقد شكل موضوع الكفاية ـ ولا يزال ـ أرضية خصبة للعديد من الباحثين الغربيين (شومسكي و ديك وهايمز وأريشيوني...) والعرب (الأستاذ إدريس سرحان وأحمد المتوكل وعز الدين البوشيخي والفاسي الفهري...). وكان لاختلاف مشاربهم المعرفية (التداوليون والتوليديون) أثر في اختلاف تصورهم للكفاية التواصلية. ويمكن تبين الفرق بين أصحاب التوجه التوليدي، وأصحاب التوجه التداولي (الوظيفي على الخصوص) في تصورهم للظاهرة اللغوي وللكفاية التواصلية من خلال الجدول الآتي للباحثة أوريشيوني:

(1) المرجع نفسه. ص: 20.

وقد حظيت هذه الكفاية باهتمام كبير من قبل الباحثين، يدل على ذلك تعدد الأبحاث والدراسات المعمقة المرتبطة بمختلف مكوناتها (صوتية وتركيبية وصرفية ومعجمية) في مقابل الكفايات الأخرى[1].

2- الكفاية الموسوعية:

إذا كان دور الكفاية اللسانية هو مساعدة المتلقي على التوصل إلى استخراج المعلومات التي يتضمنها ملفوظ معين *(Intra-énoncives Les informations)* أي: المحتويات المتواجدة داخل النص والسياق، فإن دور الكفاية الموسوعية هو تمكين مستعمل اللغة الطبيعية من تكوين مخزون معرفي منظّم والاحتفاظ به وتوظيفه حين الحاجة، كما تمكنه كذلك من اشتقاق معارف من عبارات لغوية واختزانها ثم استعمالها في تأويل عبارات لغوية أخرى[2].

وتشكل هذه الكفاية خزانا كبيرا ومتناميا باستمرار، يضم عددا هائلا من المعلومات المتواجدة خارج الملفوظ إنها مستقاة بالأساس من المقام والتجارب السابقة ولذلك تعد معلومات خارج تلفظية *(Extra- énonciatives Les informations)*[3].

ويضم هذا الخزان مجموعة من المعارف والمعتقدات ونسقا من التمثلات والتخمينات التي يمتلكها الأفراد حول محيطهم المرجعي...[4]. ففي كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم. وتشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل.

ويمكن لهذه المعلومات الموسوعية، بحسب الحالات، أن تكون:

- معلومات عامة أو خاصة.

(1) C.K Orecchioni (1980): l'énonciation de la subjectivité dans le langage. Armand Colin. Paris. P 185.

(2) أحمد المتوكل(2001): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص. ص:36.

(3) ويعرف هذا الخزان بمسميات مختلفة نحو: الرصيد المعرفي *(Bagage Cognitif)* والمعلومات القبلية *Informations Préalable)* والمسلمات :الاعتقادية *(Axiomes De Croyance)* والمعلومات الخلفية والمسلمات الضامنة...

(4) C.K Orecchioni (1986)P: 162.

- لها علاقة بالعالم أو بفواعل التلفظ.
- محايدة أو قيمية تقديرية إيديولوجية.
- مشتركة أو غير مشتركة بين المتفاعلين، مع العلم أن التبادل اللفظي لا يمكنه أن يتحقق إلا من خلال جدلية الهوية *(L'identité)* والاختلاف *(Différence)*؛ حيث إنه يقوم على أساس المعرفة المشتركة، أما إذا كان هناك تباعد و تباين في هذه المعرفة فغالبا ما يؤدي ذلك إلى فشل في التواصل[1].

ويمكن أن أمثل لهذا المخزون بدائرتين تمثل إحداهما مخزون المرسل، بينما تمثل الثانية مخزون المتلقي. والتفاعل بين المرسل والمتلقي يعني في حد ذاته وجود مخزون من المعلومات مشترك بين طرفي المحاورة، وهذا من شأنه أن يقيم عملية تواصلية فعالة *(efficace)*.

ويمكن أن نمثل لذلك على الشكل الآتي:

الحالة (1):

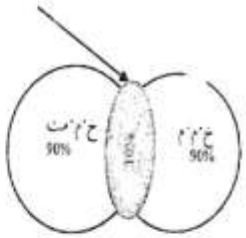

نلاحظ في هذه الحالة (1)، أن خزاني المعلومات بالنسبة للمرسل والمتلقي، لا يتقاطعان إلا بشكل ضئيل، ولذلك فإن التواصل بينهما سيكون صعبا؛ حيث إن المتلقي لن يستطيع فك تسنين سوى عدد قليل من رموز رسائل المرسل.

(1) IBID . PP: 162-163.

الحالة (2):

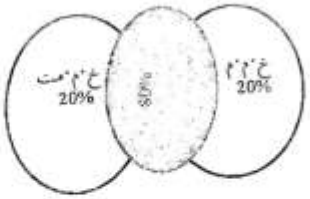

بينما نلاحظ في هذه الحالة، أن خزاني المعلومات عند كل من المرسل والمتلقي يتقاطعان بنسبة كبيرة جدا، ولذلك سيتم التواصل بينهما بشكل شبه تام وناجح.

الحالة (3):

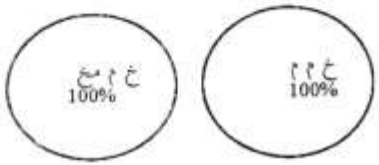

أما في هذه الحالة الثالثة، وكما هو واضح، فإن خزان المعلومات عند كل من المتكلم والمخاطب اليتقاطعان وهذا يعني أنهما مختلفان، وبالتالي فسيكون هناك انقطاع في التواصل.

وبخصوص أهمية المعرفة المشتركة يقول جورج لا يكوف ومارك جونسن: "عندما لا يشترك الناس الذين يتحاورون في نفس الثقافة، ونفس المعرفة، ونفس القيم، ونفس المسلمات، فإن الفهم المتبادل يكون صعبا. إن هذا الفهم يكون ممكنا من خلال التفاوض بشأن المعنى..."[1].

ويظهر أثر هذه الكفاية أثناء تفكيك المحتويات الصريحة، ولكن دورها يتضح بشكل فعّال حينما يتعلق الأمر بالمحتويات الضمنية؛ فقصد الاستدلال على المحتوى المسكوت عنه (*Sous entendus*) أو التلميحي لابد من الاعتماد على معرفة خاصة خارجة عن الملفوظ؛

(1) جورج لايكوف ومارك جونسن: الاستعارات التي نحيا بها. عن ترجمة. عبد المجيد جحفة. (1996) ط 1. دار توبقال. ص. 216.

إذ لا نستطيع الحكم بأن تعبيرا معينا هو تعبير مجازي إلا في ضوء معرفتنا بالعالم الواقعي أو بالأحرى ما نظن أن المتكلم يعتقده بخصوص ذلك العالم"[1].

يظهر، من خلال ما سبق، أن كل خطاب يتأسس على مجموعة من المسلمات الصامتة التي يتم تخزينها داخل الكفاية الموسوعية. ولتأكيد الدور الفعّال الذي تقوم به هذه الكفاية في اكتشاف المعاني الضمنية نأخذ المثال الآتي:

1- هل نشرب القهوة؟

1-1 لا، لن أشرب القهوة.

1-2 لا أتناول المنبهات.

1-3 أريد النوم باكرا.

حيث إن عملية تأويل الملفوظين (1-2 و 1-3) لا تقوم على منطوق الملفوظ فقط كما هي حال الملفوظ (1-1)، وإنما تقوم أيضا على المعرفة المشتركة (القهوة منبه)، وعلى عملية التلفظ (كيفية التلفظ)، وتظل المعرفة المشتركة دائمة الحضور في مقابل "التلفظ" الذي قد يغيب ويحضر "الملفوظ" أو العكس، أي أن يحضر "الملفوظ" ويغيب التلفظ. وتتطلب عملية تأويل الجواب (1-3) تشغيل الكفاية المنطقية الاستدلالية لأن المعنى المقصود هنا هو معنى مستلزم حواريا، والتوصل إليه يقتضي من المتلقي إدراك أن المرسل قد خرق مبدأ العلاقة أو الورود (M. de relation) القائم بين السؤال والجواب، مع محافظته على مبدأ التعاون، وهذا يدعو إلى البحث عن المعنى المستلزم المقصود. وعلى ضوء كفايته الموسوعية- وخاصة معرفته أن القهوة منبه يُذهب النوم عن شاربها- يستطيع المتلقي هنا إدراك المعنى المقصود وهو رفض محاوره تناول المنبه.

إن ما يساعد المرسل على إبلاغ أكثر من المحتوى الحرفي للملفوظ هو وجود خلفية من المعطيات المعرفية والمقامية المشتركة المتعددة والمعقدة، التي ليست في وعينا دائما، ولكننا قادرون على استنتاجها بوسائل مختلفة و هو ما يعرف بالاستنتاج التداولي.

(1) C K Orecchioni (1986)P: 164.

وقد عدّ الأستاذ طه هذه المعرفة المشتركة ضابطا من الضوابط الصارفة لآفة العنف سماه ضابط الحقائق المشتركة. وصورته العامة "يُثبت الرأي بالبناء على المعارف والأحكام المشتركة"[1]. ومقتضى هذا الضابط أن يعمل كل واحد من المتحاورين جاهدا من أجل استخراج آرائه ودعاويه من جملة الوقائع والقيم التي تُعد رصيدا مشتركا بينهما. وتختلف درجات التسليم بهذه الآراء بحسب درجات الاشتراك في هذه القيم والوقائع وبحسب قوتها، وهو ما عبر عنه الأستاذ طه بقوله: "ويكون التسليم بهذه الآراء على قدر قوة هذه الوقائع والقيم المشتركة، نظرا لأن درجة الاشتراك فيها ليست واحدة، وإنما درجات متعددة يعلو بعضها بعضا؛ فمنها، مثلا، ما يُعدّ إنكاره خروجا عن طور العقل، ومنها ما يعتبر الشك فيه جهلا بمجرى الطبيعة، ومنها ما يُعدّ القدح فيه خروجا عن مقتضى العادة، كما أن نطاق هذا الاشتراك ليس واحدا، وإنما نطاقات متعددة يزيد اتساع بعضها على بعض؛ فمن الوقائع والقيم، مثلا، ما يشترك فيه جميع عناصر الجماعة، بحيث يكون مُلزِما لها على السوية، ومنها ما تشترك فيه هذه الفئة أو تلك من الفئات المكوِّنة لهذه الجماعة، ومنها ما يختص به المتحاوران، بحيث لا يكون ملزما لغيرهما"[2].

3- الكفاية المنطقية:

تُمكّن هذه الكفاية مستعملَ اللغة الطبيعية من اشتقاق معارفَ جديدة انطلاقا من معارف سابقة اعتمادا على مجموعة من العمليات الاستدلالية التي تحكمها مبادئ المنطق الاستباطي والمنطق الاحتمالي[3].

مثال ذلك:

2- جاء فلان لزيارتي، إذن فهو يعاني من مشاكل.

فهذا القياس غير تام لأنه حذفت منه المقدمة الكبرى، وبالتالي فهذه بنية سطحية لبنية عميقة يمكن توضيحها على الشكل الآتي:

(1) عبد الرحمان طه(2002): الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. المركز الثقافي العربي. ط 1. ص: 39.

(2) المرجع نفسه. ص: 39.

(3) Simon C Dik (1989): the theory of functional grammar. FORIS Publicatins. P:1.

- المقدمة الكبرى: لا يزورني فلان إلا إذا كان يعاني من مشاكل.
- المقدمة الصغرى: والحال أن فلانا قد جاء لزيارتي.
- النتيجة: إذن فهو يعاني من مشاكل.

وتشتغل الكفاية المنطقية بتفاعل مع الكفاية الموسوعية وتكون نتيجة هذا التفاعل توليد معلومات جديدة انطلاقا من معلومات قديمة، ويحصل ذلك كالآتي:

ويدعى هذا النمط من المنطق منطقا وظيفيا يختص بالتركيب والدلالة؛ حيث يقوم التركيب بتحديد أنماط العبارات المنطقية بينما تهتم الدلالة بكيفية تأويل هذه العبارات. ويتم ذلك اعتمادا على قواعد التأويل والقواعد الاستدلالية[1].

تساعدنا الكفاية المنطقية إذن على إنجاز عدد من العمليات الاستدلالية المختلفة. وتعدّ العلاقة الاستدلالية، حسب الأستاذ طه عبد الرحمان ، بَانِيَةً لحقيقة الخطاب إلى جانب العلاقة التخاطبية يقول: "إذا ثبت أن الحجاج هو الأصل في الخطاب، ثبت أيضا أن العلاقة الاستدلالية هي علاقة أصيلة يتفرع عليها سواها ولا تتفرع على سواها؛ فإذا تضمن الخطاب علاقة تخاطبية فيجب إذن ردّها إلى العلاقة الاستدلالية ، فالتوجه إلى الغير لازم من لوازم الادعاء، فلا يَدّعي إلا من يتوجه كما أن الفهم لازم من لوازم الاعتراض، فلا يعترض إلا من فهم..."[2].

(1) عز الدين البوشيخي(1997): قدرة المتكلم التواصلية وإشكال بناء الأنحاء. ص ص: 90_91.

(2) عبد الرحمان طه (1988): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ط 1. المركز الثقافي العربي ص:226.

...يد من الإشارة، في هذا المقام، إلى أن الاستدلال الطبيعي (الحجاج) يتميز عن ... تصوري (البرهان)؛ حيث إن البرهان هو الاستدلال الذي يُعنى بترتيب صور ... بعضها على بعض بصرف النظر عن مضامينها واستعمالاتها[1]. أما حدّ الحجاج ... عملية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي... وهو ... جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من ... البرهانية الضيقة، كأن تبنى الانتقالات فيه، لا على صور القضايا وحدها كما هو ... برهان، بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها أيما اجتماع، وأن يُطوى في هذه ... الكثير من المقدمات والكثير من النتائج، وأن يُفهم المتكلم المخاطَب معاني غير ... في نطق بها، تعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا كلما انتسب ... تداولي مشترك مع المتكلم...»[2].

ومعنى ما سبق أن المستدل (المتكلم المدّعي) قد يأتي بالدليل على الدعوى على ... هل البرهان وذلك بأن يفصل مباني العبارات عن معانيها ومقاماتها. ورغم ذلك لا ... عمليات المنطق الصوري في الألسنة الطبيعية إلا في حالات نادرة وقليلة جدا، إنها ... إلا مظهرا فقيرا من مظاهر الاستدلال في الخطاب الطبيعي أو رتبة دنيا من مراتب هذا ... لال، لأنه لا يتم اعتمادها إلا عند إرادة تقليد البرهان الصناعي بالتركيز على الصورة ... المضمون والمقام[3].

أما العلاقة الاستدلالية المُميِّزة للخطاب الطبيعي فإنها تقوم على ملازمة مضمون ... لصورته وملازمة القول لمقامه. ولهاتين الملازمتين دور هام في تقويم القول الطبيعي؛ ... فقيد الملازمة الأولى في تصحيح البنية، إذ قد تغطي فائدة المضمون فساد الصورة، أما ... الثانية فتفيد في تثبيت تأثير القول، إذ قد تغطي مناسبة المقام ركاكة المقال[4].

(1) ... رجع نفسه ص 226.
(2) ... عبد الرحمن طه (2000): في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المركز الثقافي العربي. الطبعة 2. ص 65.
(3) ... عبد الرحمن طه (1988): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ص 227.
(4) ... رجع نفسه ص 227.

إن الملفوظات الطبيعية غالبا ما تكون محملة بمجموعة من المضمرات والمعاني المسكوت عنها التي يمكن أن تعرقل عمل القواعد المنطقية التي تتميز بالتحليل من الصورة ولذلك، فإن حقيقة الاستدلال في الخطاب الطبيعي أن يكون حجاجيا لا برهانيا صناعيا وهو ما ينتج عنه أنواع من العلاقات الضبابية والاستنتاجات التقريبية (approximative) وهذا ما يجعله يكتسي طابع المرونة (Souplesse) التي تميزه عن الاستدلالات الصورية الصارمة.

ويمكن تحديد أهم الفروق الموجودة بين البرهان والحجاج فيما يأتي:

1. يرتبط البرهان بالصورة بشكل يسمح بمعالجته بواسطة الحاسوب، في حين يصعب القيام بذلك فيما يهم الحجاج. فإذا كانت تعابير اللغة الصورية تتميز بالتواطؤ[1]، فإن دلالة تعابير الاستدلال الطبيعي مشتركة وترتبط بالشروط الدلالية والتداولية لكل حوار.
2. يرتبط تقويم البرهان بالصدق والكذب، أما قيمة التعابير الحجاجية فتتعلق بالأخر الذي وضعت من أجله بغية إقناعه.
3. تتصف نتائج البرهان باليقين، بينما يخضع الحجاج لتراتبية هرمية تجعل أدلته تتراوح بين الضعف والقوة. ولا يعكس البرهان، بوصلنا أحيانا إلى أكثر من نتيجة. ولا ينغلق على نفسه لاحتمال إضافة دليل أو أدلة جديدة.
4. لا يستهدف البرهان شخصا معينا ولا يهتم بأسباب إنشاء الخطاب وفهمه، بينما يتطلب الحجاج طرفين، ويراعي المقام وشروط الخطاب، إلخ[2].

(1) ... عبد الرحمن طه (2000): في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. ط2. المركز الثقافي العربي. ص ...
(2) التواطؤ يعني أن لكل الألفاظ والتعابير التي يستخدمها البرهاني معنى متواطئا.
(3) ... حسان الباهي (2000): اللغة والمنطق. بحث في تعارفات المركز الثقافي العربي. ص ... (أصل الكتاب: ...) ص 140.

4- الكفاية البلاغية التداولية :

تتكون هذه الكفاية من مجموعة من المعارف التي يمتلكها أطراف المحاورة حول وظيفة المبادئ الخطابية (*Discursifs*) التي تعد ضرورية في كل تواصل لفظي ننتظر منه أن يكون ناجحا. كما تساعد هذه الكفاية المخاطبَ على التعرف على المعاني المسكوت عنها عن طريق الاستدلال عليها كما سلف ذكره.

وتأخذ هذه القواعد مسميات مختلفة من باحث إلى آخر؛ إذ يسميها "بول غرايس" مبادئ المحاورة (*maximes ou principes de conversation*)، أما "غوردن ولايكوف" فقد أطلق عليها "مسلمات المحاورة" (*postulats de conversation*) في حين يسميها "ريفزين" Revzine "بمسلمات التواصل العادي (*postulats de communication normale*)"[1].

إن الهدف الأساس في هذه المبادئ (المسلمات – القواعد- الشروط...) هو أن يتمكن مستعمل اللغة الطبيعية من استعمال العبارة اللغوية المناسبة بالنظر إلى وضع متلقيه وإلى الموقف التواصلي وإلى القصد التواصلي المروم تحقيقه[2].

وتتشابه هذه القواعد ذات الطبيعة الحوارية والأخلاقية مع قواعد التكوين الجيد(*Les règles de bonne formation*) ذات طبيعة تركيبية دلالية (*Syntactico-sémantique*) التي تنتمي إلى الكفاية اللسانية في مسالة إلزامية مراعاتهما والحفاظ عليهما من قبل كل من يوّد تحقيق محاورة ناجحة

فكلما تم احترام تلك المبادئ في التواصلات المختلفة التي نمارسها في حياتنا اليومية باستمرار وبنوع من التلقائية، كلما ساعدنا ذلك، وبخاصة في التواصل الشفهي، على تحقيق تواصل متعاون وناجح وفعّال. ورغم ذلك فتولّد الاستلزامات الحوارية يكون في معظم الأحيان نتيجة خرق مبدأ أو أكثر من المبادئ الحوارية. وجل الأمثلة التي جاء بها غرايس في مقاله "المنطق والمحاورة" (*Logique et conversation*) ناجمة عن خرق المتكلم في الحوار

---

[1] لقد تم تفصيل القول في هذه المبادئ في الفصل الثاني المعنون بـ"المقاربة الاستدلالية" ضمن الباب الثالث.

[2] أحمد المتوكل(2001): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية. بنية الخطاب من الجملة إلى النص. دار الأمان للنشر والتوزيع ص: 37.

مبدأ أو أكثر من المبادئ الحوارية مع بقاء احترامه للمبدأ الأساسي الذي هو مبدأ التعاون (*M. de coopération*) وهكذا يعتبر الخرق بمثابة منبه للمتلقي للشروع في عملية الاستدلال لاكتشاف الاستلزامات الحوارية. سيتم تبيان ذلك في الفصل الثاني من الباب الثالث.

إن هذا التمييز بين الكفايات المختلفة المكونة للكفاية التواصلية لا يعني أن كل كفاية تشتغل معزولة عن باقي الكفايات الأخرى، بل لا بد أن تتفاعل فيما بينها، أثناء عمليتي إنتاج الملفوظات وفهمها، بطريقة تسمح باكتساب كفاية تواصلية بمقدورها تحقيق تواصل ناجح وفعال.

الباب الثالث

المحاورة: مقاربات وعلوم

تمهيد:

تتحدد الإشكالية الجوهرية، في موضوع المحاورة، في تحديد الكيفية التي يتحاور بها افراد المجتمع فيما بينهم. ويمكن صياغة هذه الإشكالية على الصيغة الآتية:

هل تتم جميع المحاورات عن طريق ثنائية التسنين والتفكيك أم أن الأمر يتجاوز ذلك أحيانا إلى اعتماد مجموعة من المسارات الاستدلالية، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمعاني الضمنية حيث تستدعي ضرورة المحاورة الجمع بين هذين النموذجين في نموذج واحد باستطاعته وصف الآليات المختلفة المعتمدة من قبل الأفراد في تواصلاتهم اليومية؟

لقد ظل هذا السؤال قائما بين أنصار المقاربة السننية وأنصار المقاربة الاستدلالية؛ حيث ذهب الفريق الأول إلى القول: إن أي تأسيس للنظرية التحاورية لابد أن يقوم على نموذج السنن وذلك في مقابل تصور مجموعة من فلاسفة اللغة الذين أكدوا على ضرورة أن تقوم هذه النظرية على أساس النموذج الاستدلالي.

وسنجد موقفا توفيقيا تبناه كل من سبيربر وويلسون حيث أكدا أنه يمكن الجمع بين النموذجين والتنسيق بينهما ضمن ما يسمى بالمقاربة المعرفية للتحاور تلك المقاربة التي استفادت من العلوم المعرفية في اهتمامها بكيفية انتظام السيرورات الذهنية التي تمكننا من إنجاز اللغة وإدراكها، وذلك عن طريق إستراتيجية التقييس المرتبطة بقضايا الذكاء الاصطناعي. وسيساعد مثل هذا التصور على تأسيس نظرية عامة للمحاورة بإمكانها تناول الطرق المختلفة التي قد يسلكها الكائن البشري في تحاوره مع الآخرين.

الفصل الأول

المقاربة السننية للمحاورة

يقوم نموذج السنن(*Le modèle de code*) على ثلاثة عناصر أساس هي: المرسل والمتلقي والرسالة. ويتحدد دور المرسل في عمليتي تسنين الرسالة ونقلها إلى المتلقي الذي ينجز عملية مكملة لعملية التسنين هي عملية فك تسنين هذه الرسالة.

وقد اشتهرت هذه النظرية بنموذج شانون وويفر الذي أشرنا إليه في المدخل التمهيدي لهذا العمل. وسنرى أنه إذا كان هذا النموذج مفيدا في التواصل الآلي فإنه سيكون في حاجة إلى العديد من التعديلات عندما يتعلق الأمر بالمحاورة التي تتميز بالتعقيد والغنى إن على مستوى السيرورات (*Processuses*) التي تتطلبها كي تتحقق بنجاح، أو على مستوى العناصر المتعددة المشكلة لها.

ولكي تتحقق دورة المحاورة، اشترط صوسور[1] وجود متحاورين(أ) و(ب) لأن الحد الأدنى للمحاورة يتطلب بالضرورة وجود شخصين على الأقل كي تكتمل دورة المحاورة التي مثل لها على الشكل التالي:

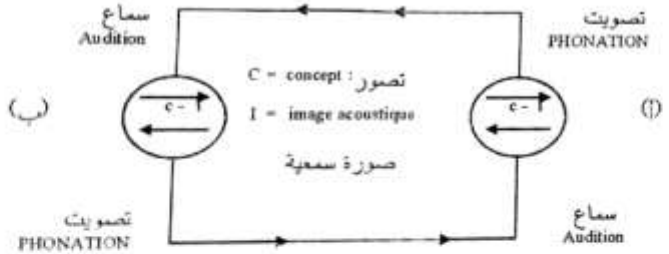

1- F. De saussure (1972): Cours de linguistique générale ,ed. Payot . P :23-32
F. Jakobson(1963) : Essaie de linguistique générale. T1.Ed. Minuit.Paris. PP: 214-220

وتكون نقطة الانطلاق من دماغ أحد المتحاورين، وليكن دماغ المتكلم (أ) مثلا، حيث توجد ظواهر الشعور التي يسميها صوسور التصورات *(concepts)* والتي تكون مترابطة مع الصور السمعية *(images acoustiques)* التي تستعمل للتعبير عنها. فهذا التصور يثير في دماغ المرسل صورة سمعية مطابقة له، وبعد ذلك ينقل الدماغ شحنة *(impulsion)* مترابطة مع الصورة السمعية إلى أعضاء النطق، وعلى إثر ذلك تنطلق الموجات الصوتية *(les ondes sonores)* من فم المتكلم (أ) إلى أذن المتلقي (ب). وبعد ذلك، تمتد دورة المحاورة في الاتجاه المعاكس منطلقة من دماغ (ب) نحو لسانه حيث يكون الترابط بين الصورة السمعية والتصور. وإذا استوعب المتلقي (ب) الرسالة وفهمها ثم أخذ في الرد والحديث فإنه يتبع بدوره الخطوات السابقة نفسها لدى (أ)؛ حيث تبدأ دورة المحاورة في هذه المرحلة الجديدة، من دماغ (ب) وتنتهي في دماغ(أ).

إن الدماغ، في تصور صوسور، هو مركز عمليات التسنين *(codage)* وفك التسنين *(décodage)*، والإرسال والاستقبال، كما يعتبر المركز الذي تتموضع فيه عناصر السنن وتتسلسل فيه عمليات البحث في الذاكرة، وهو بذلك شبيه، بشكل أو بآخر، بالدور الذي تقوم به الوحدة المركزية *(unité centrale)* في الحاسوب.

يقوم المرسل أثناء عملية التسنين باختيار النسق الذي يتوقع أنه سيلقى نجاحا في تحاوره مع المتلقي، ولذلك فهو يختار بعض علامات هذا النسق ليصوغها حسب القواعد المتعارف عليها في شكل رسالة. بعد هذه العملية تُنقل الرسالة إلى المتلقي كي يبدأ مسارًا جديدا هو مسار فك تسنين العلامات التي تحملها تلك الرسالة، وفقا للنسق نفسه الذي اعتمده المرسل.

وقد حاول مجموعة من اللسانيين ، ونخص بالذكر رومان ياكبسون[1]، الاستفادة من النظرية الرياضية للتواصل بهدف صياغة نموذج للتواصل الإنساني وللمحاورة على الخصوص. ولخص فواعل العملية التواصلية على الشكل الآتي: إن المرسل(1) يبعث

(1) إلار مولتشاين : رومان ياكبسون أو البنيوية الظاهراتية. ترجمة: عبد الجليل الأزدي(1977) ط 1. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ص.ص: 119- 128.

برسالة (2) معينة إلى المتلقي (3)، ولكي تكون هذه الرسالة فاعلة، فإنها تتطلب سياقا (4) (مرجعا) تحيل عليه، وهو قابل للإدراك من قبل المتلقي، وهو سياق لغوي أو قابل لأن يكون كذلك. وتتطلب هذه الرسالة، بعد ذلك، سننا(5) يشترك فيه المرسل والمتلقي إليه كليا أو جزئيا. وأخيرا تقتضي الرسالة قناة(6) ترابط فيزيقي أو نفسي، تمكن كلا من المرسل والمتلقي من إقامة التواصل بينهما والحفاظ عليه. ووضح ياكبسون هذه العناصر المختلفة والمكونة للمحاورة من خلال الخطاطة التالية:

يتضح من خلال ما سبق، الغنى النسبي الذي تميزت به خطاطة التواصل الياكبسونية، وقد كان لها دور فعال في تحليل النصوص اللغوية ذات القيمة التعيينية *(Dénotative)*. ورغم غنى هذا النموذج فقد لاحقته مجموعة من الانتقادات لأنه يتطلب مزيدا من التفصيل خاصة عندما يتم تطبيقه على نصوص ذات قيمة إيحائية *(Connotative)*؛ حيث يتطلب الأمر استحضار الدور الحاسم الذي يقوم به كل من المقام والسياق (السياق اللساني والمقام التداولي) في تأويل الملفوظات وكذا تجاوز العلاقة الدلالية للملفوظات بواقع الأشياء التي تعبر عنها إلى العلاقة التداولية لتلك الملفوظات بالمستعملين ومقاصدهم.

كما أن هذا النموذج يفترض أن الرسالة تنتقل من مرسل إلى متلقي؛ أي من مرسل يمثله الضمير أنا إلى متلقي يمثله الضمير أنت، إلا أنه، وبخلاف ذلك، يوجد نوع آخر من الرسائل يبثها المرسل إلى نفسه، أي أن الرسالة تنتقل من أنا إلى أنا كما هي الحال في المونولوج.

يحصر دور المرسل في هذا التصور على نقل المعلومات والأفكار، والإخبار...
ن وظيفة اللغة هي مجرد وظيفة تعبيرية، إلا أن الواقع اللغوي كما يمارسه الأفراد
غة اللغة تتجاوز مجرد التعبير عن الواقع إلى تحقيق أفعال إنجازية كالأمر والوعد
وليس مجرد الإخبار، كما أن المتكلم يقوم بدور هام في توجيه مسار العملية

إضافة إلى ما سبق ذكره من انتقادات، قدمت كاترين أريشيوني[1] بدورها مجموعة
ظات للتصور الياكوبسوني للتواصل الإنساني؛ وترتبط أولى هذه الانتقادات
لمطلح السنن *(Code)* بنوع من الاتساع *(Extension)* الذي من شأنه أن
يس، لأن السنن المستعمل في الألسنة الطبيعية *(Les langues naturelles)*
يا عن ذلك المستعمل في مجال التواصل الآلي *(La cybernétique)*.
ترى أريشيوني أن السنن في نموذج ياكبسون "مصوغ *(Formulé)* للمفرد، إضافة
عقا في الهواء بين المرسل والمتلقي، وهو ما يطرح مشكلين هما:

شكل تجانس السنن:

تلك أن أطراف المحاورة، وبالرغم من انتمائهم إلى العشيرة اللسانية نفسها، لا
ملسانهم بالطريقة نفسها، بل قد تكون لكل فرد لغته الخاصة *(Idiolecte)* لأن كل
يتحكم فيه ثقافته وإيديولوجيته...

شكل خارجانية السنن :

إن السنن، حسب أريشيوني، مركب من قسمين؛ لأن المولّدين *(Générateurs)*
ن الكلامي يتموقعون بالضرورة إما في دائرة المرسل، وإما في دائرة المتلقي. كما أن
خاصة المتعلقة بالمرسل أو بالمتلقي تتضمن كفايتين هما: كفاية الإنتاج
(Compétence de prod المرتبطة بالمرسل، وكفاية التأويل *(Competence*
d'interpr المرتبطة بالمتلقي.

(1) Catherine Kerbrat- Orecchioni(1980): L'énonciation De La Subjectivité Dans L
Langage. Ed. Armand Colin. Paris. P.P: 11-21.

وبخصوص عالم الخطاب *(L' univers du discours)*، فعندما ينجز المرسل
رسالة ما فإنه لا يتمتع بالحرية المطلقة في اختيار الكلمات و البنية التركيبية *(Structure*
Syntaxique) من مخزون *(stock)* كفايته اللغوية، ومن خزانه *(réservoir)* المتعذر
قياسه، وإنما يخضع في ذلك لمجموعة من القيود *(contraintes)* التي تشتغل كمصفاة
(filtre) تحد من احتمالات هذا الاختيار من جهة، وتوجه المتلقي في عملية فك التسنين من
جهة ثانية. وتتعلق هذه المصفاة بعاملين اثنين هما:

1- الشروط الملموسة *(concrètes)* للتواصل: العدد والسن والجنس والمكان...
2- المميزات التيماتية والبلاغية. أو قيود النوع *(genre)* بشكل عام: نوع الخطاب الذي
يتناول اللغة (سياسي أو لساني....).

ويقصد بعالم الخطاب- في تصور أريشيوني- المجموع الذي يتألف من مقام
التواصل *(Situation de communication)* والقيود الأسلوب- تيماتية *(Contraintes*
(stylistico- thématiques.

واقترحت أريشيوني، لإكمال النقص الملاحظ في خطاطة ياكبسون، أن تضيف إلى
الكفايتين: اللسانية *(Lacompétence linguistique)* والموازية لسانيا *(Lacompétence*
para-linguistique) محددات نفسية *(Déterminations psychologiques)* لها دور هام في
عمليتي التسنين وفك التسنين. وتتقاسم هذه المهمة مع محددات تحليل- نفسية
(Psychanalitiques).

كما تقترح إضافة كفايتين: ثقافية *(Culturelle)* (أو موسوعية
(Encyclopédique)) مرتبطة بمجموع المعارف الضمنية حول العالم، وإيديولوجية
(Idéologique). ولهذه الكفايات كلها علائق وثيقة بالكفاية اللسانية.

وإذا كانت النماذج اللسانية تعمل على توضيح مجموع المعارف التي يمتلكها أطراف
المحاورة حول لسانهم، فإن هذه المعارف عندما تستخدم بهدف إنجاز حدث تلفظي *(Acte*
énonciatif) فعّال، تفرض على هذه الأطراف توظيف قواعد عامة *(Des règles*

(genius) ترجه مسارات التسنين وفك التسنين، و تشكل نموذجين للإنتاج والتأويل.

ث أريشيوني لنموذجها عل الشكل التالي:

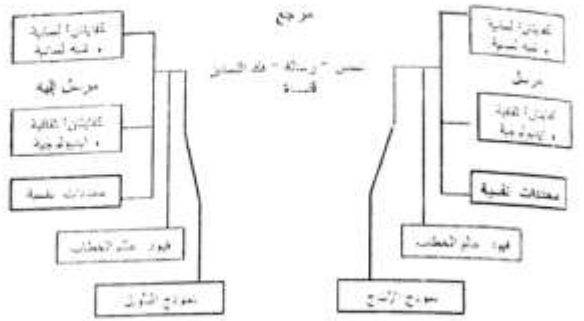

(1)

تبين هذه الخطاطة أن الوصول إلى مضمون الخطاب يتطلب بالضرورة تجاوز ثنائية تسنين والتفكيك التي تسمح بها الكفاية اللسانية إلى الاعتماد على مساعدة عناصر أخرى ثقافية ونفسية وإيديولوجية... نستند عليها أثناء المسار الاستدلالي. كما تبين من جهة ثانية أن عملية التواصل تستند إلى مجموعة من الكفايات التي تشكل في مجموعها ما يسمى بالكفاية التواصلية التي يفترض أن تتوفر لدى أطراف الحوار لتحقيق تواصل فعّال بينها.

يعتبرُ نموذجُ السنن المعرفةَ اللسانية كافية بمفردها لخلق علاقة تواصلية بين المرسل والمتلقي. فاللسان ـ حسب هذا التصور ـ عبارة عن علامات تضم داخلها مجموعة من المستويات الفونيتيقية والفونولوجيا والصرفية والتركيبية والدلالية التي يعتمدها أطراف الحوار في تحقيق التواصل. ولكن التمثيل الدلالي للجملة غالبا ما يكون بعيدا عن الأفكار التي يرغب المتكلم في إبلاغها أثناء التلفظ، ولذلك غالبا ما يتطلب الأمر الوقوف عند مختلف ملابسات التلفظ و الأحوال التي أنجز فيها من أجل الوصول إلى المعنى المقصود من الكلام.

(1) Ibid : 19

وتشتغل اللغة حسب أصحاب التصور السنني بشكل يشبه إشارات المرور بالرغم من أنها تشتغل بطريقة مركبة. ومن ثم فهي، في نظرهم، شفافة فيما يتعلق بالرسائل التي تحملها الملفوظات. كما أنها مكتفية بذاتها في التأويل؛ إذ يقتصر الأمر على فك تسنين العلامات اللسانية.

وقد ذهب "آن ريبول" و"جاك موشلر" إلى أن من بين الأسباب التي كانت وراء الفشل النسبي للذكاء الاصطناعي والهندسة اللسانية عامل "النظر إلى اللغة ومعالجتها باعتبارها نظاما ترميزيا"[1].

إن نقل المقاربة السننية من التنظير إلى التطبيق تعترضه صعوبات بالغة، خاصة عندما يرتبط بمحاورة بين الإنسان والآلة، وفي الترجمة الآلية. ويمكن تبين هذه الصعوبة بشكل واضح في التعابير المسكوكة أو ما يسمى أيضا التعابير الاصطلاحية مثل:

[1] - لقي زيد حتفه. ← مات.

[2] - أكل الدهر عليه وشرب. ← بَلِي وقَدُم.

[3] - أخذ زيد على عاتقه أن يساعد إخوته. ← قرر أو تعهّد.

فلا يمكن ترجمة هذه التعابير ترجمة حرفية لأن القيام بمثل هذا العمل سيُفقد معانيها التي تعاقدت عليها الجماعة اللغوية. معنى هذا، أن هذه التعابير تستمد معانيها من اتفاق هذه الجماعة. وتحضر مثل هذه التعابير في جل اللغات الطبيعية، ومثال ذلك التعبير الإنجليزي:(*To live from hand to mouth*) فلا يمكن ترجمته حرفيا هكذا "يعيش من اليد إلى الفم" لأن هذا التعبير غير سليم ولا يعني شيئا، ولكن التعبير بمعنى "يعيش على الكفاف".

(1) آن روبول و جاك موشلر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ترجمة: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني(2003). ط.1. المنظمة العربية للترجمة. توزيع: دار الطليعة - بيروت. ص. 20.

وما يؤكد أيضا قصور التصور السنني للمحاورة، تعدد الحالات التي نحتاج فيها إلى ... المعرفة اللغوية[القواعد الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية]؛ حيث لا تسعف في ...وصول إلى المعنى المقصود، لأن المتحاورين لا يتقيدون - في الغالب - بالمعنى الحرفي و إنما يقصدون التعبير غير المباشر عن أفكارهم، وهذا من مميزات اللغات الإنسانية جميعها. لذلك ...ن المتلقي يجد نفسه، في غالب الأحيان، مضطرا إلى تجاوز المدلولات الحرفية للملفوظات ...ي يجانب بها إلى مدلولات أخرى خفية. وهذا التجاوز يستوجب بالضرورة القيام بعدة ...عمليات استدلالية تسمح بالانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى غير المباشر، بمساعدة عدة ...عناصر : ثقافية، عرفية، اجتماعية ومنطقية.... وهو ما أقره الأستاذ طه عبد الرحمان بقوله:

.. فالنقل كما يمارسه المتكلم هو في الأقل نقلان اثنان: أحدهما صريح يتعلق بالمعاني ...لظاهرة والحقيقية المستقلة عن مقامات الكلام، والثاني ضمني يتعلق بالمعاني المضمرة ...ومجازية غير المستقلة عن هذه المقامات، ومعلوم أن الأصل في هذا النقل الثاني هو ما ابتدأنا ...بإقراره، ألا وهو ابتناء الكلام على القصد! فيكون معيار الفائدة فيه مقاصده لا ظواهره ...حتى يقوم الدليل على خلافه؛ وإذا جاز أن نقارن بين المتكلم والآلة، فلا يمكن أن تتعدى ...هذه المقارنة مرتبة النقل الصريح، هذا، على تقدير أن لهذا الضرب من النقل وجودا مستقلا؛ ...والواقع أن المتكلم لا يصفو له أبدا مثل هذا النقل ولا يكون ذاتا مصرحةً خالصةً، بحيث لا ...تجوز المقارنة المذكورة إلا على سبيل الانتزاع التجريدي، لا على سبيل الواقع المشخص[1].

ولا يخفى عن كل ذي بصيرة أن المعنى الضمني الإيحائي (*Les conntations*) لا يكون معطى كما هي حال المعنى الصريح (الاصطلاحي أو التعييني)، وإنما قد يكون موحى به فقط، ولذا، فإن تفكيكه يكون احتماليا وتكون المحتويات الإيحائية قيما دلالية ضبابية وغير مضبوطة ورغم ذلك فهي لا تتناقض مع المعنى الصريح[2]. كما أن هذه المعاني الإيحائية تظل رهينة المقام التواصلي ونوعية الخطاب؛ إذ ليس لها أية ملاءمة مرجعية. وهو ما يجعل العلاقة بين هذين الصنفين من المعنى علاقة غير مباشرة تقوم على التضايف. ولذلك، فإن عملية

---

[1] طه عبد الرحمان(1998): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ط 1 . المركز الثقافي العربي. ص: 216

[2] la connotation. PUL. 2eme ed.p: 18):1983C. K. Orecchioni

الربط بينهما تتم بمساعدة العمليات الاستدلالية. ومثال ذلك ايضا الحالات التي صنفها غرايس ضمن ما أسماه بالاستلزامات الحوارية الخاصة (*Les implications conversationnels particuliers*) نحو قول المتكلم:

4- طعامي ينقصه الملح. لطلب الحصول على الملح.

5- الجو حار في غرفتك. لطلب فتح النوافذ مثلا.

6- إنك تطأ على قدمي. لمطالبة المتلقي برفع قدمه.

7- إنه منتصف الليل. لمطالبة الحاضرين في حفل بالمغادرة.

لكن هناك حالات عديدة أخرى لا يكون المعنى الضمني فيها احتماليا و يشمل ذلك حالات الاستعارة، حيث تكون العلاقة بين المعنيين علاقة إقصاء لا تضايف، وبالتالي يتعين إقصاء المعنى الصريح والاحتفاظ بالمعنى المجازي وحده حتى يصح الفهم:

8- أنت أسد. أي: أنت قوي.

9- أنت البحر. أي: أنت كريم.

حيث يؤدي الاحتفاظ بالمعنى الأول والثاني معاً إلى وقوع المتلقي في اللبس.

كما يشمل هذا النوع الثاني من المعاني الضمنية ما أسماه غرايس بالاستلزامات الحوارية المعمّمة (*Les implications conversationnels généralisées*) حيث يكون الملفوظ حاملا لمؤشر أو أكثر من المؤشرات الاشتقاقية(*Les marqueurs de la derivation*) نحو:

10- هل زارك من أحد قط في مرضك الأخير؟

مقصودا به النفي حيث قام المورفيمان من وقط بوظيفة جعل المعنى المستلزم حواريا هو الراجح.

ونحو:

11- هل تستطيع فتح النافذة(من فضلك)؟

مقصودا به الالتماس وليس الاستفهام. والذي رجح هذا المعنى الثاني هو عبارة (من فضلك) التي تعد مؤشرا اشتقاقيا.

الفصل الثاني

المقاربة الاستدلالية للمحاورة

1- الاستدلال: تعريفه وأهميته.

يقصد بالاستدلال (*inférence*) مجموعة من الإواليات المنطقية التي تمكننا من استنباط المعاني المسكوت عنها (*Les sous- entendus*) انطلاقا من المحتوى الحرفي للملفوظ. و قد عرفه الميداني بقوله: "الاستدلال: هو استنتاج قضية مجهولة من قضية أو من عدة قضايا معلومة"[1]. أما أريشيوني فتعرفه بقولها: "الاستدلال عملية قد تطلق على كل قضية مضمرة(*proposition implicite*)، نستطيع استخراجها من ملفوظ ما، واستنباطها (*déduire*) من محتواه الحرفي(*contenu littéral*) ونحن ننسق معلومات الوضع المتغير (*statut variable*)"[2].

ويعتمد القائم بعملية الاستدلال ـ أي المخاطب ـ على كفايته اللسانية، والمقام، والمبادئ العامة للحوار، والقواعد الخطابية[*]. يقول موشلر: "يتوقف نجاح عملية التواصل اللفظي (*verbale*) على الطابع القصدي (*intentionnel*) للرسالة، وعلى الاستدلالات التي يقوم بها المخاطب، حيث يقوم هذا الأخير بمجموعة من الاستدلالات غير البرهانية (*non démonstratives*)، اعتمادا على المبادئ العامة للتواصل، والنتيجة المحصل عليها من خلال هذه الاستدلالات، هي نجاح العملية التواصلية وموافقتها لمقاصد المتكلم"[3].

ويمكن توضيح ذلك بالمثال الآتي:

لنفترض المحاورة التالية: يطلب أب من ابنه أن ينظف أسنانه بعد تناول العشاء.

[1] أ- الأب: **هل قمت بتنظيف أسنانك؟ (استفهام يراد منه الأمر)**

---

(1) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني(2004): ضوابط المعرفة، وأصول الاستدلال والمناظرة. دار القلم دمشق. ط 7 . ص: 149.

(2) C.K Orecchioni (1986): L'implicite. Armand coolin P. 24.

(*) لمعرفة المقصود بالقواعد الخطابية والمبادئ العامة للمحاورة... يرجى مراجعة ص.ص: 176ـ 200.

(3) J.Moeschler (1999): linguistique et pragmatique cognitive. P: 5.

ب- الابن: لا أشعر بالنوم.

نلاحظ هنا أن جواب الابن عبارة عن نفي ضمني لمضمون السؤال، أي أن المعنى المستلزم من العبارة هو:

ج- لم أنظف أسناني بعد.

ولكن السؤال الوارد طرحه في مثل هذه الحالات هو: كيف، يمكن الوصول إلى هذا المعنى الضمني؟ ما العلاقة الموجودة بين عدم الشعور بالنوم وتنظيف الأسنان أو عدم تنظيفها؟ المسألة هنا بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد عملية فك التسنين؛ إذ لا وجود لسنن معين لساني يُمكّننا من فهم مثل هذا الملفوظ باعتباره نفيا لطلب الأب.

يمكن الوصول إلى المعنى المستلزم حواريا من خلال المبادئ الحوارية لغرايس؛ لقد خرق الطفل مبدأ من المبادئ الغرايسية هو مبدأ العلاقة، حيث يلاحظ عدم وجود علاقة بين سؤال الأب وجواب الابن. ورغم ذلك، فهذا الخرق هو خرق ظاهري فقط، مادام أن الابن يُظهر أنه لا يحترم مبدأ التعاون وقد خرق مبدأ العلاقة هنا ليظل محترما لمبدإ حواري آخر هو مبدأ الكيف الذي يحث المتكلم على أن يكون صادقا. فلو أجاب الطفل بنعم لكان كاذبا في هذا المثال.

ولذلك، فللوصول إلى قَصْدِ الطفل يستدعي الأمر استحضار المقام والتعويل على جملة من المعلومات نحو:

- يحتم الشعور بالنوم الانصراف للنوم.
- جرت العادة أن يتم تنظيف الأسنان قبل النوم.
- يمثل تنظيف الأسنان تمهيدا للنوم...

يمكن للأب أن يستنبط، من خلال هذه المعلومات، أن هذا الطفل الذي يقول: إن النوم لم يداعب أجفانه بعد، لا يرغب في النوم، وإذن، فإنه لم ينظف أسنانه بعد.

ومثال ذلك أيضا قولنا:

[2] - فلان كثير رماد القدر.

تقال هذه الكناية في مقام المدح، في حق رجل مضياف للإشارة إلى كرمه وجوده، إلا أن الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني يقتضي القيام بمجموعة من العمليات الاستدلالية على الشكل التالي :

1- كثرة الرماد تستلزم كثرة الجمر.
2- كثرة الجمر تستلزم كثرة إحراق الحطب.
3- كثرة إحراق الحطب تحت القدور تستلزم كثرة الطعام.
4- كثرة الطعام تستلزم كثرة الأكلة.
5- كثرة الأكلة تستلزم كثرة الضيوف.
6- كثرة الضيوف تستلزم أن هذا الرجل كريم ومضياف[1].

وقد أحسن عبد القاهر الجرجاني في تبيان الكيفية التي يتم بها الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني في هذا المثال بقوله: ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: هو كثير رماد القدر، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدور الكثيرة، ويطبخ فيها للقرى والضيافة، وذلك لأنه إذا كثر الطبخ في القدر كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة[2].

لقد أشار عبد القاهر الجرجاني إشارة ذكية إلى أن هذا الانتقال يتم في ذهن المتلقي الذي يحاول الربط بين الملفوظات وبين مقامات التلفظ وهو العمل الذي يساعده على الوصول إلى القصد التواصلي للمرسل. بل إنه أكّد في موضع آخر أثناء حديثه عن التمثيل المحوج إلى طلب معناه بالفكرة إلى مَزِيّة المعاني التي يتم بلوغها بعد جهد جهيد وإعمال للفكر

(1) Ahmed Moutaoukil (1982): Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe. Publication de la faculté dés lettres de Rabat.PP190-191

(2) عبد القاهر الجرجاني(1987): دلائل الإعجاز. تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية- دمشق. ط2. ص383

... يجيء على نفسية المخاطب يقول: ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد ... الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى، فكان موقعه ... بعد أجل والطف، وكانت به أضنّ وأشغف، ولذلك ضُرب المثل لكل ما لطُف موقعه ... على الظمأ[1]. ولكنه اشترط ألا يؤدي ذلك إلى التعقيد والتعمية على المتلقي وأن ... بحسب القدر المطلوب.

... كان نموذج السنن يفترض أن المحاورة تتم بنوع من الوضوح؛ حيث يستطيع ... فهم كل ما يبثه المرسل من خطابات مادامت العلامات المستعملة مشتركة بينهما، فإن ... لي لا شك فيها هي: أن المحاورة أشد تعقيدا من ذلك بكثير؛ ويعود ذلك إلى أن ... اللغوية تتميز هي ذاتها بالتعقيد الذي يعود إلى أمور عدة، أذكر منها على سبيل ...

- اللغة ملبسة.
- ارتباط معنى الملفوظات بالمقام والسياق.
- كثرة حالات التضمين بالمقارنة مع حالات التصريح في الاستعمالات اليومية للغة.
- استخدام اللغة لأغراض أخرى غير الإبلاغ: التأثير والتضليل والإقناع و المغالطة...

يمكن القول، من خلال ما سبق: إنه من غير المعقول أن نعتبر إنتاج اللغة وتأويلها عمليتين قائمتين على أساس التسنين وفك التسنين فقط. فوجود النسق السنني في اللغة لا شك فيه إلا أن استعمال اللغة في المحاورة يقتضي أيضا اعتماد مجموعة من العمليات الاستدلالية التي تقوم على استراتجية التأويل وتوظيف الكفايات البشرية العامة.

لقد كانت البوادر الأولى للنموذج الاستدلالي للمحاورة مع نظرية الأفعال اللغوية التي تأسست على يد: أوستين و سورل و بول غرايس.... وتتحدد الفكرة الأساس في هذه النظرية في كون اللغة ليست مجرد أداة للإخبار فقط بل هي، زيادة على ذلك، أداة لتحقيق

[1] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة تحقيق : هـ. ريتر. دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر. بيروت. ط3. 1983م. ص 126.

أفعال تختلف باختلاف المقامات التواصلية. كما أن دورها لا ينحصر في تمثيل الواقع، بل يتجاوز ذلك إلى خلق علاقات اجتماعية بين المتكلمين من جهة، وبينهم وبين الملفوظات التي ينتجونها من جهة أخرى...ويكفي أن نشير هنا إلى الدور الفعال الذي قام به أوستين في رده الاعتبار للبعدين التداولي والاجتماعي للغة[1].

2- نظرية الأفعال اللغوية في تصور أوستين.

عمل أوستين (*J. L.Austin*) على تجاوز ذلك التمييز التجريدي بين الملفوظات الخبرية والإنشائية لأن ذلك هو مجرد أمثلة(*Idéalisation*) ابتكرها الفلاسفة والمناطقة أولا ثم سايرهم فيها اللغويون. لذلك، أفرد المحاضرة الأولى من كتابه لتفنيد ما كان من وهم فلسفي في تصنيف القضايا باعتبار الصدق والكذب إلى قضايا وأشباه القضايا إذ تكون القضية قضية إذا كان الحكم فيها حكما، وتكون مجرد شبه قضية إذا كانت لا تشتمل على أي حكم، أو تشتمل على ما يشبه الحكم وليس بحكم. والحكم هو ما نستطيع الحسم في تصديقه أو تكذيبه باعتبار الواقع، وشبه الحكم هو ما لا نستطيع تكذيبه ولا تصديقه. قام هذا الوهم على افتراض مفاده أن أحكام القضايا لا تخلو إما أن تكون وصفا لحالة واقعية أو تكون إثباتا لواقعة عينية. وهذا كان الفلاسفة والمناطقة لا يعتبرون من القضايا إلا ما كان يحتمل أن يكون الحكم فيه صادقا أو كاذبا (ملفوظات خبرية). أما ما يعرفه الواقع اللغوي، كما يمارسه المتكلمون باللغة العادية، فهو أن لكل ملفوظ، خبريا كان أو إنشائيا، محيطا تداوليا معينا يجعلنا نعد الإنشاء على أنه إخبار، والإخبار على أنه إنشاء. وقد بين أوستين في هذا الشأن أن عددا من الملفوظات تكون خبرية من حيث أسلوبها اللغوي فقط، ولكن وظيفتها إنشائية متى أخذنا في الحسبان مقامها التداولي[2].

مثال ذلك، إذا تم التلفظ بالملفوظ التالي في حفل زواج :

[1] J. Moeschler (1985) : Argumentation et conversation. P : 24-25

[2] ibid pp : 32-33

(1)- نعم أريدها (أي اتخذ هذه المرأة زوجة لي)

والناطق بهذا الملفوظ، حسب أوستين، لا يخبر عن زواج سابق ولا ينبئ بزواج لاحق وإنما يتزوج بالفعل. ويمكن أن التمثيل لذلك أيضا بما يعرف في الشرع بالظِّهار كان يقول الرجل لامرأته:

[4]- أنت عليّ كظهر أمي (أي أنت محرمة عليّ مثل أمي).

يحكم من قال مثل هذا الملفوظ لزوجته عند الفقهاء: عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكينا. ويندرج في هذا المقام أيضا ألفاظ الطلاق وألفاظ البيع والشراء والأحكام التي يعلنها القاضي... فأن تتلفظ بعبني أنك تفعل، وكما أننا لا نفعل لأجل لا شيء، فإننا كذلك لا نتلفظ لأجل لا شيء، إننا نتلفظ لأجل غايات وأهداف محددة كأن نخبر أو نسأل أو نعد....

كل هذا أفضى بأوستين إلى بناء نظرية عامة للأفعال اللغوية اهتم فيها بالقوة الإنجازية (*La force Illocutoire*)؛ فعندما يتلفظ المتكلم بملفوظ معين في مقام تداولي معين فإنه يحقق بذلك فعلا إنجازيا معينا. و يتميز الفعل اللغوي بمجموعة من المميزات حددها مويشلر كما يلي:

1- إن الفعل اللغوي هو تحقيق لفعل (حدث) (*action*)، ولنشاط يهدف إلى تحويل الواقع (*La réalité*).

2- إنه فعل قصدي (*intentionnel*) لأن تأويله مشروط بإدراك المخاطب للطابع القصدي لعملية التلفظ.

3- إنه فعل اصطلاحي (*conventionnel*).

4- إنه فعل مقامي (*Contextuel*).

5- إنه فعل سياقي (*cotextuel*)[1].

(1) كان القصد من تأليفه لمحاضراته التي جمعها في كتابه المعنون بـ *Quand Dire, C'est Faire* نقد الوهم الوصفي (*l'illusion descriptive*) الذي وقع فيه فلاسفة الوضعية المنطقية في الغرب؛ حينما اعتمدوا بالوظيفة الوصفية للغة وأغفلوا وظائفها الأخرى وخاصة الوظيفتين التعبيرية والتفاعلية . وقد نتج عن ذلك إهمال لبعدين أساسيين في اللغة هما: البعد التداولي و البعد الاجتماعي.

6- إنه فعل مؤسساتي (*institutionnel*)[1].

إضافة إلى ما سبق ذكره، فالفعل اللغوي، كباقي الأفعال خارج المؤسسة اللغوية، شكل من أشكال السلوك الاجتماعي، إنه يمثل الممارسة اللغوية والتفاعل التواصلي.

وقد أكد أوستين[2] أن المتكلم عندما ينجز أحد الأفعال اللغوية فإنه يقوم بتحقيق ثلاثة أفعال هي على التوالي:

1- فعل كلامي (*un acte locutoire*): ويتحدد في النطق بملفوظ لغوي حامل لمعنى ما وإحالة ما. وعليه، فإن الفعل الكلامي يتمثل في قول شيء ما عن طريق التصويت طبقا للنظام الفونولوجي والتركيبي والدلالي.

وينكون هذا الفعل بدوره من ثلاثة أفعال فرعية هي:

1-1- فعل فونيتيقي أو تصويتي(*Acte phonétique*) : ويتمثل في نطق المتكلم بمجموعة من الأصوات التي تنتمي إلى النظام الفونولوجي للغة التي يتكلمها.

2-1 فعل تأليفي (*acte phatique*) صياغة هذه الأصوات في كلمات منسجمة مع القواعد النحوية و المعجمية للغة المتكلم.

3-1 فعل دلالي (*acte rhétique*): وهو فعل صياغة هذه الكلمات في عبارة حاملة لمعنى محدد، مع ضرورة تحديد مرجع (*référence*) لكل كلمة في العبارة المتلفظ بها.

وهذا الفصل بين عناصر الفعل الكلامي مجرد فصل إجرائي فقط، أما الثابت فهو أن هذه العناصر ترتبط مع بعضها ارتباطا وثيقا لدرجة يصعب معها فصل عنصر عن آخر فصلا تطبيقيا، إذ نلاحظ أن تحقيق الفعل الدلالي يتوقف على تحقيق الفعل التأليفي، ولا يتحقق الفعل التأليفي إلا بتحقيق الفعل التصويتي. فهذه أفعال متلازمة

(1) محاضرات الأستاذ الدكتور إدريس سرحان التي كان يلقيها علينا في وحدة التكوين والبحث: اللسانيات العربية واللسانيات العامة، للموسم الجامعي 2002/ 2003 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز-فاس

(2) J. Austin: Quand dire, C'est faire. Traduction et introduction de Gilles Lane. Ed du Seuil, Paris. Huitième conférence. P : 109 – 118

يؤدي تحقيق واحد منها إلى تحقيقها كلها، وهذا التحقيق الكلي هو ما يمثل تحقيق الفعل الكلامي.

فعل إنجازي *(Un Acte Illocutoire)*: يعد الفعلَ الأهم في نظرية أوستين، وهو الفعل التواصلي، أوبتعبير أوستين الفعل المحدَّد *(L'acte Spécifique)* الذي يسعى المتكلم إلى إنجازه بواسطة الكلام ضمن مقام تداولي: كأن يكون الاستفهام أو الإخبار أو الوعد أو غيرها من القوى الإنجازية التي تمثل القصد التداولي وهذا ما يميز الفعل الإنجازي عن الفعل الكلامي الذي يتمثل، كما سبق الذكر، في تحقيق تعابير لغوية في حدود الدلالات المرجعية، ودون مراعاة لظروف الاستعمال[1].

فعل تأثيري *(Un Acte Perlocutoire)*: ويتحدد في الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في نفسية المتلقي: كأن ينزعج أو يفرح أو يقتنع ... ويتميز الفعل التأثيري بكونه حدثا صدفويا *(Accidentel)* غير مضمون التحقق، عكس الفعل الإنجازي. ولذلك ميز أوستين بين الفعل التأثيري والفعل الإنجازي حيث أعتبر هذا الأخير فعلا اصطلاحيا *(Acte Conventionnel)* بينما الأول ليس كذلك.

يمكن أن نبين الفرق بين الفعل الإنجازي و الفعل الكلامي من خلال ما يلي:

إن الفعل الكلامي هو مجرد قول شيء ما، أما الفعل الإنجازي فهو فعل لشيء ما بواسطة هذا القول. وإذا كان الفعل كلامي يحمل دلالة فإن الفعل الإنجازي يدل على قيمة خطابية محددة *(Valeur Discursive spécifique)* كالأمر أو النهي أو الوعد... ، كما أنه يدل= =على قوة إنجازيه عامة *(Force illocutoire générique)* في حين أن الفعل الإنجازي يحدد القوة الإنجازيه الخاصة *(Force illocutoire spécifique)*. ويتضح ذلك من خلال المثالين التاليين:

1 لا تتناول المخدرات.

2 قال لي صديقي الحميم: لا تتناول المخدرات.

يدل الملفوظ الأول بحسب صيغته اللغوية على قوة إنجازيه عامة تدل عليها صيغة (لا تفعل) التي تدل على طلب الترك، غير هذا المستوى إذ يظل هذا الملفوظ مجرد فعل كلامي، ويمكن أن يتحول إلى فعل إنجازي بمساعدة السياق اللساني و مقام التداولي المصاحبين له بحيث يصبح حاملا لقوة إنجازيه محددة كأن تكون قوة أمر أو دعاء أو التماس أو تحذير.... أما الملفوظ الثاني فإنني كمتكلم لا أقصد ما يشتمل عليه خطابي بحسب قوته الإنجازية الخاصة؛ لأني مجرد حالٍ فقط، ولذلك يظل هذا الملفوظ في هذه الحالة في مستواه الكلامي فقط .

لقد شكلت محاضرات أوستين أساسا متينا لتأسيس نظرية للأفعال اللغوية وللتداولية القصدية؛ حيث فتح عمله المجال أمام دراسات أخرى حاولت بناء هذه النظرية وتطويرها ونذكر هنا على الخصوص أعمال كل من بول غرايس وجون سورل.

3- طبيعة الآلية الاستدلالية في المحاورة.

رأينا أن مسألة الانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى الضمني في المحاورة، يقتضي القيام بمجموعة من العمليات الاستدلالية، إلا أن السؤال الوارد طرحه هنا هو: ما هي طبيعة هذه الآلية الاستدلالية؟

تم تناول مسألة طبيعة الآلية الاستدلالية من قبل ثلاث نظريات هي:

1- نظرية المبادئ الحوارية لـ *P. Grice*

2- نظرية الأفعال اللغوية غير المباشرة لـ *J. searle*

3- نظرية الاشتقاق الإنجازي *(La théorie de dérivation illocutionnaire Anscombre)*

وقد كانت النقطة المشتركة بين هذه النظريات الثلاث هي التأكيد على أهمية المبادئ الحوارية او الضوابط *(les normes)*، أو القواعد *(les règles)*، أوالقيود *(les contraintes)* في حل إشكالية التضمين في الاستعمال اللغوي.

3-1 نظرية المبادئ الحوارية في تصور غرايس.

لقد وجه غرايس[1] بحثه في مقالته المنطق والمحاورة نحو استخراج مجموعة من المبادئ الحوارية المنظمة للتواصل المثالي. كما اهتم بالمعاني الضمنية أشد اهتمام، وفي ذلك تنبيه إلى مظاهر المعنى التي لا تحكمها قواعد لغوية (دلالية على الخصوص)، بل تحكمها طريقة إنجاز الملفوظ داخل المقام، بمفهومه العام، والمبادئ العامة للتواصل. وكان يهدف من ذلك إلى توضيح الكيفية التي ينتقل بها المتلقي المحاوَر من المعنى الحرفي إلى المعنى الضمني اعتمادا على

---

(1) H- Paul Grice (1979): Logique et conversation. Communications N: 30.

في الاستدلال. هذا بالإضافة إلى رغبته في فحص الإطار النفسي - المنطقي الذي يقع فيه التبادل الكلامي.

ويركز النموذج الاستدلالي على أهمية القصد في التواصل، ويشارك في هذا القصد كل من المتكلم والمخاطب، لأن تحقيق التفاعل المطلوب في أي تواصل يشترط أن يشارك المخاطبُ المتكلمَ في هذه القصدية وهو على حال المستمع، أي أن يحقق ما يسمى بالتفاعل الخطابي الذي يعد الأصل في الكلام[1].

إن كل ملفوظ يتلفظ به المتكلم يحمل، حسب غاردني "Gardiner" (1932)، شيئين اثنين في الآن نفسه هما:

1- المحتوى القضوي.

2- قصد المرسل إبلاغ ذلك المحتوى القضوي إلى المتلقي[2].

وقد ميز غاردني في القصد بين نوعين هما:

1- القصد العام للتواصل.

2- القصد الخاص لهذا التواصل.

لا يكتفي المتلقي بمعرفة القصد العام للمرسل في التواصل وإنما يتطلع إلى تخصيص هذا القصد، كما أن المرسل(المتكلم) بدوره يطمح إلى أن يتعرف المتلقي على هدفه أو قصده من كلامه[3].

أضف إلى ذلك، أن قصد المتكلم ليس قصدا بسيطا، بل على عكس ذلك هو قصد مركب من ثلاثة أنواع:

القصد الأول: قصد المرسل إبلاغ المتلقي محتوى دلاليا معينا.

القصد الثاني: قصده أن يتعرف المتلقي على القصد الأول.

(1) طه عبد الرحمان(1998): اللسان و الميزان او التكوثر العقلي. ط 1 . المركز الثقافي العربي. ص ص : 215 -216.

(2) François Récanati (1979): Insinuation et sous-entendu. Communications. N 30. P : 95.

(3) bid. P: 96.

القصد الثالث: قصده أن يُبلغ المتلقي أن القصد الأول يتحقق بتعرف المتلقي على القصد الثاني.

ويمكن إضافة قصد آخر لأن تحَقُّق القصد المركب يتوقف على تعرف المخاطب على القصد الثاني:

القصد الرابع: قصدُ المتكلم أن يتعرف المخاطبُ على القصد الثاني[1].

وقد نبه الأستاذ طه عبد الرحمان إلى أن المقاصد متعددة ومتداخلة وميز بين قصود ثلاثة متراكبة هي "القصدُ" و"قصدُ القصدِ" و"قصدُ قصدِ القصدِ" كما أشار إلى أنه لا يوجد مانع من ترتيب قصود أخرى عليها تكاد تفوق الحصر ومثال ذلك "قصدُ قصدِ قصدِ القصدِ"، وأضاف إلى جانب هذا الترتيب العمودي للقصود تصنيفا أفقيا ميز فيه بين "قصد الخبر" و"قصد صدق الخبر" و"قصد الإخبار" و"قصد التأثير"[2].

يخضع المتحاورون - خلال محاوراتهم حسب غرايس - لمجموعة من المبادئ العامة للمحاورة، التي تتفرع عن مبدأ عام هو مبدأ "التعاون" *(Maxime de coopération)* الذي اعتبره مجموعة من الباحثين، أمثال سبيربر وويلسون، السبب الرئيس في نجاح تحليل غرايس. وحدد غرايس هذه المبادئ كما يلي:

- مبدأ التعاون *(Maxime de coopération)*

ومضمون هذا المبدأ: لتكن مساهمتك في المحاورة التي تشارك فيها بقدر ما يتطلبه الهدف أو الوجهة المختارة لهذه المحاورة.

وتتفرع عن هذا المبدأ أربعة مبادئ فرعية يضم كل مبدأ منها قواعد أكثر تحديدا ويشترط فيها أن تكون نتائجها منسجمة مع مبدأ التعاون.

- مبدأ الكم *(M. de quantité)*

وهو المبدأ الذي يفرض على المرسل أن يوافق، في كلامه، بين كم المعلومات وكم المفردات المستعملة في نقلها إلى المتلقي ويسمى هذا في البلاغة العربية "بالمساواة" التي

(1) Ibid. P:95.

(2) طه عبد الرحمان(2000): في أصول الحوار و تجديد علم الكلام. ط2 . المركز الثقافي العربي. ص: 45

يقصد بها الطريق الوسط في التعبير بين الإيجاز والإطناب. وتندرج تحت هذا المبدأ قاعدتان فرعيتان هما:

- اجعل تدخلك إخباريا بالقدر المطلوب.
- لا تجعل تدخلك الإخباري يتجاوز المطلوب.

مبدأ الكيف *(M. de qualité)*

يفرض هذا المبدأ على المرسل أن يكون صادقا في تدخله. وتندرج تحته قاعدتان فرعيتان هما:

1- لا تقل ما تعتقده خاطئا.
2- لا تقل ما لا تستطيع إثباته بدليل.

مبدأ العلاقة *(M-de relation)*

يفرض هذا المبدأ على المرسل أن يكون كلامه واردا.

مبدأ الطريقة *(M . de modalité)*

ينص هذا المبدأ على أن يكون تدخل المرسل واضحا؛ وتندرج تحت هذا المبدأ قواعد أربع هي:

1- دع الغموض.
2- دع اللبس.
3- تجنب الحشو(أوجز).
4- كن منظما[1].

إن الغرض الأساس من وراء هذه المبادئ هو تحقيق الفعالية القصوى لتبادل المعلومات بين أطراف المحاورة؛ أي تحقيق تواصل مثالي وشفاف. ويتجاوز مجالها التبادل الكلامي إلى مختلف المعاملات الأخرى كتقديم المساعدة على سبيل المثال.

و يعد احترام المبادئ السابقة ـ وخاصة مبدأ التعاون الذي لا يمكن خرقه في المحاورة، وفي كل عملية تواصلية تفاعلية ـ بمثابة تعاقد مواز لمجال الخطاب. ويؤدي خرق

(1) H- Paul Grice (1979) P.P : 61-62

إحداها، مع احترام مبدأ التعاون ، إلى توليد ما يسمى عند غرايس بالاستلزام الحواري *(implication conversationnelle)*؛ حيث إن الشخص الذي يصرح بالقضية (ق) أو يتظاهر أنه يصرح بذلك، يكون قد استلزم حواريا (س)، وذلك وفق الشروط التالية:

1- يفترض فيه أنه عالم بمبادئ الحوار، ومحترم لها، أو لمبدأ التعاون على الأقل.
2- يفترض فيه أيضا أن يكون مدركا، أو معتقدا أن (س) ضروري لكي يكون قوله (ق) لا يتناقض مع الافتراض الأول (رقم 1).
3- أن يعتقد المرسل (وينتظر من المتلقي أن يعتقد ما اعتقده) أن المتلقي قادر على أن يستنبط ضرورةَ الافتراض الثاني (رقم 2) أو أن يدرك حدسا ضرورة هذا الافتراض[1].

إذن فالاستلزام هو قضية معبر عنها ضمنيا بواسطة ملفوظ دون أن يَستلزمها منطقيا[2].

وقد ضرب غرايس مثالا للاستلزام الحواري هذا نصه: لنفترض أن المتكلم(أ) والمخاطب (ب) يتحدثان عن صديقهما (ج) الذي يشتغل في البنك، حيث سأل (أ) (ب) عن سيرة (ج) فأجابه بالملفوظ التالي:

[5] ـ اعتقد أنه في ٌحسن حال، إنه يحب زملاءه ولكنه لم يسجن بعد.

وبتطبيق ما سبق ذكره من المبادئ على المثال (5) أي على إعلان (ب) أن (ج) لم يسجن بعدْ يمكن استنتاج ما يلي:

1- أن (ب) قد خرق بوضوح قاعدة العلاقة التي تفرض على المرسل أن يكون كلامه واردا، ولكن لا داعي يجعلنا نفترض أنه يخرق مبدأ التعاون.
2- إذا استحضرنا المقام، يمكننا أن نعتبر أن ابتعاد (ب) عن الموضوع (ملاحظته) أي خرقه لمبدأ الوضوح *(La clarté)* ليس إلا أمرا ظاهريا فقط، وهذا يوصلنا إلى افتراض أن (ج) لص بالقوة *(en puissance)*.

(1) Ibid. P: 64
(2) D.Wilson et D.sperber(1979): Remarques sur l'interprétation des énoncées selon Paul Grice. In communications N°30.P: 86

(ب) يعرف أن (أ) يستطيع القيام بهذا الاستنباط *(déduction)*، إذن، يستلزم
م (ب) أن (ج) لص بالقوة[1].

لكي يستطيع المتلقي استنباط المعنى المستلزم حواريا عليه أن يأخذ في اعتباره
الآتية:
ى الاصطلاحي للمفردات المستعملة، وكذا هوية الإحالات الممكنة.
ا التعاون، والقواعد المصاحبة له.
ياق اللساني وغير اللساني للملفوظ.
بحر المشكلة للخلفية المعرفية.
ود (أو افتراض وجود) كل العناصر السابقة (1-4) في متناول المتحاورين،
إنها ويفترضان ورودها[2].

د قدم كرايس لمسار استنباط المعنى المستلزم حواريا على الشكل التالي:
د تلفظ (أ) بـ (ق)، وليس ثمة ما يدعو إلى افتراض أنه لم يحترم مبادئ المحاورة،
ل مبدأ التعاون. ولكي يفعل ذلك يجب أن يفترض (س)؛ إنه يعرف (ويعرف أنني
عرف) أنني أدرك أنه من المهم أنه يفترض (س)؛ إنه لم يمنعني من افتراض (س)؛
ن اعتقد (س) أويدعني على الأقل أفعل ذلك؛ إذن فقد استلزم (س)[3].
جدير بالذكر أن المرسل لا يلجأ إلى التضمين (الاستلزام، الإضمار...) إلا إذا
قد بأن المتلقي قادر على الوصول إلى المعنى الضمني، أو له إمكانية استدلالية
وصول إلى مضمون الخطاب اعتمادا على جملة من الكفايات التي تُيسّر له سبيل
ي الضمنية، هذا ما لم يكن غرض المرسل هو مغالطة المتلقي بقوله أو بفعل معين
ة ما؛ حيث يفهم المتلقي ما لم يكن المرسل قاصدا إليه، ومثال ذلك صاحب البيت
ضواء بيته مضاءة لإيهام اللصوص بوجود شخص ما بالداخل.

(1) H- Paul Grice (1979) P: 64
(2) H- Paul Grice (1979) P : 65
(3) Ibid. P: 65

إن احترام المبادئ الغرايسية كفيل بتحقيق تواصل مثالي بين الأفراد، إلا أن هذا التواصل يصعب، إن لم نقل يستحيل، تحققه في المحاورات التي تتم بين الأفراد يوميا؛ إذ غالبا ما تستعمل اللغة كأداة للتمويه وممارسة النفاق الاجتماعي؛ حيث يستطيع المرسل أن ينفي قصده الذي قد يعتقد المتلقي أن المرسل قصده من كلامه، كما يمكن للمتلقي بدوره الادعاء بأن فهمه لما تلفظ به المرسل لم يتجاوز حدود المعنى المباشر لما سمعه. وزيادة على ذلك يمكن أن يُتهم المرسل برغبته في قول شيء (أو أشياء) لم يقصده (ها) في حقيقة الأمر.... ولذلك سيتم تطعيم هذه المقاربة الاستدلالية بمجموعة من المعطيات مثل: المحددات النفسية والمعرفة المشتركة... وكذا إضافة بعض المبادئ من طبيعة أخلاقية مثل: مبدأ التأدب ومبدأ حفظ ماء الوجه....

لقد أشار بول غرايس إلى وجود نوع آخر من القواعد الجمالية والأخلاقية والاجتماعية إلا أنه لم يفصل القول فيها، ويمكن أن نتساءل في هذا المقام: ألا تعتبر هذه القواعد فاعلة بامتياز في إنجاح المحاورة أو إفشالها؟ ثم، ألا يمكن اعتبار مبادئ التأدب، التي اكتفى غرايس بالتلميح إليها، مبادئ حوارية؟ وأخيرا، إذا جاز لنا أن نعد المبادئ الحوارية التي وضعها غرايس بأنها ذات طابع كوني (*universalité*)، أفلا يعد من العبث أن نحسب قواعد المجاملة والتأدب قواعد عالمية أو كونية؟

عمل كل من دافيد غوردون وجورج لايكوف على إغناء مبادئ الحوار التي اقترحها غرايس، عن طريق اقتراح جملة من المسلمات الحوارية المرتبطة باللباقة والتأدب، وتتحكم هذه المبادئ في تنظيم السلوكات الحوارية للمشاركين في المحاورة.

انطلق الباحثان من مسلمة مفادها، أن المتكلم قد يستعمل ملفوظا معينا من أجل إبلاغ معنى ملفوظ آخر. ومثال ذلك أن يتلفظ شخص جاء لزيارة صديقه في غرفته بالملفوظ الآتي:

[6] ـ الجو بارد هنا.

فهذا الشخص قد لا يقصد بكلامه هذا إخبار صديقه ببرودة الجو في الغرفة، وإنما قد يقصد شيء آخر وهو الالتماس؛ فهو يلتمس من صديقه مثلا أن يقوم بإغلاق نافذة

ة او تشغيل مكيف الهواء... ويتم هذا الانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى المضمن
عدة المقام وتطبيق بعض القواعد الخطابية...

ومن بين هذه المسلمات الحوارية التي اقترحها الباحثان:

شروط الجدية: طرق تحقيق الالتماس:

1- جاد (أ ، التماس(أ ، ب، ج)) ـــ أراد(أ ، ج)

(يلتمس أ من ب بشكل جدي فعل الشيء ج، عن طريق إخباره بأنه يريد منه فعل ذلك)

2- جاد (أ ، التماس(أ ، ب، ج)) ـــ افتراض (أ ، يمكن لـ (ب، ج))

(يلتمس أ من ب بشكل جدي فعل الشيء ج، عن طريق افتراضه أن ب يمكنه فعل ج)

3- جاد (أ ، التماس(أ ، ب، ج)) ـــ افتراض (أ ، يستطيع (ب، ج))

(يلتمس أ من ب بشكل جدي فعل الشيء ج، عن طريق افتراضه أن ب يستطيع فعل ج)

4- جاد (أ ، التماس(أ ، ب، ج)) ـــ افتراض (أ ، ـ ج) حيث ج شكل مستقبلي (يفعل(ب ، د)) [ب سينجز الفعل د].

(يلتمس أ من ب بشكل جدي فعل الشيء ج، بافتراض أ أن ب لن يفعل ج في غياب الالتماس بل سيفعل د).

والصياغة العامة لهذه المسلمة هي: "إذا التمس المرسل (أ) من المتلقي (ب) بشكل
ن يقوم بفعل ما (ج) فإن (أ) يريد من (ب) أن يقوم بهذا الفعل (ج)، ويفترض(أ) أن
مكانه القيام ب(ج)، كما يفترض(أ) أن(ب) لن يفعل (ج) في غياب فعل
س"[1].

(1) David Gordon Et george Lakoff(1973): Postulats de conversation P: 33. Langage N 30 Juin

فهذه المسلمات تساعد على التمييز بين الملفوظات التي تفيد معنى الالتماس وملفوظات مشابهة لها لكنها لا تفيد المعنى نفسه. مثال ذلك:

[7] أ ـ أريدك أن تُخرج سلة المهملات.

ب ـ هل يمكنك إخراج سلة المهملات؟

ج ـ هل تستطيع إخراج سلة المهملات؟

د ـ هل ستُخرج سلة المهملات؟

نلاحظ أن كل هذه الملفوظات لها علاقة مع المسلمات الحوارية الخاصة بتحقيق الالتماس السابقة، ولذلك يمكن من خلالها تحقيق الالتماس كفعل المجازي غير مباشر (بحسب المقام). وبمقارنة الملفوظات [7] مع الملفوظات [8] سنلاحظ أنها تتشابه فيما بينها ولكن هذه الأخيرة لا تحقق الالتماس لأنها ليس لها علاقة بالمسلمات السابقة :

[8] أ- أفترض أنك ستخرج سلة المهملات.

ب- هل من الضروري أن تخرج سلة المهملات؟

ج- هل يُحتمل أن تخرج سلة المهملات؟

د- هل من الواجب أن تخرج سلة المهملات؟

يستفاد مما سبق أنه يمكن تحقيق الالتماس بشكل غير مباشر إما عن طريق إثبات شرط الجدية لدى المرسل، وإما عن طريق التساؤل عن شرط الجدية لدى المتلقي[1].

2- شروط المعقولية (*Conditions De Raisonnabilité*):

بعد أن تحدث الباحثان عن شروط الجدية المطلوبة من أجل تحقيق فعل إنجازي جاد، انتقلا بعد ذلك إلى الحديث عن شروط أخرى لها علاقة بالشروط الأولى بحيث يؤدي غياب هذه الشروط الثانية إلى تعرض الكلام للاعتراض، إنها شروط المعقولية. وبشكل عام فكل شرط من شروط الجدية المطلوبة لتحقيق فعل إنجازي يقابله شرط من شروط المعقولية. وهذه الشروط على الشكل الآتي:

(1) Ibid. P: 35

1- لا يكون الالتماس معقولا إلا إذا كان للمرسل سبب يجعله يرغب في أن يُنجز المتلقي الفعل الملتمس منه.

2- لا يكون الالتماس معقولا إلا إذا كان للمرسلم أسباب تجعله يفترض من خلالها أن المتلقي يستطيع تحقيق ذلك.

3- لا يكون الالتماس معقولا إلا إذا كان للمرسل أسباب تجعله يفترض أن المتلقي له استعداد لتحقيق ذلك.

4- لا يكون الالتماس معقولا إلا إذا كان للمرسل سبب يجعله يفترض أنه في غياب المتلقي لا يمكن لهذا الالتماس أن يتحقق.

5- لا يكون الإثبات معقولا إلا إذا كان للمرسل أسباب تجعله يعتقد ذلك.

6- لا يكون الوعد معقولا إلا إذا كان للمرسل سبب يجعله يكون لديه قصد تحقيق هذا الوعد[1].

ويمكن تبين أهمية شرط المعقولية من خلال العودة إلى الأمثلة (18 ب ج د) السابقة، إذ إن غياب شروط المعقولية لدى المرسل من شأنه أن يدفع بالمتلقي إلى الاعتراض على ما يتلفظ به المرسل وذلك عن طريق التساؤل عن الأسباب التي جعلت المرسل يرغب في تحقيق فعل ما كأن يقول مثلا:

[9] أ- لماذا تريدني أن أفعل ذلك؟

ب- ما الذي جعلك تعتقد أنني أستطيع فعل ذلك؟

ج- لماذا تنوي فعل ذلك؟

وقد انتقد الأستاذ طه عبد الرحمن، من جانبه، ما فعله كرايس وأمثاله من محللي الخطاب الذين ربطوا المحاورة بعدد من القواعد العقلانية؛ حيث ذهب إلى أن السلوك الإنساني، بما فيه سلوكه العقلي، مرتبط بما أسماه "بالقواعد الأخلاقية" المرتبطة بدورها

(1) طه عبد الرحمن (1998) اللسان والميزان: ص .ص 217-224.
طه عبد الرحمن(2002)، الأفاق الخلقية للعولمة، كيف يمكن درؤها؟ ضمن مجلة المتعطف العدد 20. ص 33.

بالجانب التعاملي في كل تفاعل إنساني[1]، لأن التفاعل عبارة عن متوالية من السلوكات[2]، وهذه السلوكات تخضع للعامل الأخلاقي أكثر مما تخضع للشروط العقلية.

ولذلك، اقترح الأستاذ طه عددا من المبادئ التي تندرج تحتها قواعد فرعية. مع تركيزه بالأساس على مبادئ التأدب التي أغفلها كرايس بالرغم من أنه ألمح إليها إلا أنه لم يفردها بدراسة خاصة ولم يركز على أهميتها في مسار المحاورة. وسنجمل هذه المبادئ التي اقترحها الأستاذ "طه" في الجدول الآتي:

المبدأ	صيغته	قواعده الفرعية	صيغ القواعد الفرعية
التأدب واعتبار جانب التهذيب	لتكن مؤدبا	*التعفف *التشكك *التودد	• لا تفرض نفسك على المخاطب. • لتجعل المخاطب يختار بنفسه. *لتظهر الود للمخاطب.
التواجه واعتبار العمل	لتضمن وجه غيرك	ينبني هذا المبدأ على مفهومي: الصيانة (للوجه)، والتهديد. وتتفرع عنه خطط تخاطبية خمس لها الصيغ التالية:	• أن يمتنع المتكلم عن إيراد القول المهدِّد. • أن يصرح بالقول المهدِّد من غير تعديل يخفف من جانبه التهديدي. • أن يصرح بالقول المهدِّد مع تعديل يدفع عن المستمع الإضرار بوجهه الدافع. *أن يصرح بالقول المهدِّد مع تعديل يدفع عن المستمع الإضرار بوجهه الجالب. • أن يؤدي القول بطريق التعريض،تاركا للمستمع أن يتخير أحد معانيه المحتملة.

(1) Alain trognon (1998): comment representer l'interaction? In : Echanges sur la conversation. Sous la direction de Jaques cosnier, Nadine Gelas,et c.k. orecchioni. Editions du CNRS. Paris.P19.

(2) طه عبد الرحمن (1998) اللسان والميزان: ص .ص: 237 ـ 253(بتصرف)

المبدأ	صيغته	قواعده الفرعية	صيغ القواعد الفرعية
التأدب الأقصى واعتبار التقرب	قلل من الكلام غير المؤدب، وأكثر من نقضيه	• اللباقة • السخاء • الاستحسان • التواضع • الاتفاق • التعاطف	• قلل من خسارة الغير،وأكثر من ربحه. • قلل من ربح الذات، وأكثر من خسارتها. • قلل من ذم الغير، وأكثر من مدحه. • قلل من مدح الذات،وأكثر من ذمها. • قلل من اختلاف الذات مع الغير وأكثر من اتفاقها معه. • قلل من تنافر الذات من الغير وأكثر من تعاطفها معه.
مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص	لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك	• قواعد التواصل : • النفع والضرر • إصابة الفرصة • الحاجة (الكم) • الأسلوب • قواعد التعامل : • القصد • الصدق • الإخلاص	• ليكن كلامك لجلب نفع أو دفع ضرر. • ليكن كلامك في الموضع الذي تصيب فيه فرصتك. • ليكن كلامك على قدر الحاجة. • لتختر أسلوبا ملائما للتكلم. • لتتفقد قصدك من كل قول تلقي به إلى الغير. • لتكن صادقا فيما تنقله إلى غيرك. • لتتجرد من أغراضك في تودداك للغير[1].

2- نظرية الأفعال اللغوية غير المباشرة في تصور سورل

رأينا مع أوستين أن تركيبة الفعل اللغوي تقوم على ثلاثة عناصر هي: الفعل الكلامي والفعل الإنجازي والفعل التأثيري. ويقوم الفعل الكلامي بدوره على تركيبة ثلاثية تحلل إلى على فعل تصويتي وفعل تاليفي وآخر دلالي.

وقد عمل سورل على إضافة الفعل القضوي في الصيغة التركيبية للفعل اللغوي لتدارك الالتباس الحاصل بين الفعل الدلالي والفعل الإنجازي. أما التمييز بين الفعل التصويتي والفعل التأليفي فلا يطرح إشكالا، فالتصويت يظل تصويتا والتأليف يظل تأليفا أن القواعد الفونولوجية والتركيبية لا تتغير . إلا أن الصعوبة تظهر مع الفعل الدلالي ما

دام يقوم على إدراج المعنى وإدراجه قبل القوة الإنجازية. ولتجاوز هذا الالتباس أعاد سورل صياغة تركيبة الفعل اللغوي لتشمل أربعة أفعال هي:

أ- **الفعل التلفظي**: ويقصد به إنتاج متوالية لغوية طبقا للقواعد الفونولوجية والتركيبية للغة المتكلم. أي أن هذا الفعل في تصور سورل يختزل الفعلين الفرعيين ضمن الفعل الكلامي في تصور أوستين وهما الفعل الفونيتيقي والتأليفي.

ب- **الفعل القضوي**: ويقصد به إسناد الكلمات بعضها إلى بعض مع إحالتها على مراجعها. ويضم هذا الفعل: الفعل الدلالي في التصور الأوستيني والفعل الحملي (علاقة إسنادية).

ج- **الفعل الإنجازي**: وهو أن تحقق فعلا إنجازيا كأن تخبر أو تعد أو تستفهم...

د- **الفعل التأثيري**: ويشير إلى الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي على المتلقي.

وكما يبدو واضحا، فالفعل الإنجازي والفعل التأثيري لم يختلفا في التصور السورلي عنهما في التصور الأوستيني.

لقد ساعد هذا التعديل الذي جاء به سورل، على تبيُّن الفرق بين المحتوى القضوي والقوة الإنجازية. إذ يمكن للمحتوى القضوي الواحد أن يظهر مع تحقيق أفعال إنجازية مختلفة.

ومثل سورل لذلك بالصياغة التالية:

ق (م ق)

حيث يرمز (ق) للقوة الإنجازية بينما يرمز (م ق) للمحتوى القضوي.

واقترح سورل وضع مجموعة من شروط النجاح الخاصة بالأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة؛ حيث ذهب إلى تحديد مجموعة من الشروط والقواعد المكوِّنة *(les règles constitutives)* والمنظمة لعملية تحقيق الأفعال الإنجازية المباشرة فيما يلي:

1- شروط المحتوى القضوي (*conditions de contenu propositionnel*)

تقتضي هذه الشروط ورود الفعل الإنجازي المراد تحقيقه داخل الملفوظ، وذلك بأن يُسند فعل مستقبلي (*acte future*) إلى المتكلم في حالة الوعد وإلى المخاطب في الالتماس. ومعنى هذا أنه يجب مراعاة العلاقات الإسنادية التي تضبط المحتوى القضوي.

2- الشروط التمهيدية (*Conditions préliminaires*)

يتدخل مقام الكلام والأهلية لجعل الكلام فعالا وذا معنى أو يجعلانه لاغيا وغير وارد. ومثال ذلك: عدم ورود أن يعلن موظف عادي في المحكمة عن افتتاح الجلسة بقوله:

[10] ـ أعلنُ عن افتتاح الجلسة.

لذلك، يشترط في المتكلم أن يكون في الوضع الذي يسمح له بتحقيق الإنجاز مع مراعاة ظروف المتلقي واستعداداته.

3- شروط الجدية (*Conditions de sincérité*)

وذلك، بأن لا يقول المتكلم إلا ما يعتقد صحته: الوفاء بالعهد، السؤال لأجل العلم... ويتأتى ذلك متى كان المتكلم جادا في كلامه، وقاصدا إلى تحقيق إنجازه.

4- الشرط الجوهري (*Condition essentielle*).

ويتعلق بصدق المقاصد، إذ لا ينبغي للمتكلم أن يقول ما يناقض معتقداته ورغباته.

وتخضع هذه الشروط، في مجملها، لشرط أساس هو توافر الظروف العادية لسلامة مجرى الكلام[1].

كما تطرق سورل من جانب آخر إلى ظاهرة تعدد القوى الإنجازية التي قد يحتملها الملفوظ الواحد، ولذلك، ميز بين نمطين من الأفعال الإنجازية هما: الأفعال الإنجازية المباشرة والأفعال الإنجازية غير المباشرة. فالمتكلم، حسب سورل، يمتلك إمكانات متعددة للتعبير عن مقاصده حددها في ثلاث هي:

(1) J. Searle (1972): les actes de langage. Hermann. Paris. P.P: 98-102.

1- أن يتلفظ المتكلم بجملة وهو يقصد ما تعنيه بشكل فعلي وحرفي.

2- أن يتلفظ المتكلم بجملة وهو يعني ما يقوله إضافة إلى أشياء أخرى، ومثاله أن يقول ابن لأبيه:

[11] ـ أريدك أن تفعل ذلك.

يحمل هذا الملفوظ دلالتين: الأولى صريحة، وتتمثل في إثبات إرادة وهي غير مقصودة وذلك بموجب علاقة الأبوة بين الابن وأبيه، ويحدّدُ هذه الدلالةَ الحرفية المحتوى القضوي للجملة وقوتها الإنجازية الحرفية. أما الدلالة الثانية فضمنية، وتتجلى في الالتماس وهي الدلالة المقصودة.

3- أن يتلفظ المتكلم بجملة وهو يقصد ما يقوله، ولكنه يقصد أيضا معنى آخر له محتوى قضوي مختلف تماما، نحو:

[12] ـ هل يمكنك أن تناولني الملح؟

يحمل هذا الملفوظ دلالتين: الدلالة الصريحة و يشكلها محتواها القضوي وقوتها الإنجازية الحرفية وهي قوة السؤال بموجب أسلوب الاستفهام المؤشر له بالأداة "هلْ" والتنغيم. والدلالة الضمنية المتمثلة في التماس المتكلم من المتلقي أن يناوله الملح[1].

وقد أكد سورل، في تحليله على دراسة الأفعال الإنجازية غير المباشرة، وأكد أن المشكل الحقيقي الذي يطرحه هذا النوع من أفعال اللغة الطبيعية هو: كيف يمكن للمتكلم أن يقول شيئا وهو يعني ما يقوله، ولكنه يقصد أشياء أخرى؟ وبالموازاة مع ذلك، كيف يتمكن المخاطب من الوصول إلى اكتشاف هذه المعاني الضمنية؟ وبشكل عام، كيف يتم الانتقال من الأفعال الإنجازية المباشرة إلى الأفعال الإنجازية غير المباشرة؟

يتم الانتقال من الفعل الإنجازي المباشر إلى الفعل الإنجازي غير المباشر ـ حسب سورل ـ عبر سلسلة من الاستدلالات. ويتحقق التواصل بين المتكلم والمخاطب من خلال الأسس الآتية:

(1) J. Searle (1982): Sense Et Expression. Ed. Minuit ,Paris.P: 71.

1- المعلومات المشتركة بين المرسل والمتلقي سواء كانت هذه المعلومات لسانية أم غير لسانية.

2- القدرات العقلية والاستدلالية العامة للمتلقي، واعتماد بعض المبادئ الحوارية[1].

ويمكن تفسير ذلك من خلال المحاورة الآتية:

[13] أ- لنذهب إلى السينما هذه الليلة.

ب- يجب أن أستعد للامتحان.

فالملفوظ (13 ب) ينجز فعلين إنجازيين أحدهما مباشر وهو الإخبار بأن المتلقي(ب) عليه أن يهيئ للامتحان، وفعلا إنجازيا غير مباشر وهو رفض اقتراح(أ) وهذا المعنى مقامي بامتياز عكس الفعل الأول المباشر الذي تدل عليه صيغة الملفوظ ذاتها.

ويتم الوصول إلى اشتقاق المعنى المضمن من المعنى الصريح عبر سلسلة من الخطوات الاستدلالية:

1 الخطوة الأولى: اقترح (أ) على (ب) أن يرافقه إلى السينما، فأجابه (ب) بأن عليه أن يهيئ للامتحان (وقائع المحاورة).

2 الخطوة الثانية: يفترض (أ) أن (ب) متعاون في المحاورة، وأن جوابه ملائم (مبدأ التعاون).

3 الجواب الملائم لاقتراح (أ) قد يكون قبولا لهذا الاقتراح، أو رفضا له، أو اقتراحا مضادا، أو استمرارا في النقاش...إلخ نظرية الأفعال اللغوية).

4 لكن الملفوظ (ب) لا يعبر، في معناه الحرفي، عن أي شيء من هذا القبيل، وهذا يعني أنه لا يمثل ردا ملائما. (استنتاج من المرحلتين 1 و 2)[2].

5 الخطوة الخامسة: من المحتمل إذن، أن(ب) يريد أن يقول أكثر مما نطق به. وسيفترض (أ) أن رد (ب) رد ملائم ، وأن هدفه الإنجازي الأولي مخالف للهدف الإنجازي الحرفي. (استنتاج من المرحلتين 2 و4). وتعد هذه الخطوة هامة، لأن المخاطب لن

(1) Ibid. P:73.
(2) Ibid. P:75.

يتمكن من إدراك الأفعال اللغوية غير المباشرة ما لم تكن له إستراتيجية استدلالية تمكنه من استنتاج الحالة التي يكون فيها الهدف الإنجازي الأولي مخالفا للهدف الإنجازي الحرفي.

6 الخطوة السادسة: يعرف (أ) أن الاستعداد للامتحان والذهاب إلى السينما يستغرقان وقتا هاما بالنسبة لليلة واحدة.(معلومات قبلية).

7 الخطوة السابعة: من المحتمل إذن، أن(ب) لا يستطيع أن يستعد للامتحان ويرافقني إلى السينما في الوقت نفسه. (استنتاج من الخطوة 6).

8 الخطوة الثامنة: يعرف (أ) أن أحد الشروط التمهيدية لقبول اقتراح ما هو القدرة على إنجاز الفعل الذي يدل عليه المحتوى القضوي.(نظرية الأفعال اللغوية).

9 الخطوة التاسعة: يتوصل(أ) إذن، إلى أن(ب) قال شيئا يفيد أنه لا يمكنه قبول اقتراحه. (استنتاج من الخطوات1 و7 و8).

10 الخطوة العاشرة: هدف(ب) الأولي إذن هو رفض اقتراح(أ). (استنتاج من الخطوتين5 و9)[1].

وقد عقب سورل على هذه الخطوات و أشار إلى أن عدد الخطوات الاستدلالية غير محدد في عشر، بل يمكن أن يقل عن هذا العدد أو يتجاوزه. كما أن النتيجة المتوصل إليها هي مجرد نتيجة احتمالية فقط، لأن المتكلم هنا يمكنه أن يواصل الكلام بناء على المعنى الصريح كأن يقول مثلا:

[14]- يجب أن أهيئ للامتحان، ومع ذلك لنذهب إلى السينما.

وأضاف سورل أن هذه الإستراتيجية الاستدلالية تشتغل كلما كانت هناك أفعال لغوية غير مباشرة؛ فعن طريق هذه الإستراتيجية يتمكن المتلقي، في البداية، من تبيان الاختلاف الموجود بين الهدف الإنجازي الأولي والهدف الإنجازي الحرفي ثم ينتقل بعد ذلك إلى تحديد الهدف الأولي.

(1) Ibid. P:76.

ويتم اعتماد الأفعال اللغوية غير المباشرة عادة في الأغراض التوجيهية (*Directifs*) داخل المحاورة؛ حيث لا يتقبل المتلقي أن تُوجَّه إليه الأوامر بشكل مباشر وصريح نحو:

[15] أ- اخرج من الغرفة!

ب- آمرك بالخروج من الغرفة.

ولذلك يضطر المحاور إلى البحث عن طرق غير مباشرة لتحقيق مثل هذه الأغراض بشكل يقوم على اللباقة والتأدب (*Politesse*). نحو:

[16] أ- ألا يزعجك أن تغادر الغرفة؟

ب- هل يمكنك أن تغادر الغرفة؟

ج- هل يمكنك أن تغادر الغرفة، من فضلك؟[1].

إن الغرض من التلفظ بالملفوظين (16 أ- ب) هو تحقيق فعل إنجازي هو الالتماس، إلا أن هذه القيمة الإنجازية ضمنية وليست صريحة مادام الملفوظان غير حاملين في بنيتهما اللغوية لأي مؤشر لساني صريح يدل عليها أي الفعل الإنشائي 'التمس' نحو:

[17]- التمس منك أن تغادر الغرفة.

فهذا الملفوظ يقدم لنا قيمة إنجازية صريحة للالتماس يدل عليها المؤشر اللساني 'التمس'، وهذا يختلف عن الملفوظين (16 أ ب ج) اللذين يدلان على الالتماس بشكل ضمني؛ حيث إن الغرض من الاستفهام ليس هو السؤال وإنما الالتماس.

كما ان المثال (16ج) يختلف عن المثالين (16أ ـ ب)لكونه يشتمل في بنيته اللسانية على مؤشر اشتقاقي هو العبارة (من فضلك) التي تستعمل غالبا في الالتماس، ودليل ذلك انه يصعب مواصلة الكلام في الملفوظ بناء على قوته الانجازية الحرفية التي هي السؤال، ولذا فإن هذا الملفوظ يصنف ضمن حالات الاستلزام الحواري المعمَّم عند غرايس.

وتتطلب عملية اشتقاق فعل الالتماس، كفعل إنجازي ضمني، تطبيق قواعد خطابية معينة. وهو ما سيتضح مع نظرية الاشتقاق الإنجازي لدى أنسكومبر.

(1) Ibid. PP: 76-77.

3-3 نظرية الاشتقاق الإنجازي (*La théorie de la dérivation illocutionnaire*) في تصور أنسكومبر *Anscomber*:

يعود الفضل في تأسيس هذه النظرية- التي تناولت بدورها إشكالية التضمين - إلى ديكرو (*Oswald Ducrot*) داخل إطار نظرية التلفظ (*La théorie De L'énonciation*).

وقد أكد ديكرو على ضرورة التمييز بين الجملة (*La phrase*) والملفوظ (*L'énoncé*)؛ حيث عد الجملة كيانا لسانيا مجردا مجانسا لذاته عبر تحققاته (*Occurrences*) المختلفة، أما قيمته فهي تابعة للدلالة اللسانية. أما الملفوظ فهو الحالة الخاصة والتحقيق الفعلي لهذه الجملة داخل العملية التلفظية. كما ميز بين الملفوظ والتلفظ (*L'énonciation*)؛ حيث اعتبر هذا الأخير هو ذلك الحدث (*Action*) الذي يتم بموجبه إنتاج ملفوظ ما، أما الملفوظ فهو كل متوالية لغوية تامة صادرة عن متكلم ما. ولذلك، اقترح أن يسمي القيمة الدلالية المرتبطة بالجملة بالدلالة (*La signification*)، بينما يستعمل المعنى (*le sens*) أثناء الحديث عن القيمة الدلالية للملفوظ[1].

وهكذا، فالجملة الواحدة يمكن أن تستعمل استعمالات متعددة بحسب الأزمنة والأمكنة والأشخاص، أي أن تَتَعَدَّدَ ملفوظات الجملة الواحدة، ويترتب عن هذا ثبوت تعدد المعاني للدلالة اللسانية الواحدة.

ومثال ذلك قول القائل:

[18] السماء صافية.

فهذه المتوالية تظل، خارج الاستعمال، خالصة للدلالة على نسبة الصفاء للسماء وفقط. وأما مع مراعاة الاستعمال، فإنها تتحول من جملة إلى ملفوظ ولذلك غالبا ما يُعْدَل عما كان فيها من دلالة لسانية إلى ما للملفوظ من معنى كأن تدل بحسب الاستعمال على اقتراح المتكلم القيام بنزهة رفقة المخاطب أو غير ذلك من المعاني التي يحددها المقام. فالمتكلم في هذه الحالة قد استعمل الجملة محققا بذلك ملفوظا. وإذا افترضنا أن المخاطَبَ لم يسمع ما

(1) Oswald Ducrot(1984) : Le dire le dit. Ed de Minuit, Paris. P : 95.

لم واضطر إلى إعادة قوله، فإن هذا المتكلم حينما يفعل ذلك، فسوف لن يعيد إنتاج نفسه، بل سيعيد تحقيق هذه الجملة بذاتها محققا بذلك ملفوظا جديدا لأن الملفوظ لا يتحقق إلا مرة واحدة، بينما يمكن للجملة الواحدة أن يتكرر استعمالها باستمرار.

ولذلك كله، تساءل ديكرو: هل يمكن للوصف اللساني للغة معينة أن يشرح كيف لفوظ ما أن يكون قابلا الدلالةَ على معاني مختلفة؟

من الواضح أن هذه المعاني لا تقدمها الدلالة الحرفية للجملة، بل يتم اشتقاقها ة عوامل مختلفة: المقام الذي يساعد على تحديد مرجع العبارات الإشارية (أنا، أنت، أن....)، والقواعد الخطابية (*Les lois de discours*) في علاقتها بالعلامات ة (*Les marqueurs Linguistiques*)، التي تساعد على اشتقاق الأفعال ة المختلفة التي تحتملها الملفوظات. وقد حدد ديكرو هذه القواعد كضوابط مفروضة ة التلفظ؛ أي في استعمالات الجمل وفي إنتاج الملفوظات.

ويشترط ديكرو، من أجل إظهار المعاني التي تحملها الملفوظات، القيام أولا بوصف للجمل أي تحديد دلالاتها. وهذا ما سيجعل مسار تأويل ملفوظ ما يتم عبر مرحلتين:

الأولى: وتبدأ مسارها من الجملة نحو الدلالة بمعزل عن المقام.

الثانية: وتبدأ مسارها من الدلالة إلى المعنى بمساعدة المقام.

وهذا ما جعل ديكرو يميز بين مكونين هما: المكون اللساني (*Le composant linguis*) مهمته تقديم وصف دلالي للجمل خارج المقام. والمكون البلاغي(*Le composant Rhéto*) الذي يعد دور المقام داخله حاسما في تغيير الدلالة التي المكون اللساني[1].

وقد تم تطوير هذه النظرية من قبل أنسكومبر (*Anscombre*)، وتتجلى المفاهيم بة في هذه النظرية في: الفعل الإنجازي المشتق (الفعل الإنجازي غير المباشر) ومؤشر ق الإنجازي وقواعد الخطاب.

(1) Ibid. P : 97.

يرى أنسكومبر أن وجود مؤشر لساني في الملفوظ يسمح بتحقيق فعل انجازي غير مباشر، ويشير ذلك إلى وجود قاعدة خطابية قد تم تطبيقها.

ومثال ذلك تحقيق الطلب عن طريق الاستفهام الاستطاعة:

[19] هل تستطيع خفض صوت المذياع؟

فالمتلقي سيفهم هذا الملفوظ على أنه طلب أو التماس من قبل المتكلم وليس مجرد سؤال. ويتم هذا الانتقال عن طريق تطبيق قاعدة خطابية على الشكل الآتي: إذا استفهم المتكلم (أ) المخاطب (ب) عن استطاعته فعل الشيء (ج) وكان (ج) في صالح (أ)، فإن (أ) يلتمس بشكل ضمني من(ب) فعل(ج)'

ويمكن تطبيق القواعد الخطابية أيضا مع غياب هذا المؤشر اللساني؛ إذ يعد كل فعل إنشائي (*Le verbe performatif*) بمثابة مؤشر اشتقاقي (*Marqueur de dérivation*) وبالتالي سيكون دليلا على وجود قاعدة خطابية قد تم تطبيقها. ومثال ذلك أن يتم تحقيق الالتماس عن طريق الإخبار.

لنفترض المقام التالي: يقول زبون لنادل في مطعم:

[20] طعامي ينقصه الملح.

فالزبون في هذا الملفوظ يلتمس من النادل أن يناوله الملح. وقد تحقق الالتماس كفعل إنجازي مشتق انطلاقا من الخبر (التقرير) بمساعدة المقام، وتطبيق قاعدة خطابية على الشكل الآتي: إذا أخبر المتكلم(أ) المخاطب (ب) بواقع الأشياء(ج)، وكان (ج) غير مرغوب فيه من قبل(أ)، فإن(أ) يلتمس بشكل ضمني من (ب) أن يزيل (ج)'. ويمكن صياغة هذه القاعدة كما يأتي: تُعد كل إشارة إلى نقص التماسا لإزالة هذا النقص[1].

(1) J. Moeshler (1985) Argumentation et conversation, éléments pour une analyse pragmatique du discours. HATIER-CEDF. P : 42.

الفصل الثالث

المقاربة المعرفية للمحاورة

يتميز الإنسان بقدرته الفائقة على إنتاج الرمز واستعماله بهدف التفكير والتواصل والتخزين بالذاكرة، والقيام بالاستباقات واستعمال اللغة باعتبارها نسقا متطورا للتواصل والتمثل[1].

وقد انشغلت مجموعة من المقاربات بمحاولة توضيح العلاقة الرابطة بين السلوكات والبنيات الدماغية وكيفية اشتغالها، وضمن هذا الانشغال شكل موضوع التواصل الإنساني مجالا خصبا للبحث تفرعت عنه أقطاب بالغة التعقيد والأهمية هي:

القطب الأول: علوم الأعصاب والعلوم المعرفية، ويهتم هذا القطب بدراسة التواصل في علاقته بالدماغ، سواء على مستوى الإدراك أم التذكر أم معالجة المعلومات واللغة. ونجد من داخل علوم الأعصاب تخصصات دقيقة: بيولوجيا الأعصاب، وفيزيولوجيا الأعصاب، وصيدلة الأعصاب، وسيكولوجيا الأعصاب، والمعلوميات. وفي العلوم المعرفية نجد السيكو- لسانيات، والمنطق، والمعلوميات، والسيكولوجيا المعرفية، واللسانيات.

القطب الثاني: العلوم المعرفية والعلوم الهندسية، ويركز هذا القطب على مشاكل التواصل القائمة بين الأفراد والآلات انطلاقا من نمذجة (*Modélisation*) ومن اصطناع (*Simulation*) لخصائص التواصل الإنساني. (المعلوميات، إلكترونيك، نماذج رياضية، آلية).

القطب الثالث: العلوم الإنسانية والاجتماعية، التي تهتم بدراسة تأثير تقنيات التواصل(المعلوميات، وسائل الاتصال عن بعد، الوسائل السمعية البصرية) على عمل المجتمع. كما يعمل هذا القطب على تحليل ردود أفعال الأوساط الاجتماعية

---

(1) بنعيسى زغبوش و عبد النبي سفير و مصطفى بوعناني(1997): نماذج البحث المعرفي ونمذجة العمليات المعرفية. ضمن مجلة "معرفة" العدد 1. ص: 10

المختلفة على حضور هذه التقنيات وشروط قبولها أو رفضها. كما يحاول تقييم التأثير الحقيقي لأنماط التواصل الجديدة على آليات السلطة والتراتبية[1].

وقد مكنت هذه الأقطاب من تحقيق تقدم كبير في الأبحاث حول الدماغ، سواء من خلال فهم آليات الجهاز العصبي أو من خلال علاقة هذه الآليات بفهم اللغة. أما في مجال التواصل بين الإنسان والآلة، فقد ساهمت تطبيقات المعلوميات في ازدياد قدرات التواصل الإنساني وتحويلها، وقد ساعد على ذلك التقدم الحاصل في شكلنة (*Formalisation*) القدرات المعرفية. أما على مستوى تأثيرها في الأوساط الاجتماعية، فقد ساعد النجاح السريع الذي حققته التقنيات الحديثة على تغيير آليات التواصل والسلطة، سواء في الشغل أو في أوقات الفراغ أو في تدبير المدينة[2].

وتنطلق هذه الأقطاب من سؤال أساس هو: ما هي الآليات التي يدرك الأفراد من خلالها الأخبار ويعالجونها ويتواصلون مع الخارج، وكيف يمكن لبعض هذه الآليات أن تخضع للنمذجة وللتكرار وللاصطناع، من قبل الآلات؟

لقد ركز بعض الباحثين اهتمامهم بدراسة نماذج الاستدلال والفهم أكثر من دراستهم لنماذج الإدراك وتحليل السلوكات كما رأينا مع أصحاب المقاربة الاستدلالية، في حين اتجه البعض الآخر إلى دراسة كيفيات إنتاج اللغة وإدراكها، وإشكالية النفاذ إلى المعجم الذهني، وكيفية ترجمة الموجات الصوتية التي يصدرها الأشخاص... داخل المجال الأرحب لعلوم المعرفية؛ حيث حاولت بعض الدراسات الانطلاق من السلوك الإنساني المتمظهر تجريبيا للوصول إلى كيفية انتظام السيرورات الذهنية التي تنتج هذا السلوك اللغوي وفق استراتيجيات التقييس كاختبار تجريبي تتحدد ثوابته الإجرائية داخل الانشغال الدقيق بقضايا الذكاء الاصطناعي. ومبرر ذلك، صعوبة دراسة اللغة بيولوجيا بالشكل الذي تتحقق به في الذهن الإنسان بسبب استحالة النفاذ إلى الذهن لملاحظة السيرورات اللغوية مباشرة.

(1) جاكبسون ومونان وميكي وهابرماس وآخرون: التواصل نظريات ومقاربات. ترجمة: عزالدين الخطابي وزهور حوتي(2007) تصدير: عبد الكريم غريب. منشورات عالم التربية.ط1. ص: 114.
المرجع نفسه ص: 115.

وفي هذا المجال المتسم بالتقنية العالية انشغل الباحثون بإشكالات مرتبطة بالفهم الصحيح لطريقة اشتغال الذاكرة الإنسانية، وكيفية التذكر، والتعلم، واستعمال الكلمات، وبناء الجمل وفهمها، وإنجاز الكلام وثوابت القراءة والكتابة.....وبذلك شكل الذكاء الاصطناعي الجانب الهندسي لنظرية اللغة، حيث يتحدد موضوعه وفق تقاطعه مع البحث اللساني في دراسة القدرات اللسانية الإنسانية، وتقييسها من خلال خلق نماذج(برامج) حاسوبية تحاكي نماذج التمثيل اللساني المفترض وجودها في الذهن البشري[1].

سأركز اهتمامي في هذا المقام على القطب الأول، أي قطب علوم الأعصاب والعلوم المعرفية في تناولها للتواصل. وسأخصص حديثي بشكل أكثر تدقيقا بتناول ثنائية إنجاز اللغة وإدراكها في السيكولسانيات. ومن بين اهتمامات هذا القطب:

1- **التواصل لدى الأطفال**: يرى الباحثون المتخصصون في هذا المجال أن معرفة الحالات التعلمية الأولى أساسي من أجل دراسة تكون أنساق التواصل والتناسق القائم بينها، كما أنها تسمح بتقييم الأدوار المتتالية للعوامل المعرفية(*Cognitifs*) والوجدانية (*Affectifs*) وبإبراز جوانب تواصلية أخرى وخصوصا الجوانب الإشارية. ومثل هذا العمل يستدعي تعبئة مختصين في فزيولوجيا الأعصاب وبيولوجيا الأعصاب وسيكولوجيا الأعصاب والسيكولوجيا والسيكو- لسانيات واللسانيات والمعلوميات.

2- **فهم اللغة وإنتاجها**: ويتعلق الأمر هنا بالجوانب السيكولوجية أكثر مما يتعلق بالجوانب اللسانية. ويعد دور المحيط والمقام حاسما في هذا الإطار، ويستوجب توضيح العلاقة القائمة بين نظريات اللغة ونظريات التعلم. وتهم هذه التيمة على الخصوص فزيولوجيا الأعصاب، والسيكو - فيزيولوجيا، والسيكو- لسانيات، والسوسيو- لسانيات واللسانيات، والتداولية والسيميولوجيا..

(1) بنعيسى زغبوش و عبد النبي سفير و مصطفى بوعناني(1997). ص ص: 5- 30.

المعرفة والذاكرة: ويتعلق الأمر بالوظائف الكبرى المقترنة بالتواصل الإنساني، أي بناء المعارف وتخزينها بالذاكرة واستعمالها في وضعيات الفعل[1]. ومن بين هذه المعارف: المعارف الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والتداولية.

ففي ما يتعلق بإنجاز اللغة وإدراكها ، مثلا، فقد أجريت العديد من الدراسات في ال السيكو- لسانيات بخصوص توضيح طريقة اشتغال المعجم الذهني أثناء إنتاج الكلام ثاء إدراكه. وقد شكل النشاط الكلامي محط اهتمام الباحثين في مجال العلوم المعرفية، نظرا يطلبه هذا النشاط من إو اليات ذهنية ودماغية بالغة الدقة والتعقيد، هذا على الرغم مما يبدو أن هذا النشاط اليومي عبارة عن بساطة طفولية أو كما عبر عن ذلك ستيفان بينكر (*Steven Pinke*) بقوله تعد هذه القابلية وهذه الكفاءة طبيعية جدا لدرجة أننا قد ننسى ا معجزة[2].

وتتجلى هذه المعجزة اللغوية بشكل واضح في قدرة الإنسان على استرجاع لمات المخزنة في ذاكرته بسرعة فائقة لكي يستعملها في الإنجاز اللغوي؛ وهناك بعض تديرات لعدد من الكلمات والجمل التي يعرفها الإنسان، لكن هذه التقديرات تختلف من ث إلى آخر؛ فبمقدور الفرد أن ينتج، في المتوسط، حوالي 100 إلى200 كلمة في الدقيقة إحدة، أي بمعدل كلمة واحدة في كل 400 جزء من الثانية، بل باستطاعته تضعيف هذا فاع بسهولة. وبهذه السرعة الهائلة يسترجع كلمات اللغة بمعلوماتها الدلالية والتركيبية لصرفية والإملائية والفونولوجية المخزنة في الذاكرة داخل المعجم الذهني. وقد قدر (*S.Pinke*) عدد الكلمات غير النشيطة (*Passifs*) التي يتم تخزينها في ذاكرة متكلم عادي إلى: 60 ألف كلمة، بينما قدر (*Leveler*) (1989) عدد كلماته المنجزة أو النشيطة (*Acti*) بحوالي : 30 ألف كلمة. كما قُدر عدد الجمل المختلفة التي يستطيع المتكلم زها بحوالي: 10^{20} جملة الذي يفوق عدد الخلايا العصبية الموجودة في دماغ إنسان عادي

جاكيسون ومونان وميكي....(مرجع سابق): 117.

لودفيك فيرون Ludovic Ferrand(2001) : الإنجاز الكلامي: رؤية شمولية. ترجمة: مصطفى بوعناني ضمن كتاب: الفونولوجيا الحاسوبية والمسارات المعرفية للإنجاز الكلامي (2003) مطبعة أبي، فاس ط1 . ص : 61.

والمقدرة بحوالي: 10^{10}. وهذه الحقيقة الأخيرة تجعل من غير الممكن البتة تخيل متكلم لغة ما يخزن في ذاكرته كل هذه الجمل الممكنة[1].

يتبين مما سبق، أن المعلومات التي يتم تخزينها في الذاكرة تكون معلومات مبنية ومنظمة، ولولا ذلك لاستعصى على المتكلم تذكرها وعلى المخاطب إدراكها وفهمها وتأويلها. يقول عبد القادر الفاسي الفهري إن التخزين لا يتم كيفما اتفق، أولا لأن عدد الكلمات كبير جدا، وثانيا لأن البحث عن الكلمات واسترجاعها يتم بسرعة فائقة قد لا تتعدى نصف ثانية[2].

كما يساعد هذا التنظيم المتلقي في عملية إصدار أحكام على هذه الكلمات أو تلك بكونها سليمة التأليف أو سيئة التأليف، ويميز بين التي تعد كلمة والتي لست كذلك....وفي مجال الجمل، يميز بين الجمل النحوية والأخرى اللانحوية..... وبشكل عام يميز بين ما يعد كلاما وما هو دونه. وهو ما عبر عنه (*Rossi Mario*) بقوله: "فالركام المعرفي الذي يتشكل في كل مستويات بَنْيَنَةِ اللغة، والمحفوظ (المخزن) في الذاكرة خلال سنوات طويلة، هو الذي يفسر النجاعة التي يعالج بها الإنسان اللغة، ومتانة هذا الاجراء وسرعته أيضا"[3].

وقد كان الشغل الشاغل للباحثين في مجال المعجم الذهني هو معرفة كيفية تنظيمه، وطبيعة المعلومات الموجودة فيه، ونوعية الإجراءات التي تسمح بالنفاذ إلى هذه المعلومات انطلاقا من مسارات معرفية بالغة الضبط والتعقيد.....

إننا نتكلم بشكل طبيعي يماثل طبيعة تنفسنا ، لكن هذه القرابة في البساطة والطبيعية بين العمليتين تخفي وراءها مسارات ذهنية جد معقدة، عمل الباحثون في مجال السيكو- لسانيات المعرفية إظهارها وتوضيحها. وقد شكل الإنجاز الكلامي تحديا كبيرا لهؤلاء الباحثين لأنهم يحاولون فهم الشيء الأكثر تعقيدا عند الكائن البشري؛ فبعدد نهائي من الكلمات

المرجع نفسه. ص: 62 ـ 63.

عبد القادر الفاسي الفهري (1998): المقاربة والتخطيط في البحث اللساني العربي. دار توبقال للنشر. الطبعة الأولى. ص : 162.

روسي ماريو(Rossi Mario)(1996): المعارف والمعالجة الآلية للكلام. ترجمة: مصطفى بوعناني(2003). مطبعة أبي ـ فاس. الطبعة الأولى. ص: 93

ينتج الإنسان عددا لا نهائيا من الجمل باعتماد عدد محدود من القواعد التي تسمح لنا بإنتاج جمل لم ننجزها البتة ولم نسمع بها من قبل، وهذا ما يؤكد أن اللغة غير نهائية[1].

لقد توصل العديد من الباحثين في مجال السيكو- لسانيات، على اختلاف توجهاتهم المعرفية ومنطلقاتهم النظرية، إلى أن الإنجاز الكلامي يتم عبر ثلاث مراحل أساسية:

1- مرحلة الصياغة المفهوماتية (*Conceptualisation*): وتخص هذه المرحلة الرسالة التي يراد التعبير عنها. ويتطلب الأمر هنا تحديد المفاهيم والأفكار التي يراد التعبير عنها لفظيا.

2- مرحلة الصياغة المعجمية (*Lexicalisation*): وتسمى أيضا بمرحلة النفاذ إلى المعجم: وتتأسس هذه المرحلة على انتقاء الكلمات المناسبة للمفاهيم والأفكار التي يتوخى المتكلم التعبير عنها، بهدف الوصول إلى بنية دلالية وتركيبية وصواتية وصرفية ملائمة. وتعد هذه المرحلة أهم مرحلة في الإنجاز لأنها تتوسط بين الصياغة المفهوماتية المجردة والتحقيق النطقي الملموس، كما أنها المرحلة التي يتم فيها استدعاء المعلومات اللسانية المطلوبة في كل إنجاز، وتفعيله بما يناسب اقتضاءاته الدلالية والتداولية. ولأن هذه المرحلة هي مرحلة تسنين بامتياز فإنها تنقسم، كما يتصور ذلك *Ludovic Ferrand*، إلى مرحلتين فرعيتين وهي:

- مرحلة التسنين الدلالي - التركيبي: وهي المطابقة لعملية استرجاع الليمات (*Lemes*): أي استرجاع المعلومات الدلالية والتركيبية للوحدات المعجمية المكونة للسلسلة اللسانية.
- مرحلة التسنين الصرفي - الصوتي: وهي المطابقة لعملية استرجاع الليكسيمات (*Lexémes*): أي كل المعلومات الصواتية والصرفية الخاصة بالوحدات المعجمية.

لودفيك فيرون Ludovic Ferrand(2001). ص: 62

وقد اقترح الأستاذ مصطفى بوعناني في هذا الصدد، ضرورة إضافة تسنين آخر يعد دوره مركزيا لإتمام ما يتم التوقف عنده في المرحلتين السابقتين. ويتعلق الأمر بالتسنين الصوتي - التركيبي:

- مرحلة التسنين الصوتي - التركيبي: وفي هذه المرحلة يتدخل التطريز لتوجيه التركيب المخصص لكل متوالية لسانية، حيث يعمل التطريز على تحديد النمط التعبيري الدقيق الذي يجب أن تتحقق به نطقيا. وبذلك يصبح عدد مراحل الصياغة المعجمية ثلاث مراحل بدل مرحلتين . وتربط بين هذه التسنينات المختلفة علاقة تفاعلية وفق تصور جل الدراسات الحديثة، وهو التصور نفسه الذي يتبناه الأستاذ في هذه المسألة[1].

3- مرحلة النطق (*L'articulation*): مرحلة التحقيق النطقي لكل المعلومات اللسانية الواردة في المرحلة الثانية[2].

وقد مثل الأستاذ بوعناني لهذه المراحل المختلفة بالرسم التالي:

(1) بوعناني مصطفى(2004): أهمية المعجم الذهني في إنجاز اللغة وإدراكها: المعالجة المعجمية و التحت - معجمية للوحدات اللغوية. ندوة تحت عنوان" اكتساب اللغة عند الطفل : الإدراك والمعرفة المعجمية" يومي: 21ـ 22 أبريل 2004. كلية الآداب والعلوم الانسانية سايس فاس. ص ص: 7ـ 9. (مقال)

(2) لودفيك فيرون Ludovic Ferrand(2001). ص ص: 63ـ 64.

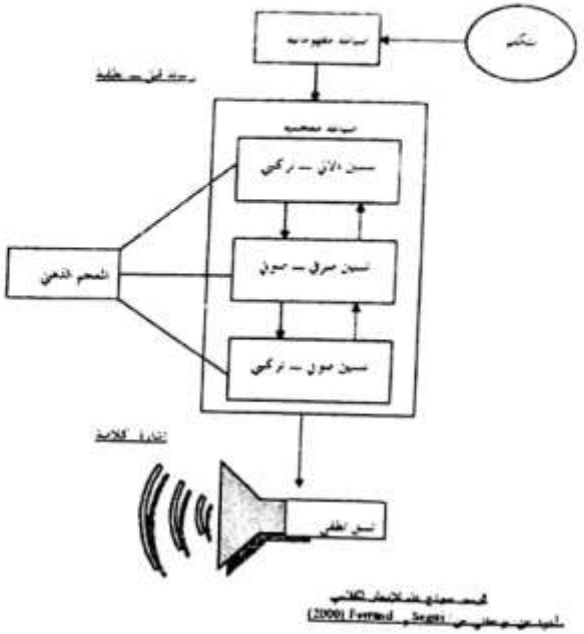

أما بخصوص إدراك الوقائع اللغوية المنطوقة فقد أكدت العديد من الدراسات أن الإدراك اللغوي عبارة عن متوالية من العمليات المتداخلة في مستويات مختلفة، تتفاعل فيما بينها وتتكامل لتحصيل إدراك لغوي مكتمل التفاصيل وسليم التأويل. وهذه المستويات هي:

- المستوى التحت ـ معجمي.
- المستوى المعجمي.
- المستوى التركيبي.
- المستوى التأويلي.

ويتم تفعيل أنواع خاصة من المعالجات التي تكون في ارتباط وثيق مع أنواع محددة من الوحدات اللغوية في كل مستوى من المستويات السابقة[1].

هكذا يتضح أن إنجاز اللغة وإدراكها يستدعي استثمار جملة من المعارف اللسانية: معارف صوتية، وصرفية، ودلالية، وتركيبية، وتداولية التي يتم تخزينها في الذهن البشري بطريقة منظمة، توجهها ثوابت معرفية دقيقة تمكن من استرجاعها بسهولة، واستعمالها بشكل صحيح وفعّال أثناء مسارات فهم اللغة وإدراكها وإنجازها.

ويمكن التمثيل لنموذج للإدراك اللغوي بالرسم الأتي:

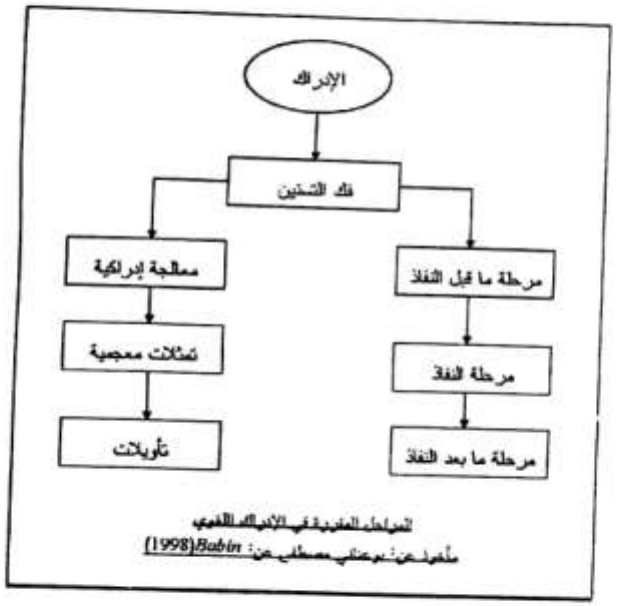

المراحل المفسرة في الإدراك اللغوي
مأخوذ عن: بوعناني مصطفى عن: Babin(1998)

(1) بوعناني مصطفى(2004)، ص:11

يبين الرسم أعلاه أن أهم إوالية يقتضيها الإدراك اللغوي هي عمليات فك
يفات: الدلالية ـ التركيبية، والصرفية ـ الصوتية، والصوتية ـ التركيبية المرتبطة ارتباطا
نا بالمعجم الذهني.

لقد كان من نتائج تطور السيكولسانيات، ميلاد سيكولسانيات تداولية ترتكز على
ة الوظيفة التواصلية للكلام، وبذلك تم تجاوز السيكولسانيات القديمة ذات التوجه
ومسكوي وتم تعويض مفهوم 'الكفاية النحوية' بمفهوم 'الكفاية التواصلية' حيث تتم دراسة
وظات من داخل مقامها التداولي[1]. فبعد استكمال المخاطب لمراحل فك التسنين غالبا
يلجأ إلى اعتماد آلية الاستدلال قصد فهم الخطاب فهما سليما. ومعنى هذا، أن هذه الآلية
خيرة مكملة لآلية التسنين؛ حيث تصبح البنية اللسانية مجرد معبر يتم المرور منه للوصول
المعنى الضمني. معنى هذا أيضا، أن الذهن البشري يشتغل وفق آليتي التسنين
استدلال.

ولذلك حاول سبيربر وويلسون، تحليل مختلف أنشطة الذهن البشري على مستويي
تاج(*Production*) والتأويل (*Intérpritation*) من وجهة نظر معرفية. وقد انتقد هذان
احثان بدورهما نظرية غرايس و جعلا من مسلمة الملاءمة أساساً لنظرية سمياها نظرية
ءمة. وهذه النظرية تدمج بين مشروعين معرفيين: الأول مستمد من علم النفس المعرفي،
ثاني مستمد من مجال فلسفة اللغة وبخاصة النظرية الحوارية لغرايس.

وكانت نقطة انطلاقهما المبادئ الحوارية الغرايسية؛ إذ تساءل سبيربر وويلسون مثلا
ء دراستهما لهذه المبادئ:

- هل تعتبر كل المبادئ التي اقتراحها 'غرايس' ضرورية؟
- ألا يمكن أن نلحق تغييرا بتلك المبادئ سواء بالاختزال أو الحذف أو الزيادة؟

جون ساجي(Juan Segui): السيكولسانيات بدون لسانيات: رهان خاسر. ترجمة: سماح الشاذلي.(1997) ضمن مجلة 'معرفية' العدد 1. جمعية البحث في العلوم المعرفية والترجمة بفاس. ص: 78).

وقد اقترح المؤلفان المذكوران اختزال تلك المبادئ في مسلمة واحدة هي مسلمة الملاءمة'(*Axiom* de pertinence) ونحواها أن 'يعمل المتكلم كل ما في وسعه لإنتاج ملفوظ أكثر ملاءمة'[1]. ولذلك فلا يتصور أن تقوم محاورة لا تحترم فيها هذه المسلمة التي لا يمكن خرقها خلافا لتصور غرايس الذي اعتبرها مجرد قاعدة فرعية قابلة للخرق كغيرها من القواعد الفرعية الأخرى. هكذا تتحول الملاءمة إلى مبدأ أصيل في كل تواصل.

وأشير في هذا المقام أن هناك حالات يكون فيها الملفوظ غير ملائم (غير وارد) على المستوى الظاهر أو الحرفي، بينما يبدو ملائما متى تمكن المخاطب من الاستدلال على المعنى الضمني. وهذا معناه أن الملاءمة تصنف إلى نوعين: ملاءمة مباشرة، وملاءمة غير مباشرة وهي التي يتم التوصل إليها بعد الاستدلال.

وتتحدد ملاءمة ملفوظ ما، حسب سبيربر وويلسون، ارتباطا بمجموعة من المعارف والتصورات (القضايا)؛ أي أن الملاءمة هي تلك العلاقة بين القضية المتلفظ بها من جهة ... وبين القضية الموجودة في ذهن المخاطب من جهة ثانية. ولذلك تتحدد الملاءمة بحسب النتائج التداولية بنوعيها المباشر وغير المباشر، وتسهم المقدمات الإضافية بطريقة غير مباشرة في هذه النتائج. وقد انطلق سبيربر وويلسون من التصور القائل: إن نتائج الاستدلال تختلف باختلاف مقدماته.

ويمكن أن نتبين ذلك من خلال الأمثلة التالية:

أ- هل تشرب القهوة؟

ب- لا، لن أشرب القهوة.

ج- لا أتناول المنبهات.

د- أريد النوم باكرا.

ولتأويل الملفوظ (1ب) يكفي الاعتماد على المعرفة اللغوية فقط، أما تأويل الملفوظين(1ج) و(1د) فيستدعي اعتماد العناصر التالية:

(1) D. Wilson et D. sperber(1979): Remarques sur l'interprétation des énoncées selon Paul Grice. In communications N°30.P: 89.

1- الملفوظ.

2- التلفظ.

3- المعرفة المشتركة[1].

وتبعا لذلك تختلف نتائج الاستدلال باختلاف المقدمات:

فاعتبار الملفوظ (1ج) جوابا عن السؤال (11) يقوم على:

- المتكلم لا يتناول المتبهات [ملفوظ]
- القهوة منبه [معرفة مشتركة].

واعتبار الجواب (1 د) ردا على السؤال (1 1) يقوم على:

- القهوة تذهب النوم لعدة ساعات [معرفة مشتركة].

ولذلك تختلف النتائج التداولية باختلاف المقدمات الثلاث:

1- نتائج تداولية مباشرة: وهي تضمينات مقدمتاها:الملفوظ والمعرفة المشتركة [مثال 1ج].

1- نتائج تداولية غير مباشرة: وهي تضمينات مقدمتاها: التلفظ والمعرفة المشتركة[المثال 1د].

وقد غاب عن غرايس، حسب سبيربر وويلسون، أمران اثنان أثناء تحليله، وهما:

إن التضمينات الحوارية تنحدر من التلفظ، وليس من الملفوظ.

المقدمات الإضافية للنتائج التداولية غير المباشرة[2].

وقد اعتبر سبيربر وويلسون أن تأويل الملفوظات يستند إلى نوعين من العمليات

النوع الأول: سنني ولغوي

النوع الثاني: استدلالي تداولي[3].

---

(1) Ibid P: 86.

(2) Ibid. P:87

روبول و جاك موشلر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ص: 80

وبالنسبة لسبيربر وويلسون فالعمليات الاستدلالية المعتمدة في حالة المعاني الضمنية هي من طبيعة نفسانية منطقية، وتعتبر مكملة لعمليات التسنين و فك التسنين كما أنها عمليات عامة؛ إذ نطبقها في أنشطتنا اليومية العادية كما نطبقها في أنشطة أكثر تعقيدا مثل البحث العلمي أو إنتاج الأعمال الفنية. بالإضافة إلى أنها، أي العمليات الاستدلالية، ليست خاصة بلغة معينة بل هي عمليات كونية، وغير محددة ثقافيا بل يشترك فيها جميع الناس. وقد ذهب العالمان أبعد من ذلك حينما اعتبرا أننا نشترك في أبسطها، على الأقل، مع الشدييات العليا[1].

تتميز هذه المقاربة باندماجها في مجالات أخرى- بالإضافة إلى مجال اللسانيات والمنطق مثل: علم النفس المعرفي و اللسانيات المعرفية والذكاء الاصطناعي... وغيرها من العلوم المعرفية التي يكون موضوعها حسب أندلر *D-Andeler* هو وصف القدرات الأساس للعقل الإنساني وشرحها وتقييمها؛ أي ما يتعلق باللغة *(langage)* والعقلنة *(résonne)* والإدراك *(perception)* والتنسيق الحركي *(coordination motrice)* والتخطيط *(planification)* [2].

إن القدرة على إجراء محاورة عادية بلسان طبيعي لدليل على ذكاء غير عادي للكائن البشري، إذ يتجاوز الأمر استعمال السنن إلى اعتماد عوامل معرفية تحكمها، إلى جانب القواعد اللسانية، القواعد التداولية التي أخذت تحتل مكانة هامة داخل مشهد التواصل الإنساني بمختلف أنساقه المتنوعة.

يتضح مما سبق أن مقاربة موضوع التواصل من وجهة نظر معرفية يسمح بتقديم تصور عام بإمكانه استيعاب أشكال التواصل المختلفة على مستويي الإنتاج والتأويل.

---

(1) المرجع نفسه. ص: 82.

(2) Georges vignaux (1992): Les sciences cognitives. Une introduction. Edition la découverte. P: 5.

الخاتمة

بعد هذه الجولة الصعبة والممتعة في الآن نفسه، لا يبقى عليّ إلا أن استجمع أهم الخلاصات التي انتهى إليها البحث في سطور معدودة وإن كان ذلك لا يُغني عن قراءته لمن يود الاطلاع على تفاصيل ما سيتم ذكره في هذه الخلاصة. ومن جملة هذه الخلاصات التي انتهى إليها البحث اذكر:

- لم يعد هناك فرد أو مجتمع أو مؤسسة... يستطيع العيش والعمل في عزلة، لأن ذلك مخالف لسنة الله في خلقه للإنسان وهي التعارف والتواصل، ولأجل ذلك فقد حباه الله باللغة ليَتيسَّر له تحقيق ذلك. ولذلك فدراسة موضوع التواصل وخاصة تقنيات التواصل اللساني وكفاياته وأشكاله وطرق فهم الصريح منه والضمني... سيكون له أثر فعّال على الحياة الفردية والجماعية والمؤسساتية لأن التواصل يُعدّ أداة مركزية لإنتاج الأفكار والقيم، وأساسا لبناء المجتمع الحداثي مجتمع المعرفة والتواصل.

وقد لاحظنا أن مؤسستنا التعليمية بدأت تستوعب البعد الإنساني للتواصل اللساني وخاصة الشفهي منه. وقد لاحظنا أن هذه المؤسسة تحث على أهمية تدريب المتعلمين على العلاقات الإنسانية والتفاعل والعمل الجماعي وإدارة الاجتماعات وعلى اكتساب تقنيات التواصل وخاصة الشفهي منه نظرا للصعوبات التي يواجهها المتعلم متى أراد أن يعبر ويتواصل شفهيا. لذلك فالتمرن على تقنيات التعبير والتواصل: تناول الكلمة ومهارة التكلم والإنصات الجيد والقراءة أو الكتابة التي تحترم علامات الترقيم.... كل ذلك سيجعل الطالب يكتسب معارف ومهارات تُعينه على اجتياز المباريات الجامعية والمهنية. أما افتقار الطالب لهذه التقنيات والمهارات فسيكون سببا في صعوبة تواصله مع الآخر ومدعاة للفشل والإخفاق.

- تعد المحاورة القاعدة الأولى والأساسية للكلام بل يمكن القول إنها جماع التبادلات الشفهية من الحديث اليومي العادي والبسيط إلى العلاقات العملية... وهذا ما يفسر المكانة الكبيرة التي تحتلها داخل مجموع التفاعلات الشفهية. إنها حاضرة في صميم

تعريف كل نوع من تلك التبادلات الشفهية: فالحوار محاورة محددة الموضوع والهدف والزمان والمكان والأطراف المشاركة و... والمناظرة محاورة ميزتها المحاججة بغرض الإقناع في موضوع معين، إذ يتعلق الأمر بآراء متضاربة حول موضوع معين يحاول كل طرف إقناع خصمه وتفنيد حججه.... والاستجواب محاورة بين طرفين سائل ومجيب لا يتمتعان بالحقوق والواجبات نفسها إذ يكون السائل هو المسيطر والمحدد لمحتوى المواضيع المتبادلة وهذا ما يخلق لاتوازنا في الأدوار التفاعلية...

- إن المحاورة (والتواصل الشفهي على العموم) متعددة القنوات؛ فهي تعتمد على أنماط سلوكية مختلفة من كلمات ونظرات وحركات... تربطها علاقات تكاملية. فهي جميعها ضرورية لأن كل قناة تمتلك مميزات خاصة تخدم التفاعل المطلوب في المحاورة.

إن التواصل اللفظي وغير اللفظي تربطهما علاقة تكامل واندماج، والحفاظ على هذا الاندماج هو الكفيل بتحقيق تواصل ناجح. فقد تكون العلاقة بين مضمون الرسالة والإيماءات المرافقة لها إما علاقة تأكيد مثل من يلحق بموافقته اللفظية، إيماءة برأسه، علامة الموافقة. أو من يرفض، بقوله (لا)، ويؤكد ذلك بحركة رافضة من رأسه ويده. وقد تكون هذه الإيماءات بديلاً عن الكلام مثل الإيماء بالموافقة، دون النطق بكلام، أو التصفيق، تعبيراً عن الاستحسان. وربما تكون هذه الإيماءات مخالفة لمضمون الرسالة اللفظية، مثل المريض المتألم، الذي يُسأل عن حالته، فيجيب، لفظاً، أنه بحالة طيبة، وهو، في الوقت نفسه، ينطق إجابته بتعب شديد. وصور المخالفة، في التعامل اليومي، كثيرة. منها قول الرجل لزوجته، إنه يحبها، بينما هو ينظر إلى ناحية أخرى، ولا يقبل عليها، ولا تنعكس لغته الجسدية ما يقول.

وكلما فشل المتكلم في خلق الاندماج المطلوب بين هذه العناصر كلما كان ذلك سببا في صعوبة فهم الرسالة من قبل المخاطب أو انقطاع في التواصل، وكمثال على هذا الخلل في خلق الاندماج بين هذه العناصر أوردت في البحث مثالا بخصوص الأمازيغي الذي لا يتقن الحديث بالدارجة المغربية والذي لا يحسن خلق ذلك الانسجام المطلوب بين هذه العناصر عندما يود التواصل. فهو يتحدث الدارجة المغربية ذات الجسد العربي بجسده

الأمازيغي وهذا لا يسعفه في التواصل الفعال. ولذلك فالمطلوب من هذا الامازيغي أن يغير حركاته بمجرد ما يغير من لغته الأم.

ويعتد المتحاورون أثناء عملية أخذ الكلمة في نظام تبادل الأدوار على علامات من طبيعة غير شفهية أو من طبيعة تطريزية.

مادام أن المحاورة ممارسة اجتماعية، فإنها تخضع ـ شأنها في ذلك شان كل الممارسات الاجتماعية الأخرى ـ لعدد من القواعد والمبادئ والضوابط... ـ منها ما هو كوني ومنها ما هو متعارف عليه بين أفراد كل مجتمع ـ من أجل تحقيق الروابط الاجتماعية التي تخضع لمنطق الحق والواجب...

هذا البحث هو مجرد إسهام في موضوع المحاورة. وهو موضوع يصعب على الضبط لحداثة البحث فيه، ولتعدد أنواع المحاورة (محاورة بين شخصين أو عدة أشخاص) وأشكالها وتجلياتها (محاورة وجها لوجه وهنا يبرز دور الكلام والحركات والمسافة...أو محاورة هاتفية..) ومجالاتها (البيت والشارع والعمل...).

وزيادة على ما تمت الإشارة إليه أقول: إن هناك أمورا أخرى مساهمة في إنجاح المحاورة أو إفشالها مثل: حالة المتكلم المخاطب (الحالة الجسمانية، والحالة النفسية، والحالة الاجتماعية، والحالة الصحية، والحالة الغذائية، والحالة المزاجية، والحالة العقلية التوجهات والقيم الايديولوجية...)، وإتقان قواعد التنفس السليم والاسترخاء، وحسن الإنصات، وعوائق التواصل وطرق التغلب عليها... ومحددات نظام أدوار الكلام وإخفاقات هذا النظام، والفرق بين الدور الحقيقي وغير الحقيقي في تدخلات المشاركين في المحاورة... والقواعد المؤسسة لاتساق المحاورة وانسجامها وإمكانية صياغة نحو (*Grammaire*) للمحاورة ... كل هذه الأمور ـ وغيرها كثير ـ ستشكل مادة مشروع بحث مستقبليّ سيعمل على إتمام ما تم تناوله في هذا البحث بحول الله.

المصادر والمراجع

باللغة العربية:

1. القرآن الكريم.
2. ابن جني أبو الفتح عثمان (د. ت): الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار.ط2. دار الهدى للطباعة والنشر. (3 أجزاء).
3. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (د. ت): لسان العرب.(قرص مدمج: مكتبة المعاجم واللغة العربية).
4. إسلام عزمي: لدفيج فتجنشتين. مجموعة نوابغ الفكر الغربي. عدد 19. دار المعارف بمصر.
5. الأفغاني سعيد (د. ت): في أصول النحو. المكتب الإسلامي.
6. الأوراغي محمد (2002): شروط إسهام الثقافة الإسلامية في بناء حضارة إنسانية. ضمن مجلة: المنعطف عدد 20.
7. أوكان عمر (2001): اللسانيات والتواصل. مجلة فكر ونقد، عدد36 سنة 4.
8. باشا أحمد زكي (1912): الترقيم وعلاماته في اللغة العربية. قدّم له واعتنى بنشره: عبد الفتاح أبو غُدّة. الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب.
9. الباهي حسان (2000): اللغة والمنطق. بحث في المفارقات. ط1. المركز الثقافي العربي. دار الأمان للنشر.
10. الباهي حسان (2004): الحوار ومنهجية التفكير النقدي. ط1. أفريقيا الشرق – المغرب.
11. برشيد عبد الكريم (2005): ابن الرومي في مدن الصفيح. ط1. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء.
12. بكداش كمال (1979): التعبير الشفهي والتعبير الكتابي. ضمن مجلة الفكر العربي. عدد مزدوج 8-9 .

13. بنفنيست إميل: "سميولوجيا اللغة" ترجمة سيزا قاسم (1987). ضمن كتاب: مدخل إلى السيموطيقا: سيزا قاسم- نصر أبو زيد ج 2 ط2.
14. بنكَراد سعيد (2000): المعنى بين التعددية والتأويل الأحادي. ضمن مجلة علامات، عدد 13.
15. بنكَراد سعيد (2003): السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها. ط1. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
16. البوشيخي عز الدين (1997): قدرة المتكلم التواصلية وإشكال بناء الأنحاء. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة. كلية الآداب مكناس.
17. البوشيخي عز الدين(2002): تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من منظور وظيفي. ندوة: اللغة العربية إلى أين؟ الرباط.
18. بوعناني مصطفى(2004): أهمية المعجم الذهني في إنجاز اللغة وإدراكها: المعالجة المعجمية و التحت ـ معجمية للوحدات اللغوية. ندوة تحت عنوان" اكتساب اللغة عند الطفل: الإدراك والمعرفة المعجمية". يومي: 21-22 أبريل 2004. كلية الآداب والعلوم الانسانية سايس فاس. (مقال).
19. تمام حسان (1994): اللغة العربية معناها ومبناها. الشركة الجديدة، دار الثقافة.
20. توسان برنار: ما هي السميولوجيا. ترجمة محمد نظيف (1994). أفريقيا الشرق.
21. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (د. ت): البيان والتبيين. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. دار الجيل بيروت.(ج 1و3).
22. الجرجاني الشريف (2003): التعريفات. وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود. ط2. دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.
23. الجرجاني عبد القاهر (1983): أسرار البالغة. تحقيق: هـ ريتر. ط3. دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر. بيروت.
24. الجرجاني عبد القاهر (1987): دلائل الإعجاز، تحقيق وتقديم: محمد رضوان الداية وفايز الداية- دمشق. ط2. مكتبة سعد الدين.

25. جهامي جرار (1994): الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية: دراسة تحليلية نقدية. ط1. دار المشرق بيروت.
26. حجازي مصطفى (1990): الاتصال الفعّال في العلاقات الإنسانية والإدارة. ط1. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
27. حنا سامي عياد وحسام الدين كريم زكي وجريس نجيب (1997): معجم اللسانيات الحديثة. ط.1. مكتبة لبنان ناشرون.
28. حنون مبارك (1987): دروس في السميائيات. دار توبقال للنشر.
29. درويش محمود (1977): ديوان: "أعراس" ط5، دار العودة، بيروت.
30. دولودال جرار: السميائيات أو نظرية العلامات. ترجمة : د. عبد الرحمن بوعلي (2000). ط1. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
31. رشيد أمينة (1986): السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر. ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا: سيزاقاسم- نصر أبو زيد ج1. ط2، منشورات عيون.
32. روبول آن وموشلر جاك: التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ترجمة: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني (2003) .ط.1. المنظمة العربية للترجمة. توزيع: دار الطليعة- بيروت.
33. روبول أوليفي: اللغة والإيديولوجيا. ترجمة حنون مبارك (1999). مجلة علامات عدد 12.
34. زاهيد عبد الحميد (1999): نبر الكلمة وقواعده في اللغة العربية، دراسة صوتية. سلسلة صوت 2. ط 1. دار وليلي للطباعة والنشر
35. زغبوش بنعيسى وسفير عبد النبي وبوعناني مصطفى (1997): نماذج البحث المعرفي ونمذجة العمليات المعرفية. ضمن مجلة "معرفية" العدد 1
36. ساجي جون: السيكولسانيات بدون لسانيات: رهان خاسر. ترجمة: سماح الشادلي (1997). ضمن مجلة «معرفية" العدد 1. جمعية البحث في العلوم المعرفية والترجمة، فاس.

37. سرحان إدريس(2000): طرق التضمين الدلالي والتداولي في اللغة العربية وآليات الاستدلال. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة. (ج1).
38. سرحان إدريس(2002): محاضرات كان الأستاذ يلقيها علينا في وحدة التكوين والبحث: اللسانيات العربية واللسانيات العامة، للموسم الجامعي 2002/ 2003 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز-فاس.
39. السيوطي جلال الدين (د. ت): المزهر في علوم اللغة وأنواعها. شرح وتعليق: أحمد جاد المولى والمجموعة.دار الفكر بيروت. (ج 1).
40. شغموم الميلودي (1999): تمجيد الذوق والوجدان ط1. دار الثقافة، مؤسسة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء.
41. طه عبد الرحمان(1998): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ط. 1. المركز الثقافي العربي.
42. طه عبد الرحمان (2000): في أصول الحوار و تجديد علم الكلام. ط2 . المركز الثقافي العربي.
43. طه عبد الرحمان (2002): الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. ط1. المركز الثقافي العربي.
44. طه عبد الرحمن (2002): الأفاق الخلقية للعولمة، كيف يمكن درؤها؟ ضمن مجلة المنعطف العدد 20.
45. عبد العزيز محمد حسن (1996): مدخل إلى اللغة. ط3. دار الكتاب الجامعي للنشر.
46. عشير عبد السلام (2000): إشكالات التواصل والحجاج مقاربة تداولية معرفية. بحث لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات التداولية. كلية الآداب ظهر المهراز، فاس.
47. العظيم أبادي أبو الطيب (1993): القاموس المحيط. مؤسسة الرسالة. (قرص مدمج: مكتبة المعاجم واللغة العربية)
48. العمري محمد (2002): دائرة الحوار ومزالق العنف. كشف أساليب الإعنات والمغالطة. مساهمة في تخليق الخطاب. ط1. إفريقيا الشرق.

49. غيرو بيير: سيميائيات التواصل الاجتماعي. ترجمة: محمد العماري. ضمن مجلة علامات. العدد12.
50. الفاسي الفهري عبد القادر (1998): المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي. ط1. دار توبقال للنشر.
51. الفاسي الفهري عبد القادر (2003): اللغة والبيئة. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. ط1. منشورات الزمن.
52. فيرون لودفيك (2001): الإنجاز الكلامي: رؤية شمولية. ترجمة: مصطفى بوعناني ضمن كتاب: الفونولوجيا الحاسوبية والمسارات المعرفية للإنجاز الكلامي (2003). ط1. مطبعة أبي، فاس.
53. لايكوف جورج وجونسن مارك: الاستعارات التي نحياها. عن ترجمة. عبد المجيد جحفة (1996). ط 1. دار توبقال.
54. لخضر عبد الله (2001): الأحكام الشرعية و قواعد استنباطها عند ابن القيم. ط1. مطبعة منشورات عكاظ. الرباط.
55. ماريو روسي (1996): المعارف والمعالجة الآلية للكلام. ترجمة: مصطفى بوعناني (2003). ط1. مطبعة أبي ـ فاس.
56. المتوكل أحمد (1988): اللسانيات الوظيفية مدخل نظري. ط1. منشورات عكاض.
57. المتوكل، أحمد (1995): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية. البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي. ط1. دار الأمان.
58. المتوكل أحمد (2001): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص. ط1. دار الأمان للنشر و التوزيع.
59. المتوكل أحمد (2003): الوظيفية بين الكلمة والنمطية. ط1. دار الأمان للنشر والتوزيع.
60. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. المكتبة الاسلامية.(ج 2).
61. المسئول عبد العلي (2005): الكافي في التجويد. ط2. مطبوعات الهلال، وجدة.

62. الميداني عبد الرحمن حسن حنبكة (2004): ضوابط المعرفة، وأصول الاستدلال والمناظرة. ط7. دار القلم، دمشق.
63. النيفر نور الدين (1993): فلسفة اللغة واللسانيات. ط1. مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع.
64. هولنشتاين إلمار: رومان ياكبسون أو البنيوية الظاهرية. ترجمة: عبد الجليل الأزدي (1977). ط1. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
65. وهبة مجدي والمهندس كامل (1979): معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. مكتبة لبنان.
66. ياكبسون رومان: الاتجاهات الأساسية في علم اللغة. ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم(2002). ط1. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
67. ياكبسون ياكبسون ومونان وميكي وهابرماس وآخرون: التواصل نظريات ومقاربات. ترجمة: عز الدين الخطابي وزهور حوتي(2007). ط 1، منشورات عالم التربية.

الاجنبية:

1- Austin, J. : Quand dire, c'est faire. Traduction et introduction de G. lane (1970). Ed. de seuil. Paris.
2- Barthes, R. (1964) : Eléments de Sémiologie. In communications N°4
3- Baylon, C et Mingnot, X. (1991): la communication. ed. Nathan.
4- Benveniste, E. (1974):Problèmes de linguistiques générales V2.E Gallimard Paris.
5- Chomsky, N. : Réflexions sur le langage .Tr.de l'anglais par Béatrice vautherin et pierre fiala Flamaripon (1981).
6- Dik, S. (1989): The theory of functional grammar. FORIS. Publications .
7- Devito Joeseph A (1938): les fondements de la communication humain. Tr. Johannel Massé et louise Rousselle. ed. Gaëtan morin.

8- Dubois, J ... (1973): Dictionnaire de linguistique. Ed librairie Larousse.
9- Ducrot, O. (1984) : Le dire le dit. Ed de Minuit.
10- El Azhari, A. (2005): L'Art de communiquer Avec Les Autres. E. A. C.
11- Gordon, D. Et Lakoff, G. (1973): Postulats de conversation . Langage N 30 Juin
12- Grice, P.(1979): Logique et conversation. Communication N: 30.
13- Jakobson, R. (1963) : Essaie de linguistique générale. T1.Ed. Minuit.Paris.
14- Larochebouvy, D. A. (1984): introduction à l'analyse sémio-linguistique de la conversation. Crédif .Paris .
15- Martin, J. C. (1999): Le guide De la Communcation. Marabout.
16- Martinet, A. (1970): éléments de linguistique générale L.armand Colin.
17- Moeschler, J (1985) : Argumentation et conversation, éléments pour une analyse pragmatique du discours. HATIER-CEDF.
18- Moeschler et anne Reboul (1994): le dictionnaire ancyclopédiques de pragmatique. Ed de seuil.
19- Moeschler, J. (1999): linguistique et pragmatique cognitive. L'exemple de la référence temporelle. Le Gré des Langues15. (http://www.unige.ch/lettres/linguistique/moeschler/publication_pdf/linguistique.pdf)
20- Moutaoukil, A. (1982): Réflexions sur la théorie de la signification dans lapensée linguistique arabe. Publication de la faculté dés lettres de Rebat.
21- Orecchioni, C. K. (1980): L'énonciation De La Subjectivité Dans Le Langage. Ed. Armand Colin. Paris.
22- Orecchioni, C. K. : la connotation. PUL. 2eme ed.
23- Orecchioni, C. K . (1986): L'implicite. Armand coolin.
24- Orecchioni, C. K.(1998) : Les interaction verbales. Approche interactionnelle et structure des conversations. TOM1, Troisième édition. ARMAND COLIN, PARIS.
25- Récanati, F. (1979): Insinuation et sous-entendu. Communication. N: 30.

26- Rey, A. (1998) : Le Robert Micro. Dictionnaire d'apprentissage de la langue française. LIBRAIRIE NATIONAL.
27- Sapir, E. (1986): Linguistique.Tr. Français ed. minuit .
28- Saussure, F. (1972) : Cours de linguistique générale, ed. Payot.
29- Searle, J. (1972): les actes de langage. Hermann. Paris.
30- Searle, J. (1982): Sense Et Expression. Ed. Minuit .
31- Sperber, D. et wilson, D. (1979)□ Remarques sur l'interprétation des énoncées selon Paul Grice. In communication N°30.
32- Sperber, D. et wilson, D. (1989): La pertinence; communication et cognition. Tr .Abdelger shenfeld et Dan sperber ed .minuit .
33- Tamine, J. G. et Hubert, M. C.(1998): Dictionnaire de Critique Littéraire. Cérès Editions.
34- trognon, A. (1998): comment représenter l'interaction? In : Echanges sur la conversation. Sous la direction de Jaques cosnier, Nadine Gelas, et C. K. orecchioni. Editions du CNRS. Paris.
35- vignaux, G. (1992): Les sciences cognitives. Une introduction. Edition la découverte.

المحاورة :
GN:34747
401 ب م

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث: الكفاية التواصلية المطلوبة في المحاورة	121
1- الكفاية اللسانية	121
2- الكفاية الموسوعية	126
3- الكفاية المنطقية	130
4- الكفاية البلاغية التداولية	134
الباب الثالث	137
المحاورة: مقاربات وعلوم	
الفصل الأول: المقاربة السننية للمحاورة	141
الفصل الثاني من الباب الثالث: المقاربة الاستدلالية للمحاورة	151
1- الاستدلال: تعريفه وأهميته في المحاورة	151
2- نظرية الأفعال اللغوية في تصور أوستين	155
3- طبيعة الآلية الاستدلالية في المحاورة	159
الفصل الثالث من الباب الثالث: المقاربة المعرفية للمحاورة	181
الخاتمة	195
بيبليوغرافيا المصادر والمراجع	199

مدخل عام

بواعث البحث في هذا الموضوع ومنطلقاتُه النظرية والمنهجية

1- البواعث:

أصبح العالم المعاصر واعيا بمسألة بالغة الأهمية، وهي الحاجة الماسة إلى ترسيخ قواعد التفكير النقدي وشروط المحاورة العقلانية والأخلاقية. كما يتطلب الأمر أيضا البحث عن مسالك المحاورة الساعية إلى الإقناع أو بالأحرى الاقتناع اعتمادا على الأدلة والحجج. وهو ما يعني في ذاته البحث عن الشروط الضابطة لمختلف التفاعلات الحوارية، وفي مقدمتها الحق في المحاورة القائمة على مبدأ الحق في الاختلاف.

المحاورة ممارسة اجتماعية ضرورية، تلازم الإنسان في كل أنشطته اليومية والمهنية... ولذلك فلن أجانب الصواب إذا قلت: إن نمو الحضارة الإنسانية بأكملها قائم على المحاورة بشكل خاص، وعلى كل أشكال التواصل الأخرى بشكل عام. فبقدر ما تتحسن طرق التواصل بين بني البشر- وخاصة ما يتعلق بالتواصل اللساني- بقدر ما تزداد قدرة الإنسان على النمو الحضاري. الذي يعد بحق الغاية المثلى المرجوة من كل أشكال السلوك الإنساني التي تحمل في عمقها تواصلا سواء أكان ذلك مقصودا أم غير مقصود.

هكذا يتضح لنا – منذ البداية- أن المحاورة تقوم بدور أساس في حياة الكائن البشري؛ حيث تساعده على تنظيم حياته وترتيبها وتنسيقها وتوجيه مسارها نحو الأمن والاستقرار اللذين يعتبران أساس النمو الاجتماعي، وذلك بخطوات قوية تتأسس على المحاورة القائمة على العدل والديمقراطية في الحقوق والواجبات. وتزداد الحاجة إلى المحاورة في وقتنا الراهن المشحون بمختلف أشكال التعصب والتطرف لدى التوجهات الإيديولوجية المختلفة .

وتقوم المحاورة-باعتبارها نشاطا اجتماعيا- بدور الوسيط في إنجاز أفعال اجتماعية، وهي بذلك وسيلة لتشكيل الواقع الاجتماعي. ولهذا فالاهتمام بها هو اهتمام بإنسانية